الطوفان .. ما بعد العولمة

صناعة الإعلام وتحول السلطة

د. خالد محمد غازي

مدخل للقراءة:

العولمة فى معناها المعجمى "هو أن يتخذ شئ ما بعداً عالمياً أو كوكبياً" وبهذا المعنى يصبح الأمر بريئاً ومنطقياً ومشروعاً، لكننا عندما نبحث عن مصطلح "العولمة" المتعارف عليه ويستخدمه الباحثون فى مجالات السياسة والاقتصاد والإعلام والثقافة، فإن الأمر يخضع للمساءلة، وفق المعايير الإنسانية والأخلاقية، فالبعض يرى أن المصطلح يعنى:

١ ـ العملية التى تصبح من خلالها شعوب العالم متصلة ببعضها دون اعتماد أو اعتبار لمفاهيم الهوية والخصوصية فى كل أوجه حياتها.

٢ ـ هى أيضاً التدخل الواضح فى أمور الاقتصاد ، الاجتماع، السياسة، الثقافة والسلوكيات دون إعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو الانتماء إلى وطن محدد، أو دولة معينة أو دون الحاجة إلى إجراءات.

وكلا التعريفين مبنى على أيديولوجية أى يعتنى بمنظور دون اعتبار للمفهوم، أى خروجه عن دائرة المألوف.. فيتلقى القارىء العربى مفهوم العولمة محملاً بقوميته وذهنيته وهويته.. ولماذا نتهم التعريفات السابقة

بتهمة الانتماء الأيديولوجى؟!

ببساطة لأن حاجـز "اللغة" يقف بين الظاهرة العالمية ومتلقيـها فيضع حدوداً معرفية (إبستـيميه) بين الظاهرة والتعريف.. ومن هنا تأتى ورطة الأيديولوجيا!

والعـولمة ليسـت ظاهرة جديدة، بل قـديمة قـدم التاريـخ، عندما كـانت تتصدر حضارة ما.. باقى الحضارات وتقود العالم.

فالبعض من ذوى القوميات والخصـوصيات الحضارية يرى فى العولمة ظاهرة "هيـمنة" بدأت مع انهـيـار الاتحاد السـوفـيـتى وظهور القـطبيـة الواحدية مقـابل الثنائية التى كانت تشكلها الكـرة الأرضية ـ الكوكب الذى نعـيش عليه، بين الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ونظيـرها السابق الاتحـاد السـوفـيـتى، ويدور الصـراع بين تمثـيل الرأسـمـاليـة التـوسـعـيـة فى الامبـراطورية الأمريكية.. والاشـتراكية التـوحدية فى روسيـا الاتحادية.. ومن هنا يبدأ سوء التفاهم!

لأن تصـوراً تاريخيـاً مغلوطاً بفـعل التـراكم المعرفى أدى إلى صـيـاغـة نموذج للعالم يقوم على الصراع الدائم بين قطبين مـتنافرين، تشكل أرضية هذا الصراع الخلـفية الجـغرافيـة والتاريخـية كمـا كان الفـرس قديماً فى صـراع مع الرومـان على تقـسـيم العـالم.هـذا النمـوذج الإدراكى للعـالم، والمشـحـون بفكرة الثنائيـة والقطبـيـة والصـراع إلى آخـره، أدى إلى هذا الرؤية.

من قـال إن هذا التصـور سليم حتى مـع تغيـير ركـائز معـرفة العـالم القديم؟!

إن تصور نموذج إدراكى للعالم، سواء اعتمد على التاريخ أو الجغرافيا فى النهاية هو تصور "نمذجة" بها كثير من الخلل لأنها غالباً ما تؤدى إلى الخلط بين التصور والواقع، فى سياق محاولة صناعة "محاكى". المحاكى هو ذلك النموذج الذى يستخدم فى التدريب على قيادة الطائرات والسفن إلا أن هذا النموذج المحاكى فى الصياغة الأخيرة تصور ذهنى منفصل عن الواقع بآلية المسافة الفاصلة بين صناعة الواقع بتاريخه وأحداثه، وبين الرواية عنه، أى كتابة تاريخه، فبقدر ما كانت الرواية التاريخية عن الأحداث والوقائع بسيطة ـ لسهولة العرض والتلقى ـ كانت الوقائع والأحداث معقدة ومتشابكة بدرجة يصعب معها الوصول إلى إدراك تفصيلى، نمطى عما حدث بالفعل.. هذه المسافة تحديداً هى الفاصلة بين التصور ـ النموذج ـ المحاكى ـ وبين الظاهرة فى حد ذاتها، فعندما يصر علماء الاجتماع، وفلاسفة التاريخ على تسييد نموذج إدراكى للعالم، هم فى بناءاتهم التصورية، يمارسون مهمة وضع هذه الأحداث التاريخية فى قالب أيديولوجى، وهذا التصور تحديداً كان أكبر تحد يواجه العولمة.. فبدأت بإعلان الثوابت المتغيرة وتفكيك المتغيرات الثابتة!

ومن أجل فهم ظاهرة العولمة كان لابد من تفكيك المقولات المعدة سلفاً ذات الطابع الأيديولوجى المعبأة باللهجة النضالية، الدفاعية التهكمية وبين الخلفية الفلسفية لإعادة صياغة النظام العالمى الجديد وهو له ضحاياه بلا شك، وهيمنة ظاهرة العولمة على كل طرق حياة المواطنين عالمياً كان لابد من وقفة للتأمل لنتساءل فى أمانة علمية، تقدر الظاهرة الكوكبية الإندماجية الجديدة المسماه بـ"العولمة" وتقدر كذلك الهويات المختلفة فى

العالم التى تحاول العولمة الظاهرة لا المفهوم دمجها فى محيط كونى أوسع من صراع الأقطاب الثنائية. ولما كانت دراسات هذا الكتاب كتبت فى مرحلة نضج المفهوم والإصطلاح وعدم نضج الظاهرة كان علينا إجراء معالجات وافية للمتغيرات التى صاحبت تطور الظاهرة من الميلاد ككائن عضوى حتى الطفولة والنضج مروراً بالمراهقة، ومن هذه المنطلقات الفلسفية والتاريخية ألزمنا تغيير بعض محاور الدراسة إلى ما قد وقع بالفعل.

نشير هنا إلى التقدم التقنى الهائل الذى أصبح يسابق تطور النظريات عبر العالم، هذا التحول أثر بشكل مباشر على التصورات الذهنية المفصولة عن الواقع بحيث انتهت الأيديولوجيا فعلاً بعجزها عن ملاحقة التطور التقنى!!

فالأيديولوجيا تخلفت عندما وقفت من تطور الظواهر موقف المتابع المدهوش لا المحلل الحكيم، وبانتهاء الأيديولوجيا انتهى مفهوم المثقف الداعى إلى التغيير فأصبحت المجتمعات تمارس التغيير والتحديث بشكل يومى بل ربع يومى أحياناً عبر التواصل مع قضاياهم المتدافقة والمعقدة المشابكة، ولهذا يقف العقل بتصوراته التى تصبح شيئاً من الماضى كل صباح، عاجزاً عن الملاحقة والتأويل والتفسير أو حتى التنظيم!!

لأننا تحولنا من مجتمع المعرفة إلى مجتمع المعلومات، وبين المجتمعين بون شاسع لا يدركه إلا العقل المتحرر من التصورات المسبقة لتفسيرات أصبحت تفقد صلاحيتها قبل وصولها إلى ورق الكتابة تعبيراً عنها!!

إننا عندما صدرنا الطبعات الأولى من الكتاب باسم "الطوفان" كان مقصدنا تناول العولمة الناشئة بوصفها هيمنة سياسية اقتصادية، معتمدة

على ثقافة آليات السوق وعصير التسوق الرأسمالى التوسعى، ووقعنا فى حشد هائل من المراجع والمناقشات ذات الـطابع السجالى، أما الآن فالوضع مختلف بحاجة إلى تفسير وفهم وتصور جديد.

لماذا؟!

لأننا نعيش ما بعد الطوفان، نقف أمـام ما فعل بالعالم، الحلو منه والمر أيضاً.. وأصـبحت آليـات التعرف علـى الظاهرة أكثر تحـرراً من النظريات الجامدة، التى تقـولبنا فى الثبات، على الرغم من اجتثات الطوفـان لثوابته القـديمة، وبذره لأرض جديدة تصنع ثوابـتهـا وتضع هوياتها على مـحك التوازن والاندمـاج بديلاً إنسانيـاً راقيـاً عن الجمود والامـتناع، فأصـبحت العـولمة واقعـاً ملمـوسـاً لا يفصلنا عـنه إلا نظرة على شـاشات الهـواتف المحمولة المدعوة بالجيل الثالث، وحصـار الماركات العالمية فى أزقة القاهرة الفاطمية وغيرها من الظواهر والمظاهر، التى تؤكد أننا نعيش عصر ما بعد الطوفان، فهل رست سفن العولمة على شواطىء موانينا؟!

هذا السؤال تحـديداً هو مدخلنا لمعالجة مـا نعايشه من خلال يومـياتنا على صـفحـات المدونات الإلكتـرونية.. والـشبكات العـمـلاقة التى تجـعل مواطناً عـربياً فى أزقـة المغرب العربـى يتحاور بشكل مـباشـر مع مواطن يابانى تفصله عنه آلاف الكيلو مترات من الجغرافيا. فماذا حدث بالفعل؟!

هل سقطت الحواجز والحدود؟!

وهل أصبح مجتمع المعرفة بديلاً عن مجتمع المعلومات؟!

وهل يخلو العالم من صراعات ومواجهات حول من يحكم العالم؟!

الواقع يقول إن ثمة عالمين غيـر منفصلين.. الأول واقعى والثانى تخيلى،

والأول محكوم بنظرية التاريخ والجـغرافيا والثانى محكوم بـفضاء خارج نطاق السـيطرة الجغـرافيـة أو التاريخـية. إن العولمـة ـ الطوفان ـ فـعلاً اجتاح حياتنا، إلا أنه لم يزل مـرهوناً بإمكانيات المواطن العولمى الذى يقدر على امتلاك تكنولوجيا العولمة وآليات التواصل والمعرفة العابرة للقارات!!

فهل كانت آليات العولمة تهدف إلى ذلك؟!

الحقيقة لا .. إلا أن تقنية المعلومات ليست رفاهية وامتلاكها مع الأيام لم يعد حكراً على من يملـك. لأن العولمة فى التجلى النهـائى.. هى صراع دائم للإجابة عن سـؤال محرج : نمـتلك أم نكون؟! لعلنا حاولنا فى فـصول هذا الكتاب أن نجـيب عليه وعلى غيـره من التساؤلات، لأنه فى غيـاب الجواب الكافى النهـائى الجامع المانع لا يبـقى لنا إلا طرح المزيد من الأسئلـة، حتى نجيب على بعـضها، ونتـرك للتحـولات العالمية الإجـابة عليها مـستقـبلاً، فـالعولمة ليـست شـراً مطلقاً.. وهى لا تخـضع للحكم القـيـمى التجـريدى بالخير أو الشر، لكنها تخضعنا جميعـاً لهيمنة التساؤل المعرفى عن كيفية التعامل مـعها بشكل إيجابى، بدلاً من أحكام النفى والإقصـاء ذات المرجعية السلفية.

ألم نقل لكم ..لقد إنتهى عصر الأيديولوجيا وبدأ عصر السؤال!

المؤلف

الفصل الأول:

تحول السلطة والاعلام

هل تطور الاعلام انعكاس لظاهرة العولمة وثورة الاتصالات؟

مازالت مقولة بيتر أبلار Peter Ablard احد فلاسفة القرن الثانى عشرـ شاخصة أمام أذهاننا حتى اليوم ـ فهو يقول عن العلم فى أسوأ حالاته " إن العلم من دون ضمير هو موت الروح".

إن كثيرا من الفرضيات التى اتكأت على جدل تاريخى تعتبر الخوف والشجاعة منطق الكوكبية على مرّ العصور، إذ لا الخوف الإنسانى يكون منجاة من الطوفان ؛ ولا الشجاعة الإنسانية تستطيع أن تنجو بالانسان من الاخطار. والحال أن الخوف يولد الدفاع والمقاومة .. وكذلك تفعل الشجاعة، ان نجحت، قد تتوحش وتتوغل نحو الهيمنة والرئاسة.

وإذا كان الآخرون هم الجحيم ـ حسب مقولة " سارتر" ـ وتصور الآخر أنه (أدنى) قيمة وأقل إنتاجا فنزعة الكراهية والعنصرية كرسّت لها السياسة ودعمت فرضيتها ولعل استمرارية ما يسمى بمصطلح " العالم الثالث "ـ على سبيل المثال ـ يكرس ويدعم (صورة انحرافية سلبية قائمة على تمثُل مجبول أساسا بالعداوة ـ كما يقول هشام جعيط ـ فجملة الانعطافات التاريخية المتسلسلة تؤكد عدم الاستغلال الفعلى للقوى العقلية .. وهذه النقطة الحاسمة تمثل قمة صعود النسق

الحضارى؛ أمـا ما بعده (مثل الاكـتشافات العلمـية الجديدة الآنية) وقـبله (نهاية تفكيـر العـالم والمكتـشف الزمـانى والمكانى بالعلم)، فـلا مـعنى لتـشكل الأمم والدول دون العلم والمعرفة.. ومتى تشكل منظور المعرفة والعلم فى أبهى صياغة للمشاريع العلمية والمعرفية ؛ فهو تأكيد أنه لا مناص من الدفع قدما نحو تحديث التـراكـم العلمى والمعـرفى والرقى به من أجل الانـسـانيـة ، إذ إن الاخـتـراع والاكتشاف العلمى يمثل الحالة الطبيعـية والعقلانية ؛ بهدف الوصول إلى قاعدة علمية متينة وراسخة ترتكز عليها المشاريع الناهضة بالأمم.

وإذا اعتبرنا أن غاية مجتمع مـا بعد العولمة هو الوصول إلى التحرر من النزعة المعادية لأبناء جنسه وتطهيره من حالة الكراهية التى تتـشبث بها المجتمعات، فإنه فى المقابل تعـتبر جميـع الوسائل الناجزة منذ فجـر التاريخ إلى الآن مما يمكن أن نسمـيه بنظام "الورثة الجدد" هـم على قناعة تامة بأن صـراع الأجيال على الخـير والشـر هو بناء كـونى وزمـانى ومكانى، ولا منازع عليـه سـوى بالسـيطرة على مقدراتها ومكوناتها الحيوية للإنسان.

فالشخصيـة الحاكمة والمهيمنة على زمام الامور؛ رغم قوة غطرستـها المستمرة عـبر التـاريخ لم تمنع من اسـتمـرار قانون الطبـيعـة كفـاعل حـقيـقى فى التطور والتـحـديث ، والذى نـاضل من أجله الأنبـيـاء والرسل والمـبـشـرون والعلمـاء والمفكرون والفلاسفة والحكمـاء؛ بينما اندثر مع من وقفوا ضد التغييـر فلسفتهم العسكرية والثورية والأيديولوجية وحل محلها مشاريع حضارية وفكرية جديدة .

إن التاريخ حـفظ لنا ملامح تذكارية من عظمـة الأمم والدول لا تزال شاهدة على عصرها وخلودها لما تركـوه من رصيد زاخر بالأحداث والتـحركات؛ التى أطرت معـرفيا وعلميـا للثورة التقنية والمعـلوماتية التى تعيـشها الدولة الكوكبـية المعاصـرة ؛ لذلك فإن قيـمة حضـارات الأمم السابقة كانـت فى آثارها ومنجزها الإنسانى الحضارى ونهوضها العلمية والفكرية.

إذا كان التاريخ هو فقه الحرية ـ حـسب تعبير " كانط " ـ أى أن الأحداث التى يصنعها الإنسان على مستوى الفرد والكل تقودها فكرة قيمية ، وهى الفكرة التى ناضل من أجلها المصلحون ، ومن ناحية أخرى يكون هذا الصانع هو الذى يبدل مسيرة الهـدف من مرحلة تاريخية الى أخرى ، وعندما نقـول (المجتمع) فإننا لا نحيد ما نسمـيه السلطة بعيدا عن المجتمع ، حيث يصـيغ التقابل (والاختلاف) بين الأيديولوجى (فى بعده السياسى) والثقافى، وحيث يتداخلان حد الاندماج ويتباعدان حد القطيعة والسلطة كـمفهوم (أيديولوجى) من ناحية تجريدية تضع نفسـها ـ بحسب رأى أبـو القاسم المشاى ـ فـى أهداف وفى رؤية مغايـرة عندما نبحث عنها داخل التـشكلات الاجتماعية ومـؤسساته المختلفة فإنهـا تختفى ولا وجود لهـا ويمكن الاستدلال عليـها من خلال مظاهرهـا فقط ؛ والتى يمكن أن ندركها فى سلوك الأفراد ومـؤسساتهم وقيمهم ومعتـقداتهم ، وبالتالى لو نظرنا إلى الثقافة كمركب من المعارف والعقائد والقوانين والأخلاق والعادات والفنون التى ينتجها المجتمع جيلاً بعد جيل ويكتسبها الإنسان باعتباره عضوا فى المجتمع ، فإنها (أى الثـقافة) تحوى مجـموعة من الأهداف التى تحصـرها الأيديولوجية

فى مجال اشـتغالها وفق دلالات غـائية تشترط وجود هـذه الأهداف (مرحليا) ولعل احتدام التـوترات المتعلقة بفكرة الهوية: هوية الجـماعة وعلاقتـها بالآخر ، ومع اشـتداد الانغلاق أيـديولوجيـا (الخصوصـية، الأصـالة)، تبقى هذه المعـادلة المتواترة بين (الأيديولوجيا، الثقافة) أسـيرة التاريخ ، ومن هنا يمكن النظر إليهما معا كمفهومين عصيا عن التباعد والتعارض .

ومع بزوغ الثـورة المعلوماتيـة فى أواخـر القرن العـشرين المنصـرم ، وتفجـر الدولة الكوكبيـة المفترضة وشيوع التجـارة الرقمية المتعددة الجنسـيات فى العالم "المتقدم ؛ الناهض ؛ المـتأخر "، بدأت تتشكل ظواهر اجتـماعية جـديدة من قبيل العـولمة .. مـثل ثورة المعلومـات وصـراع الحضـارات والاسـتنسـاخ والهندسـة الوراثيـة، وتعززت مـقولة الحـوار ونهاية التـاريخ والهامـشيـة والاقصـاء وأزمة الاقليات ، والتنمية الشاملة وثقافة السلم والحرب وتحرر المراة .. فضلا عن نزعة الأنسنة من جانب آخـر، لا سيما أيضا إشكالـية الخيال العلمى باعتـبارها ظواهر علمـيـة وعالميـة فى آن واحـد أذهلت سكان المعـمورة، حـيث تفـاقـمت ثقافـة الاستـهلاك لقطاعات عـريضة من الناس، وتقزمت حـركة المنتجـين إلى أقليات مـركزية فـى العالم المتـصف بالدفـاع عن قـيم الحـرية والديمـقراطيـة والعـدالة الاجتماعية ومحاربة جميع أشكال الظلم والقهر.

كمـا تشكل وسائل الاتصال والتـدفق الحر للمعلومـات أهم منتجات الثقـافة المعاصرة بتحليلاتها المختلفة التى تعتـمد الوسائط البصرية والصور التى يتم بثها لنشر رسائل وبرامج (مقـصودة) وموجهّة أيديولوجيا (وهنا الثقـافة والمعرفة فى

خدمة الأيديـولوجية وهى احدى ظواهر العـولمة)، إذ يمكن بث صور الكوارث والحروب والقتل كمأساة بشرية وبرؤية أخرى يمكن تقديم مشاهد الموت والقتل والصراع فى أفـلام السينمـا والمسلسلات التليـفزيونيـة على أسس وافتـراضات أيديولوجية ، وتتحول الثقافة الى وسيلة سيـاسية تحكمها استراتيجية وتساهم فى صناعة مواقف وآراء ومفاهيم لها إطارها التاريخى وهدفها الموجه .

والمهتم اليوم بدراسة هذه الظواهر الاجتـماعية المعاصرة، يدرك من أول وهلة حـجم انهـيار الخـصـوصـيات المحـلية والانا بـقدر تزايد حـجم الانفـتـاح على العموميـات والآخر، إن لـم نقل اغتيال جوهر الاستقـلال الوطنى الاستراتيجى؛ ثم المحاولة الدءوبة فى تغـيير خـريطة العالم، بفسح المجـال امام صعـود وهبوط مستـوى القيم المجتمعيـة والعادات والتقاليد الموروثة .. تـلك المتأصلة منذ القدم لصالح عادات وقيم واخلاق جديد مكتسبة، بدت كأنها غريبة وبعيدة وشاذة عن أصولـها وفضـائها الاجـتمـاعى ، باعتـبار أنهـا باتت تدق ابوابها أذهـان الافراد والمجتمعات لتحاربهم فى عقر دارهم.

وقد طرأت تحولات جذرية على المفاهيم المكونة للثـقافة بالرغم من تعارضها مع المكونات الدينية للمجـتمعات (الرق، العبـودية، الثأر.. إلخ) وتأسست رؤىً وأفكار جديدة (الاختلاف والحوار فى مواجهة الجدل والاحتدام).

ومن ثم يقع التسـاؤل عن مخرجات هذه الظواهر الاجتـماعية من الناحـيتين الايجابيـة والسلبية وتأثيـرها فيهـم.. والسؤال الذى يطرح فى هذا السيـاق: ماذا يريد الإنسان ككائن اجتـماعى من الدولة الكوكبية المـفترضة؟ وما بعد مـجتمع

العولمة ؟

إن ما ينجزه الإنسان فى حـقبة زمنية وعمرية معينة يؤثر فى المسـيرة الحضارية لبنى البـشـر ؛ و لا يمكن أن يندثر من الوجـود .. بل تعـتبـر ـ أحـيـانا ـ مركـزا للتحـولات التاريخية وهى التى تعـبئ المجتمـعات نحو التقـدم العلمى والمعرفى وقيادة التاريخ ؛ وتترك مجالا واسع النطاق للأجـيال الصاعدة من الاستمرار فى النهوض بالواقع الكوكـبى . ومن ثم يصبح الحديث عن انهيـار الدولة والإنسان مجرد وهم محقق ؛ لأن ذلك لا يكون أبدا .

لقد اسـتخلص " ابن خلدون " العـبرة الكبرى أن العلم يـمثل أكبـر استثـمار للعـقل البشـرى لبلوغ درجـة الكوكبـية فـى زمن أجداده، وأن التـخلى عن هذا الاستثـمار سبب "كارثة" سـقوط العرب والمسلمين صـرعى أمام الأمم والممالك والدول المطالبة بإعلان ورثة التـركة العلمية ومواردها البشرية بـقدر تناغمهم مع الوجهـة الغالبة والمقـلدة لها.. أما طرحـه لمفهوم العـصبيـة فهو من بـاب التعليم والأخذ بـالأسباب والمسـببـات فى نشأة الأمم والممـالك والدول وبناء الحـضارة الكوكبيـة المنيعة، فهو يعتـبر أن كل من يملك عصبيـة أكثر يملك سلطة أطول . ويعتـبر مفهوم الـعصبية عـند ابن خلدون محركا للتـاريخ، أى لا يمكن أن يقوم الملك إلا بالعصـبية النسـبية من ولاء وتحـالفات وصلة القربى أو الرحم القـائمة على الدم وفوق ذلك كله تمثل الصبغة الدينية العنصـر المكمل لزيادة قوة العصبية أكثـر فأكثـر يقول ابن خلدون: " ولما كانت الرئاسـة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عـصبيـة ذلك النصاب أقـوى من سائر العـصائب ليـقع الغلب بهم، وتتم

الرئاسة لأهلها".

ويضـيف: " وهذا التــغلب هو الملك ، وهو أمـر زائد علـى الرئاسـة إنما هى سؤدد، وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر فى أحكامه، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر، وصاحب العصبيـة إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها". (مصطفى الشكعة : الأسس الإسلامية فى فكر ابن خلدون)

إن العولمة تنشـد تأليف ثقافـة ذات بعد واحد ومن نمـط استبـدادى ـ على حّد قول عبد الإله بلقزيـزـ فهى محكومة بأفكار وتصورات وتراكمات معـرفية كما إنها ـ برأى حسـن حنفى ـ تعبير واقع ومـستمر وفى أشكال متـجددة عن الوعى المركزى المهيمن انطلاقا من الغرب.. بينما يرى عبدالله الغذامى أن العولمة نموذج بشـرى واقعى وهو نظام كـامل، لكنه ليس حـصـيناً فالحل لايكـون باستـشعـار الخوف وإنما بالتعـامل الواقعى مع الأمور".. " وأن العولمة كـائن نموذجى بشرى، ومن هنا فإن التعامل يجب أن يكون فى حدود شـروط الفعل البشرى، والتعامل معها لا يكون بالخوف والتخويف منهـا، وإنما يكون بأخذها مأخذ التفهم ـ أولاًـ والنقد ـ ثانياً ـ والتحاور معها مباشرة بعد ذلك" .

إن العولمة ـ بحسب د. عـامر عبد زيد ـ ليسـت محض مفهوم مـجرد بل هى جملـة عمليـات تاريخية لا يـحتويه تعـريف مصطـلحى محدد .. فـهى بالنسـبة للعاملين بالاعلام والصحافة تختلف فى مفهومها عن الساسة او الاقتصاديين .. فهى عمليات تاريخية متـداخلة تتجسد فى تحريك المعلومات والأفكار والأموال والأشياء، حتى الأشـخاص. أنها قفزة حضارية ، على نحـو يجعل العالم واحداً

أكثر من أى يوم مضى، من حيث كونه سوقاً للتبادل أو مجالاً للتداول أو أفقا للتواصل. وبالتالى فهى عملية مستمرة فى الاقتصاد والسياسية والاتصال؛ فالعولمة فى نظر غليون: هى الدخول بسبب تطور الثورة المعلوماتية والتقنية والاقتصادية معاً فى طور من التطور الحضارى يصبح فيه مصير الإنسانية موحداً أو نازعاً للتوحد .

إن معنى الوحدة هنا ليس التجانس والتساوى بين جميع أجزاء العالم والمجتمع البشرى بل إنها تعنى درجة عالية من التفاعل بين مناطق ومجتمعات بشرية مختلفة ومتباينة وبالتالى ازدياد درجة التأثير والتأثر المتبادلين ، لذا ارتبط مفهوم الاعتماد المتبادل «Interdependence» إذ إننا هنا بإزاء منظومة ثقافية سياسية وحضارية تشكل رؤية سياسية صوب ذاتها وصوب الآخر.

وتمثل العولمة الحقبة السلطوية الحضارية الثالثة بعد الكنيسة والدولة الليبرالية الحديثة؛ على المستوى التكوينى إما على المستوى البنيوية الأفقى، يجد الإنسان نفسه اليوم بين ثلاثة عوالم ، لكل منها هويته ومركز استقطابه: الأول هو العالم القديم باصولياته الدينية وتصوراته أللاهوتيه الغيبية أو الماورائية؛ الثانى: هو العالم الحديث بفلسفاته العلمانية وتهويماته الانسانوية ،الثالث هو العالم الأخذ فى التشكل الآن، أى عالم العولمة بفضائه السبرانى ومجاله الإعلامى، بإنسانه العددى ومواطنه الكوكبى. هذه العوالم الثلاثة التى تتجاذب الوعى بالهوية المجتمعية والثقافية، تؤلف ما يمكن تسميته ثالوث: القدامة والحداثة وما بعد الحداثة، وبصيغة أحدث ثالوث الأصولية والعالمية والعولمة. وفى المجال العربى

الأخرى تسميته ثالوث الاسلمة والأنسنة والعولمة.

وحين نستعرض مـفردات من قبيل: (التبعية، الاندمـاج، التكيف، الاعتمادية المشتـركة، الهيـمنة، الإمبـريالية، أمركـة العالم.. إلخ).. يرى ـ مـؤيد عبدالجـبار الحديثى ـ أن " العـولمة ليست رديفاً لأى من هذه المفـردات أو المصطلحات، لأن حقيقـتها أكبر من تلك المفردات مـجتمعة. فهى نظير لمجـموع تلك المصطلحات فى الأقصى، ولمعظمـها فى الأدنى. لذا لا ريب أن تضحى العـولمة نظاماً تتكامل فيه لـغة السياسـة والاقتصاد والمعلومـاتية. حيث يجد فـيه النفوذ السيـاسى مداه الاقتصادى، بينمـا يتكئ النفوذ الاقتصادى على ظهيره السـياسى، ويتدخل عالم الثروة الاتصالية ليؤطر الظاهرة بأبعاد متداخلة..".

وقبل شيوع مفهوم العولمة طرح ألفين توفلـر مفهوم الموجة الثالثة التى دشنتها البشـرية مع عصـر المعلوماتية والحـواسيب بعد الموجـة الأولى الزراعيـة والموجة الثـانيـة الصناعـية، وهـو ـ توفلر ـ يقـول لنا إن الهم الكبـيـر (كان فى العـصـر الصناعى، هو صنع الأشياء. وفى الوقت الحاضـر يبدأ همنا الأول بإدارة الأشياء). وكذلك يؤكد أن (المبدأ القائل بأن المعرفـة هى السلطة أصبح منذ الآن عتيقاً. فلكى تُمارس السلطـة تحتاج إلى معـارف عن المعرفة). وبهـذا نكون مع العولمة أمـام ظاهرة مركـبة ومـعقـدة، متـعددة الأوجـه إطارها المفـهومى ملتـبس، ومن الصعب الإمساك بجـميع آلياتها.. فهى أيديولوجيـة بمعنى انطوائها على منظومة من أفكار وأهداف محددة. وهى مجموعة من الاستراتيجيات المتوافقة لمؤسسات وحكومات وأشخاص تبدو مستقلة بعضها عن بعض.

ويتضح مما سبق ارتباط مفهوم العولمة بكثير من النظم المعرفية المختلفة، وبمفاهيم كثيرة ومتنوعة، مثل: النظريات الخاصة بعصر المعلومات Information Age، ونظريات أمركة العالم Americanization، ونظريات التغريب Westernization، ونظرية الرأسمالية Capitalism، ونظريات ما بعد الحداثة Post Modernism.. وغيرها، ويرتبط بوسائل الاتصال والاتصال ذاته على الرغم من أن الباحثين يتجنبون التركيز على وسائل الاتصال ذاتها عند مناقشة قضايا العولمة على أساس أن التركيز على تحليل وسائل الاتصال كثيرا ما يبالغ فى دور هذه الوسائل ويهمش الخصائص الأخرى، والتأثيرات عبر الدولية وعبر الثقافية، ويخفق فى أن يأخذ فى اعتباره على نحو كاف دور القوى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التى تحرك وسائل الاتصال .

وعبر كل المفاهيم المتباينة تتشكل خطاباتنا واستناداتنا المعرفية، نراهن على الفكر والإبداع ليخلصنا من هذا التشظى لنتخلص من الإرث الاستبدادى والفوضى التى تكرس لمزيدٍ من التناقض.

ففى عصرنا الراهن تغدو المعلومة هى قاعدة القوة، والمجال الحيوى للاستثمار الرأسمالى الرابح دائما.. وتكون المعرفة سلطة ، تتفوق فى تأثيراتها على أية سلطة أخرى عرفتها الإنسانية من قبل، فنصبح تحت طائلة التغيرات المتسارعة فى مجالات الاتصالات والمعلوماتية فى حقبة أخرى تختلف فى خصائصها وموجهاتها عن الحقب السابقة.. وأكد ألفين خطورة المعرفة فقال: المعرفة هى المحور الذى ستدور حوله حروب المستقبل وثوراته الاجتماعية.. إنها القاعدة

الأساسية لظاهرة العولمة «Globalization»، ومادامت السلطة هى المحتكر الرئيسى للاعلام فإن هذا الاحتكار تستتبعه وترتبط به عضويا مظاهر أخرى فى غاية الحساسية والخطورة.

لذا فقد أدت العولمة ـ بحسب د. عبد المنعم الحسنى فى كتابه "العولمة والأمن الثقافية" ـ إلى تجزئة عمليات الإنتاج وأسواق العمل والكيانات السياسية والمجتمعيات، مما يدعو إلى تحديد أبعاد أساسية لهذه العولمة، والتى تتمثل فى:

ـ أولا: أن العولمة حقيقة جديدة من الاقتصاد العالمى الذى ظهر بعد زوال هيمنة الدولة فى المجتمع الغربى، وبداية تشكل الكيانات السياسية والاقتصادية والإقليمية.

ـ ثانيًا: لابد من مراعاة تطور المنجزات العلمية والتقنية جراء ثورة المعلومات، التى ظهرت مع الشبكة الدولية للمعلومات، وكذلك الاتساع الذى شهده الإعلام خلال العقود المنفلتة.

ـ ثالثًا: التطور الهائل على جميع الأصعدة، وكذلك الانتشار الديمقراطى، وحقوق الإنسان بما تشمله من حرية المرأة وتطور الفكر الإنسانى والحوار بين الشعوب.

كما يحسب للعولمة أنها عملت على تلاشى الحدود بين الدول، وزيادة معدلات التشابه بين المجتمعات، إلا أنه كان لهذه السياسة مردودات سلبية على جهات، وأخرى إيجابية على جهات أخرى، مما خلق حالة من التباين فى المواقف تجاه تلك القفزة الحضارية.

وهنا يكمن سؤال غاية فى الأهمية، وهو: ما العلاقة بين العولمة والإعلام؟ وهل الإعلام العالمى تأثر بالعولمة؟ أم أنها انعكاس لظاهرة الإعلام العالمى الذى حمل الرسالة السياسية والاقتصادية والثقافية عبر وسائله التقنية؟

الحقيقة ان كلا الظاهرتين متلازمتان لا يمكن أن ينفكّ احدهما عن الاخر على الاقل فى عالمنا المعاصر الذى طوى شوطا من الزمن توسعت فيه دائرة العولمة من ناحية وكثرت وتشعّبت وسائل الاعلام فيه من ناحية اخرى.

العولمة أثرت وبحد كبير فى الانشطة الاعلامية فى عالمنا المعاصر ولا تخلو اليوم أية ظاهرة من ظواهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الاّ ولعبت فيها وسائل الاعلام دوراً يكاد يكون الاهم حتى بالنسبة لما تحتويه هذه الظواهر من معنى فى المجتمعات المختلفة.

١ - دور حيوى فى منظومة دولية :

ان الكثير من الباحثين يعتقد بأن عولمة الانشطة الاعلامية «تمثل أهم تطور إعلامى فى العقدين الاخيرين من القرن الماضى. وأن هذا التطور سوف يحدد مسار هذه الانشطة طوال سنوات القرن الحالى، فضلاً عما يمثله ذلك من أهمية وتأثير فى انظمة الاعلام الوطنية فى دول العالم». لكن هناك ايضا ملاحظات مهمة ـ من وجهة نظر د.حمدى أبو العينين ـ لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار وهى:

اولاً: ان عولمة النشاط الاعلامى لم تتحقق بعد بالصيغة التى ربما تكون قد استقرت لدى الكثيرين. ثانياً: ان ما تحقق عينياً هو عولمة الرسالة الاعلامية بفضل

سقوط الحواجز وهى ظاهرة «تقنية» اكثر من كـونها ظاهرة سياسية أو ثقافية على الرغم من تأثيراتها السياسية والثقافية.

ثانيًا: ان درجات استجـابة الانظمة الاعلامية الوطنية للتغيـيرات التى تفرضها عولمة صناعة الاعلام متفاوتة الى حدود بعـيدة، الامر الذى ينفى بشدة حقيقة أن تكون العولمة سمة أساسية لانشطة وسـائل الاعلام عبر مناطق العالم المختلفة فى الوقت الراهن.

ثالثًـا: ان عولمة النشـاط الاعـلامى، حيث توجـد الان، ليـست ظاهرة حديثـة تنتمى للعقدين الاخيرين من القـرن الماضى، إلا أنها تعبير عن تطور تاريخى تمتدّ جذوره الى القرن التاسع عشر، وان كـانت خطاها قد تسارعت فى الربع الاخير من القرن العشرين.

وفى هذا الصدد يرى روجيـه جيران أن الحقل السياسى الغربـى أصبح يتحدد بالكذب أكـثر من أى وقت مـضى بعـد انهيـار الأيديولوجـيات التـعبـوية، التى شكلت مـرجعيـات للقيم والدلالة وحـوافز للسلوك المثـالى، وإن وفرت أحـيانا كثيرة غطاء للتمويه والتزييف، وتبرز السياسة الكاذبة السائدة حاليا فى مستويين مترابطين تقديم الوعود المثالية الزائفة.

وضمن هذه الآليـة فى إنتاج صور تمثـيلية عن العـرب، يقول الكاتب محـمد حـسنين هيكل: لم يعـد العرب يواجـهون الخطر الأخـلاقى المتـعلق بسوء فـهم الرأى العـام الغـربى لهم وحـسب، بل إنهم فى خطر مـادى حـقـيـقى، لكونهم معـرضين لممـارسة القوة الـغاشمـة ضدهم التى لا تمتنع عن اسـتخـدام التدخل

العسكرى. وقد تنوعت الصورة المتخيلة عن العرب فى جغرافية شرقية صحراوية ويمكن إدراج نماذج لتلك الصورة رافقت التطور التاريخى الذى ولده الصراع السياسى، والذى أنتج بالتالى أشكالًا جديدة من التخيل، منها: صورة العربى المتمثلة فى شيخ صحراوى يحيط به حريم من الفتيات، وهذه الصورة ـ لا شك ـ وليدة ذهنية الاستشراق، وكذلك صورة العربى "المتوحش" أو غير المتحضر أو "ذى النزعة العسكرية"، كما أن الصراع مع إسرائيل جاءت محصلته إنتاج صورة "للعربى الإرهابى".

كما أنه وبعد بروز الأوبك ـ والكلام ما زال لهيكل ـ بوصفها قوة اقتصادية رئيسية وارتفاع أسعار النفط فى السبعينيات خلق صورة للعربى بالنهم والطماع وغير المستقيم، وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر تحولت دول الشرق الأوسط إلى دول راعية للإرهاب.. "انتهى كلام هيكل".

وقد كشفت الممارسات المختلفة فى سنوات الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين عن دورين اساسيين قامت بهما وسائل الاعلام فى المنظومة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية العالمية، وهو الدور الاقتصادى حيث تلعب فيه وسائل الاعلام دوراً مهماً. فقد أصبحت العولمة الاعلامية تمثل قيمة اقتصادية هائلة ومتنامية خاصة فى ظل اقتصاد المعلومات الذى أصبح السمة الاساسية للاقتصاد العالمى، حيث بلغت استثمارات صناعة المعلومات تريليونى دولار عام ١٩٩٥، وفى نهاية القرن (عام ٢٠٠٠) بلغت ٣ تريليونات دولار سنوياً بعد ان كانت هذه الاستثمارات لا تتجاوز ٣٥٠ مليار دولار عام ١٩٨٠، وثانياً الدور

الايديولوجى الذى يوفر بيئة معلوماتية وايديولوجية لدعم الاسس السياسية والاقتصادية والمعنوية لتسويق السلع والخدمات وتطوير نظام اجتماعى قائم على تحقيق الربح عبر الثقافات الوطنية المختلفة. والكتاب يحتوى على اربعة فصول اساسية. فى الفصل الاول حاول المؤلف أن يستوعب مفهوم العولمة فى بحوث الاعلام. فهذا المفهوم باعتقاد توسوفى كتابه المعروف «الامبراطورية الالكترونية: الاعلام العالمى والمقاومه المحلية» (١٩٩٨) يمثل أحد المفاهيم الحديثة فى الدراسات الاجتماعية بوجه عام بالرغم من كونه مفهوماً اقدم بكثير فى مجالى الدراسات الاعلامية والتجارة الدولية والدراسات الاجتماعية.

ويجرى العمل فى كل انحاء العالم على عولمة الإعلام، وتحتكر الولايات المتحدة ـ على سبيل المثال - نسبة عالية من صناعة الأخبار، وبث المعلومات عبر الفضائيات وشبكة الانترنت، ووكالات الأنباء، وتصدر عبر شركاتها ما يقارب ثلاثة أرباع البرامج التى تبثها عبر العالم، فى حين لا تتعدى نسبة ما تستورده الـ٢٪.

وتشير الدراسات إلى أن ٩٧ ٪ من الأجهزة المرئية موجودة فى الغرب الذى يمتلك أيضاً ٨٧٪ من الأجهزة المسموعة وأن٩٠٪ من مصادر الأخبار فى دول العالم الثالث مستوردة من الدول الغربية ؛ والمفارقة أن أوروبا نفسها ـ ناهيك عن العالم الثالث ـ تعانى هذا الغزو الإعلامى والثقافى الكاسح، فعلى سبيل المثال (يتجلى العجز الأوروبى فى كون هذه المجموعة قد صدّرت إلى أمريكا عام ١٩٩٢ ما يقدر بـ ٢٥٠ مليون دولار من الإنتاج السمعى المرئى فيما

استوردت من الولايات المتحدة ما يقدر بـ ٣٧٥٠ مليون دولار) . ونلمس هيمنة كاملة للغة الإنجليزية التى باتت اليوم لغة الاحتكار المعرفى والإعلامى/ المعلوماتى، لفرض ثقافتها ونموذجها الحضارى الذى تتبناه وتؤمن به.

ويلاحظ أيضا أن نحو ٨٨% من معطيات "الانترنت" تبث باللغة الإنجليزية مقابل ٩% بالألمانية و ٢% بالفرنسية، و ١% يوزع على بقية اللغات الغربية وأن السيطرة الأمريكية على العالم تستند إلى هيمنتها على الاتصالات. فثمانون بالمائة من عدد الكلمات والمشاهد والصور التى تدور حول العالم تأتى من الولايات المتحدة الأمريكية.

وتتركز سلطة الإعلام بيد من يسمون بارونات الصحافة (أمثال ماكسويل وروبرت مردوخ وهيرست؛ ففى الولايات المتحدة هناك خمسون شركة تمتلك معظم وسائل الإعلام. وفى بريطانيا هناك ست شركات إخبارية كبرى تسيطر على ثلثى الصحف والمجلات).

وتحتكر أمريكا صناعة الصورة فى العالم ـ إنتاجها وتسويقها ـ فواشنطن (وحدها تسيطر على ٦٥ % من حجم الاتصال المتداول فى العالم، كما أن أمريكا نفسها تحتكر ٣٥% من عملية النشر فى العالم و ٦٤% من الإعلان الدولى و٤٥% من التسجيلات و ٩٠% من أشرطة الكاسيت و ٣٥% من البث عبر الأقمار الصناعية.. وهذا يعنى أن أكثر من ثلثى حجم الإعلام الذى يبث فى العالم قادم من أمريكا..).

وهكذا نجد أن الصـور اليوم تخدم غايـات واستراتيجـيات قوى ومؤسـسات وأنظمة بعينها تمثل العالم الرأسمـالى الغربى، وتدفع الآخرين إلى مواقع السلبية والهامشية والاستهلاك المحض.

بعد استـعراض صور الصراع بين تلك الجماعـات مختلفة التأثير فـى سياسة الدولة، نلاحظ فى سلوك تلك الأقليـات أنها على المسـتوى السيـاسى والفكرى تعيش انفصالا على مستوى العقيدة أو المذهب أو الدم.. أما على مستوى العولمة فيزول ذلك الانفصال، حيث يحدث تعاون وتبادل للمصالح.

لذلك نتلمس فـى تلك الدول التى تعـيش اغـترابًا عـن واقعـهـا المنقـسم إلى عـصبـيات طائفـية وفـئوية وقـوميـة، أنهـا تحاول التـغلب على هذا الاغتـراب، باعتمادها إحـدى العصبيات المهنية التـى تعتمد الإكراه مع غيرها، سـعياً لكسب الشرعية التـى يراها الكثير سواء بالهيمنة القـانونية التى هى ذات طابع عقلى، أو الهيـمنة التقليـدية تبعاً للعـرف، أو الهيـمنة الكاريزما، بما يعنى أنهـا ذات القدرة الخارقـة على سحر الجـماهير والمتـمثلة فى الطابع الانفـعالى والتى تتطلب الثـقة الكاملة برجل استثنائى.

إلا أنه يمكن القول بأنه باعتبار الإعلام إحدى آليات السلطة السياسية المستبدة فى عالمنا العربى وهذا يعود بشكل إلى امتلاك الدوله بشكل مباشر أو غير مباشر عبـر التشريعات التـى تقيد حركـة الإعلام الخاص على ضـعف شأنه، لذا يمكن القول بأن الإعـلام العربى إعلام رأسى، يهبط من أعلى إلى أسـفل، وذلك يعود لمركـزيتـه وتوجـهـه الدعـائى، الذى يخـدم رأس النظام وهذا يتـخـذ من الفـرد

الاستثنائى محل اهتمامه الأول، ويبدو أن تلك السمات ساهمت بشكل أو بآخر فى ترسيخ السلطة القائمة وخلق سلوكيات عامة مرتهنة لهذا الأعلام فى وقت تمارس فيه القوة والإكراه الدور المرافق لهذه العملية، مما خلف رأياً عاماً ممزقاً خاضعاً للارتهان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الأعلام عبر هذه السياسة ـ العولمة ـ إنما تجاوز البعد التنويرى للإعلام باعتباره مصدر الحقيقة، وتحول إلى نوع من أنواع الدعاية التى تستهدف التأثير فى النفوس عبر أشاعة أفكار ومعلومات محددة، كما بات يهدف إلى السيطرة على الفرد، فى الوقت الذى استثمر فيه الإعلام وظائف الاتصال الترويجية لمفاهيم سياسية معينة، فقد أخفق الإعلام فى خلق رأى عام مقتنع بما لدية من تسويغات بما يمثل إخفاقًا للوظيفة الإقناعية التى تهدف من وراء الاتصال إلى إحداث تحولات فى وجهات النظر السائدة حول الواقع المحلى والعالمى والاقتصادى، كل هذا جاء جراء غياب العقلانية نتيجة هيمنة الرؤية اللا تاريخية واللا نقدية، مما خلف عسرا فى الاندماج الذى يعانيه المجتمع أصلا.

٢- الهوية واللغة

ربما كانت الأقطار العربية أقلّ استقبالا بحفاوة لمظاهر العولمة فى شئون عدّة ؛ ورغم هذا الاستقبال الحذر؛ فقد كانوا من أوائل ضحاياها ؛ حين يتعلق الأمر بلغتهم وثقافتهم ؛ لقد فهم البعض الانفتاح على العالم والانخراط فيه ؛ أنه يعنى التخلىّ عن لغتنا العربية واستخدام لغة الآخر، والتى أُطلق عليها لغة العلم

والتكنولوجيا، مع أن العـرب كانوا سباقين لفهم واكـتشاف العلوم وتطويرها .. فقـد أبدع العلمـاء العرب فى الرياضـيات والفلك والعـمارة والقـانون بلغتـهم العربية، كما أبدعوا فى الشعر والأدب والدين.

فيما عملت المؤسـسات الثقافية والإعلامية فى الغـرب على تقديم مسوغات للعولمة تتبع عدة خطوات أهمها: مخاطبه المؤسسات التربوية والتعليمية الوطنية، فى محاولة للبعد عن تسييس الدين ومواجهة الحركات الدينية وربما عدم التورع عن ضربها واستـئصالها بالقوة، ضمن هذا التوجه يلاحظ البـاحثين ـ الأمريكان بوجه خاص ـ بعلاقة العولمة بالبعد الحضارى والثقافى.

فقـد وجد أحد الباحـثين الأمريكيـين أن مناقشات الشـرق الأوسط فى كتب التاريخ المدرسية تزخر فى أغلب الأحيان بوقائع غـير دقيقة وافتراضات وتكرس لمفاهيم الخاطئة عن الدين الإسلامى، نلخص بعضها فى:

ـ أولًا: تشيد الكتب لدى مناقشة المعتقد الإسلامى بالترخيص بتعدد الزوجات والرق دون ذكر الحدود التى وضعها القرآن الكريم والسنة النبوية، فى تخصيص عموم النص.

ـ ثانيًا: تحـوى الكتب المدرسية شرح انتـشار الإسلام بقوة السـيف، فى تجاهل تام للعمليـة الطويلة التى استغـرقت قرونا، والتى أدت إلى التحـول إلى الإسلام من خلال الإقناع، وليس بحد السيف.

ـ ثالثًـا: كثيـرا ما تتـجاهل هذه الكتب الإسـهامـات الإسلامـية فى الحـضارة الغربية، وتتعرض لتاريخ للشرق الأوسط بعبارات سلبية فى الأغلب.

ـ رابعًا: حينما تتعرض الكتب المدرسية الخاصة بالجغرافية للوطن العربى تبالغ فى تأكيد عنصر البـداوة فيه، وقلما تتطرق إلى عملية التحـضر التى تجرى بمعدل سريع، كما أنها لا تتطرق إلى التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، إلا قدرا ضئيلا من الاهتمام الجاد، فيما تحظى إسرائيل بمعـاملة متحيزة، سواء فى طريقة الحديث عنها أو فى حجم المساحة المخصصة لها فى كتاب مدرسى.

فأصبحنا نجد أطفالاً عرباً، فى مدن عربية، ولأبوين عربيين، لا يتقنون العربية، ويتشدقون بلغة أخرى ويمارسون بهـا حياتهم ، فكيف تتقن لغة أو لغات أخرى دون أن تتـقن لغـتك الام .. وانعكس ذلك على اهمـال القـراءة باللغة الـعربيـة بموروثاتها .. ان اللغة هى احدى مفردات الهوية.

ان قيم الانسان العـربى نبعت من جذوره الثقافيـة والمعرفية والبيئـية والدينية؛ فكانت المنطقة العربيـة مهدا للديانات الثلاث ، ومبعث الوحى لـلإنسانية، الأمر الذى يتناقـض مع أخطر مـفـرزات العـولمة، ألا وهى المادية الـذى تتـحكم فـيـه الشركـات المتعـددة الجنسيات، فـكان الصراع على المنطقـة العربية ليـس للثروة والنفط والغذاء فقط .. بل كان صراعا وحربا على طمس الهوية بجميع صورها وجوانبها .

٣- منافسة شرسة على صناعة المعلومات :

واذ كان عصر العولمة عنوانه الرئيسى المعلومـاتية ؛ فان العرب وجدوا انفسهم أمام نـدرة انتاجـهم الفكرى .. ينهلون من عوالـم مفتـوحة تسـتهـدف عقـولهم وقيمهم وثرواتهم؛ دون فرز أو تنقية أو تصفية ؛ فإذا أخذنا بعين الاعتبار مصادر

المعلومات التى تغذى الفضائيات العربية، ووسائل الإعلام العربية المقروءة والمسموعة والمرئية، وهى مصادر فى الغالب غير عربية ، إذ لا توجد وكالة أنباء دولية واحدة تنشئ الخبر من وجهة نظر العرب، وإذا ما أضفنا إلى ذلك تسابق الآخرين لإطلاق فضائيات تابعة لهم بلغتنا العربية وترجمة صحفهم و مجلاتهم ووسائل إعلامهم للإنسان العربى.

وفى رأى د. راسم الجمال «كتاب الاتصال والإعلام» أنه باستثناء المضامين الإعلامية التى تبثها القنوات الفضائية الإخبارية وعلى رأسها قناتى «الجزيرة» و«العربية» والقنوات الفضائية المستقلة التى تبث من خارج العالم العربى يجنح الخطاب الإعلامى القومى الذى تبثه وسائل الإعلام الوطنية، خاصة الصحافة إلى التعبير عن الإحباط وخيبة الأمل علاوة على اختفائه فى أحوال كثيرة من الخطاب الإعلامى الرسمى فى بعض الدول العربية ومن الواضح أن محترفى الكتابة فى القضايا القومية فى العقود الأخيرة قد وصلوا إلى حالة من اليأس التام وعدم القدرة على طرح بدائل للاستجابة القومية للتحديات التى تواجه العرب .

ويتردد فى الفكر القومى العربى المتداول على صفحات الصحف العربية مصفوفة من الأفكار المحبطة منها على سبيل المثال أن فكرة الوحدة العربية قد ماتت «ففى الوقت الذى أصبحت فيه التكتلات العملاقة هى الشغل الشاغل لدى دول وشعوب العالم قبل دخول القرن القادم خفت حدة الصوت العربى الذى كان ينادى بالوحدة العربية حتى أصبحت هذه الفكرة نغما بلا عازفين

وأصبح الحلم العـربى فى مولد وحدة عربـية بعيد المنال.. وبدأ كل عـربى مؤمن بالوحدة العـربية يتسـاءل : هل أصبحـت هذه الوحدة العربيـة مريضا فى غـرفة الإنعاش؟» «فهمى هويدى: الأهرام ٥/ ١٢/ ١٩٩٨» .

وهنا يبـدو أن البعـد القومى يهـبط فى كثـير من الأحـيان إلى حـد أدنى ويتم تجاهل تطورات خطيرة على المستوى الـقومى فى صحف بعض الدول العربية أو تظهر مقتضبة فى سطور قليلة فى زحام نشرات الأخبار الإذاعية والتليفزيونية .

وعلى سبيل المثال ـ أيضا ـ ما منشأ كلّ مـا نراه ونسمعه ونقرؤه من أخبار عن فلسطين والعراق والسودان والصومال؟ ومن الذى يصوغ هذه الأخبار حتى عن مجريات الأحداث التى تتعرض لها هذه البلدان؟

الأخرون أخذوا على عاتقهم تشخيص وحل قضايانا وصياغة المعلومة والخبر بدلا منا ، من خلال نشاط اعلامى (لغـوى وثقافى وأيديولوجى) ويقطع شوطا باسـتلاب العـرب المعرفى ، فـالعالم مـع العولمة يتـحول فى عـلاقاته واتجـاهات السلوك فى مجتمـعاته وأشكال مؤسساته، وأنماط مفاهيمـه وقيمه، وهويات هذه المجتـمعـات، (حتى إن مفـهوم الهـوية ذاتها يتـخذ بعداً ومـحتـوى مختـلفين) وكذلك فى اهتمامات البشر وأذواقهم وحسهم الجمالى ، وثقافتهم وأخلاقهم .

وفى كل هذا تسـتثـمـر العولمة من خـلال التطورات الحـاصلة فى مجـالات الاتصال والإعلام وتـقنيات المعلومات إلى تهيـئة الأرضية النفـسية والثقـافية فى المجتمعات الأخرى، لقبول رؤيتـها وطرحها والانجذاب إلى (النموذج الحياتى) الذى ترغب فى تعميمه.

فيما تتفق كل المصادر الدولية على أن العالم العربى هو أقل مناطق العالم من حيث قدراته العلمية والتكنولوجية والبشرية وأضعفها من حيث إسهامه واستفادته من مجتمع المعرفة ومزاياه التى بدأت الدول الغربية تنتقل إليه منذ حوالى نصف قرن وتبعتها بقية دول العالم.. والعرب بذلك يكررون مشاهد تاريخية سابقة فقد دخلوا عصر التصنيع متأخرين قرونا وها هم يدخلون عصر المعلومات متأخرين عقودا وعلى الرغم من هذا التأخر فى الولوج إلى مجتمع المعرفة فإن أوضاعهم متأخرة فهم ليسوا منتجين للمعرفة ولا مستهلكين لها ولا مستفيدين بها بشكل جيد ولا هم قادرون على التأهيل للتحول إلى مجتمع المعرفة.. «راسم الجمال الاتصال والإعلام» .

وثمة دراسات تشير إلى أن أوضاع العرب فى هذا المجال لن تتحسن فى العقد القادم فالمعوقات كثيرة جدا والدوافع الحافزة للانطلاق فى مجتمع المعرفة قليلة جدا هى الأخرى « Burkhart & Older , 2003» ومن المتوقع أن يزداد العرب تخلفا قياسيا بالدول المتقدمة حتى لو بدا بعض العرب متقدمين قياسا بأنفسهم أو بالنسبة لأوضاعهم فى سنوات أو عقود سابقة .

وقد عبر تقرير التنمية البشرية العربية لعام ٢٠٠٢ عن هذه الحقيقة بالإشارة إلى أن الخيار الأساسى أمام العرب هو ما إذا كان مسار المنطقة العربية تاريخيا سوف يظل متسما بالقصور الذاتى وبالإبقاء على الهياكل المؤسسية والإجرائية التى أفرزتها التحديات والمشكلات التى تواجه العرب اليوم أو الانطلاق نحو نهضة عربية كبيرة وأن على العرب أن يختاروا فى هذا الصدد بين خيارين:

أولهما: الاستمرار فى الاعتماد على المجتمعات الغربية الرائدة فى انتاج المعرفة، وثانيهما: بناء قدرة الانتماء إلى مجتمع المعرفة العالمى بإقامة نظام ديناميكى وفعال لحيازة المعرفة وهو ما يعد أحد المفاتيح الأساسية للتقدم فى الدول العربية .

وقد ربط التقرير بهذا الخيار خيارًا استراتيجيًا آخر يتعلق بالاختيار بين الابقاء على السياق المؤسسى القائم الذى أثبت عدم صلاحيته للتنمية والتحرك لبناء هيكل مؤسسى يوفر تعاقدا اجتماعيا يمكن من التنمية البشيرة وتكمن المشكلات التى تواجه العرب فى هذا السياق فى عديد من القضايا السياسية والاقتصادية والتنظيمية والتعليمية والثقافية والأخلاقية المرتبطة ببناء مجتمع المعلومات بشقيه: «البشرى والتكنولوجى»، وبإنتاج وتوزيع واستهلاك المعرفة «اليسكو ٢٠٠٢ »وفى تدهور عملية انتاج المعرفة ذاتها كما وكيفا مع تقلص الإنفاق الحكومى على نحو أدى إلى ندرة الموارد اللازمة لجمع المعلومات .

لذا تجدر الإشارة إلى أن فشل الإعلام العربى فى تقديم صورة ايجابية للعالم عن القضايا والحقوق العربية، يعود إلى عدم معرفته بمفردات تكوين وثقافة الآخر أو عدم استخدامها بشكل صحيح وبشكل خاص العقل الأوروبى أو الأمريكى التى هى بحاجة بعد المعرفة إلى فن وأساليب جديدة ومبتكرة خصوصا ان سيل الدعاية المعادية كبير والموروث يكاد يهيمن على العقول فى تصورات مسبقة يتم تغذيتها باستمرار ؛ فمازال الأعلام العربى بشكل عام يعتمد على الشعارات الرنانة والنبرة الخطابية التى تتوجه إلى مسلمات وعواطف.

بينما يأخذ الآخر الأمور بالعقل والتأمل والتفكير وبالطبع بحساب المصالح الحيوية والاستراتيجية.. ويظل الخطاب العربى بشكل عام أحاديا، تبريريا، يرفض التعددية ويتنكر لحقوق الإنسان تارة باسم الدين وتارة أخرى باسم القومية وثالثة باسم الدفاع عن مصالح الكادحين، وفى كل الأحوال لا تغيب يافطة الصراع العربى ـ الإسرائيلى والعدو الذى يدق الأبواب.

وإذا كانت العولمة تسعى إلى فرض النمط الحضارى الواحد فعلينا أن ندرك أن تحقيق الذات وتأكيد الشخصية الحضارية لا يتأتى إلا من خلال الفعل الإبداعى الذى يجعل لنا مساهمة فعالة فى صيرورة العالم المعاصر وتحولاته ـ برأى سعد محمد رحيم ـ وبهذا سنفرض منطق التنوع الثقافى، الذى هو منطق أكثر فعالية وخصوبة وفائدة لمستقبل البشرية من المنطق العقيم المطالب بإشاعة نمط واحد من الثقافة فى ظل العولمة.. والأفق المتاح أمام الثقافات المنكفئة والمهزومة الآن، مع ما توفره تقنيات الاتصالات الحديثة وقنوات الإعلام هو العمل (على إعادة خلق الواقع من جديد بالقول والعمل أو بالفكر والممارسة، فليس عالم الإنسان فكرة جاهزة ينبغى تجسيدها، أو نموذجاً أصلياً مغلقاً لا يقبل المناقشة والتفاعل، بل هو مساحة حرة من الإمكانات المفتوحة دوماً على المجهول واللا متوقع، على نحو يتيح نسج علاقات عديدة مع الواقع يتغير معها نظام المعنى ومنظومات التواصل.. أنظمة المعرفة وقواعد الممارسة.. جغرافية العقل وخارطة القوة).

وأورد بعض الباحثين نتائج وآثار العولمة وذكر منها: أنها قضت على حوار

الشمال والجنوب كما قضت على حوار الشرق والغرب، حيث لم تعد هناك لغة مشتركة بل لم يعد هناك قاموس مشترك لتسمية المشكلات، فى إشارة منهم إلى أن المصطلحات من قبيل الشمال والجنوب والعالم لم يبقَ لها معنى، كما لفتوا إلى أنها كانت السبب وراء عودة الاستعمار الاقتصادى والسياسى والثقافى والاجتماعى من جديد فى صورة الاقتصاد الحر واتفاقية الجات والمنافسة والربح، وكون العالم قرية واحدة، والتبعية السياسية وتجاوز الدول القومية، ونشر القيم الاستهلاكية مع الجنس والعنف والجريمة.

وأكدوا أن آثار العولمة تكمن فى زيادة البطالة وتدهور مستوى المعيشة وانخفاض الأجور وتقلص الخدمات الاجتماعية التى تقدمها الدول، وابتعاد الحكومات عن التدخل فى النشاط، وتفاقم التفاوت فى توزيع الثروة بين المواطنين، كما أشاروا إلى أنه لا توجد أى إيجابية للعولمة ولا يوجد من تكلم عنها إيجابياتها، مما يعنى أنها نظام مهيمن وإيجابياتها تكون محدودة ونسبية.

إن كل شىء فى عصر العولمة يتحول إلى لعبة قادر على صناعتها الاعلام، بما فى ذلك صور المآسى والكوارث، كما حدث إبان الحرب على العراق.. إذ عمدت القنوات التلفازية الغربية إلى إدهاش المشاهد الذى يرى ما يفعله قصف الطائرات والصواريخ كما لو أنه ألعاب إلكترونية مسلية.

ـ السماوات المفتوحة وحرية التعبير :

لكن هل ستحرر العولمة الإعلام العربى لينال حريته فى التعبير والرأى ويفلت من تكميم السلطة الحاكمة؟!.. يجيبنا د. جلال أمين فيقول: العولمة هى فى

الحقيقة عولمة نمط معين من الحياة لا أشعر بأى التزام بتبنيه واتباعه وإنما شاع الاعتقاد بضرورة تبنيه واتباعه لمجرد أنه يندر أن تثار مسألة خصوصيته وارتباطه بثقافة معينة ونظرة معينة إلى الحياة والكون «أى بأيديولوجية معينة فى الحقيقة» ومسألة الخصوصية هذه نادرا ما تثار بسبب طول عهدنا باكتساح هذا النمط لحياتنا فالظاهرة تعود بدايتها إلى خمسة قرون خلت وبسبب اشتداد هذا الاكتساح وسرعته فى العقود الأخيرة وبسبب وجود مصلحة أكيدة لأصحاب الثقافة والمنتجات التى تجرى عولمتها فى عدم افتضاح خصوصيتها واستخدامها مختلف وسائل القهر المادى والسياسى والنفسى والعقلى لتصدير كل ما هو خاص على أنه إنسانى وعام .

متى تبينا واقتنعنا بأن العولمة هى عولمة نمط معين من الحياة أداتها الأساسية الآن هى الشركات العملاقة متعددة الجنسيات التى تمارس هذه العولمة بكفاءة منقطعة النظير، متى اقتنعنا بذلك أدركنا أن كل هذا الكلام الذى يصور العولمة على أنها عملية «تحرر» من مختلف صور الاستعباد هو محض خرافة.

فأى حرية بالضبط تلك التى نوعد بها لو تحررنا من رقبة الدولة؟ أليست هذه الحرية بالضبط التى يصفها جورج أوريل فى رواية ١٩٨٤؟ التى ما كنت لأذرف كثيرا من الدموع حزنا على انحسار سلطة الدولة لولا أن الذى يحل محل الدولة هو الشركات العملاقة متعددة الجنسيات فأى مؤشر هناك يدلنى على أن الحرية التى أتمتع بها فى ظل سطوية هذه الشركات أكبر وأوسع مما كنت أتمتع به فى ظل سطوة الدولة ؟ هل أنا بحاجة إلى أن أذكركم بما تفعله وسائل الإعلام الحديثة

بحرية الرأى والتفكير ؟ أو بما تفعله سطوة هذه الشـركات بحرية المرأة ومكانتها ؟ أو بمدى تحملها للاختلاف الحقيقى فى الرأى؟

وهل نتحرر حقا عندما ينحسر نظام التخطيط الأمر الذى تمارسه الدولة أم أننا فقط نستبـدل تخطيطا بتخطيط ؟ هل نتصور أنه من الممكن لشركـة عملاقة تنتج وتسوق فى عدد كبيـر من دول العالم وتشترى موادها الأولية ومسـتخدماتها فى أى مكان فى العـالم، هل نتـصور أن تتـوقف هذه الشـركة عن التـخطيط؟ وهل تخطيطها أقل مساسـا بحريتنا من تخطيط الدولة؟ وهل يقف شىء فى وجه هذه الشركات إذا أرادت أن تخطط لنا حياتنا وطريقة تفكيرنا بما يتفق مع أهدافها فى الإنتاج والتسويق؟ وأى انتصار للديمقراطية؟ وأى احترام لحقوق الإنسان يمكن أن نتوقعه فى ظل سطوة هذه الشركات؟.. «د. جلال أمين ١٩٩٦ ».

وفى الحقـيقة إن انسحـاب الدولة بشكل تام من مجالات الاتصـال والإعلام ليس فى صالح الدول العربية فى ضوء التطور السـياسى والاجتماعى وفى ضوء خصـوصية المشكلات الداخليـة لكل دولة عربيـة وفى ضوء احتـياجات التنمـية الوطنية التى لا يمكن أن يضطلع بها القطاع الخاص فى مجال الإعلام .

٣ - خطاب إعلامى أجنبى باللغة العربية

إن تجارب الـبث الإعلامى إلى المنطقـة العربيـة بقنوات ناطقة باللـغة العربـية ليست جـديدة فقـد سبقت الجـميع هيئـة الإذاعة البـريطانية ولحقـها الكثـير من الإذاعات بعد ذلك وتـطور الأمر على مستوى البـث التليفزيونى الفضـائى كما هى الحال فى القناة التليـفزيونية الإسرائـيلية الناطقة باللغة العـربية وهى جمـيعا

تجارب لم تخـرج عن إطار كونها منبـرا للموقف الرسمى لـتلك الدول وبالتالى تحـمل وزر تلك المواقف وآثامـهـا وهى أيضـا تواجـه بموقف مـسـبق من المتلقى العربى الذى يعدهـا ناطقة بلسان دولة خارجيـة أو معتدية، لذا فـهى تحتل موقع غضب المتلقى العـربى الذى يدرك أنها تتبنى موقـفا معاديا له وتحـاول أن تغرس فـيه أفكارا وآراء تخـالف قناعـاته وتطلعاته «د. صـبـاح ياسين الإعـلام والنسق القيمى» .

وإلى جـانب ذلك شهـدت الساحـة الإعلاميـة العربيـة تنامى سـياسة القـمع والتهديد ضد بعض وسائل الإعلام وبشكل خاص القنوات الفضائية إذ كشفت الحرب العـدوانية الأمـريكية على العـراق عام ٢٠٠٠ أسلوبا جديدا مـن الرقابة التى يمكن أن تمارس فـى أشكال مـختلـفة فـقـد تتـعـرض العـديد من القنوات الفضائيـة العربية للضغوط الأمريـكية عند تغطيته مواقف المقـاومة الفلسطينية أو العراقـية وأنشطتهـا الميدانية، حـتى وصل الأمر إلى حد التـهديد المباشـر أو قتل المصورين التليفزيونيين فى مواقع الأحداث ـ كما وقع فى العراق لمصورى قناتى الجـزيرة والعـربيـة ـ أو إلـى الضـغط على تلك القـنوات لحـجب نشـر الأفـلام والوثائق التى تدين قـوى الاحتـلال بارتكاب الجرائم اللا إنسـانية وعـدم بث ما يتوفر لها من مـشاهد عن عمليات المقاومة ضد الاحتـلال وصور تدمير المعدات العسـركيـة للمحتل والجنود القـتلى، كمـا وصل الأمر إلى ممارسة الـضغط على تلك القنوات إلى عدم اسـتخدام تسـمية المقـاومة أو المقاومـين والاكتفـاء بذكر المسلحين أو المجهـولين واعتبار مخـالفتها لذلك تضامنا مع الإرهاب والتـشجيع

عليه .

إن النقض الحقيقى والفاضح يظهر فى ميدان الإعلام العربى الموجه نحو الآخر وبشكل خاص نحو الغرب والولايات المتحدة الأمريكية تحديدا فما زال الوقت مبكرا والمسافة طويلة من أجل الوصول إلى إنجاز بناء وإطلاق شبكات تليفزيونية فضائية عربية تخترق الفضاء الإعلامى الخارجى بلغة متميزة رصينة وأسلوب هادف وموضوعى نحو شعوب دول العالم وليس قريبا من دون شك ذلك اليوم الذى نجد فيه نظير شبكة «سى. إن . إن» العربى قد وصل إلى المشاهد الغربى ومازالت هناك محاولات جدية من بعض الفضائيات العربية لإطلاق قنوات ناطقة باللغات الأجنبية الحية وبشكل خاص اللغة الإنجليزية وموجهة نحو أوروبا والولايات المتحدة لكن تلك المحاولات تمثل مجرد طموحات تفصلها عن الواقع مسافة ليست قريبة وكل ذلك تحقق فى هذا الميدان هو انتشار مكاتب بعض الفضائيات العربية فى دول أوروبا والولايات المتحدة وروسيا وجنوب شرق آسيا وبعض دول إفريقيا وأمريكا اللاتينية وهو ما يوفر لها القدرة على التغطية الفورية للأحداث ونقلها إلى المشاهد العربى.. مضافا إلى ذلك النجاح النسبى فى الوصول إلى المواطنين العرب فى المهجر والتواصل معهم ونقل مواقفهم وآرائهم وأنشطتهم الفكرية والثقافية والعلمية إلى أبناء جلدتهم فى الوطن العربى .

فعلى سبيل المثال ـ على قول د. صباح ياسين ـ فإنه منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تراجع أداء الإعلام العربى الموجه نحو خارج الوطن العربى

باتجاه الدفاع والتبرير ودفع الاتهامات التى يمكن أن تلصق به فى كل مناسبة وازداد منطق التخلى عن فكرة التصدى أو المواجهة للعدوانية الأمريكية والصهيونية وأضحى الحديث عن وحدة الأمة العربية فى مواجهة الأطماع كذلك حق العرب فى المقاومة ورفض الاحتلال حديثا شبه محرم، خوفا من تهمة تشجيع الإرهاب، ويظهر ذلك واضحا فى تقليد الفضائيات العربية منطق قناة «الحرة» الأمريكية فى توصيف المقاومين والمجاهدين الفلسطينيين والعراقيين بأنهم مجرد مسلحين أو خارجين على القانون أو حتى قتلة وإرهابيين وتقلصت البرامج الحوارية التى تتناول قضايا قومية راهنة إلا من بعض الاستثناءات واتسعت مساحة البرامج الترفيهية ومسابقات التسلية وكل ما من شأنه أن يبعد تهمة الوقوف إلى جانب النضال العربى ومساندة المقاومة العربية المشروعة فى فلسطين والعراق .

وعلى الرغم من اتساع دائرة التواصل العربى عبر استحداث المزيد من حزم القنوات الفضائية الموجهة إلى المواطن العربى، كذلك تواصل إطلاق إذاعات محلية جديدة وبشكل خاص إذاعات الـ «إف . إم» الأرخص فى الكلفة المادية للبث والإرسال والأكثر شعبية فى التواصل، إلا أن الرسالة الإعلامية مازالت دون المستوى المطلوب من حيث الشكل والأسلوب إزاء منافسة الإنتاج العالمى من البرامج على مختلف أنواعها فالصناعة الاتصالية العربية مازالت تعيش ضمن شرنقة الالتباس بين الغاية والمضمون، الأمر الذى يدفع المؤسسات الإعلامية العربية إلى زيادة اعتمادها على المستورد الجاهز أو التوجه نحو التقليد

واســتنســاخ تجارب الآخـرين بكل مـا تحـمله من مـساوئ ومـخـاطر سـيـاسيـة واجـتـماعيـة على المتلقى العربى وذلك للتـباين فى الثقـافات والموروث الفكرى والقيـمى والاختلاف فى طبـيعة المشاكل الـسياسيـة والاجتمـاعية والاقتـصادية والظاهرة الأكـثـر خطورة فى مـيدان الـبث الإذاعى فى الوطن العـربى هى تلك الاتفاقات التى عـقدت بين بعض الحكومات العربيـة ومؤسسات إعلامـية دولية لإعـادة بث إذاعاتهـا على مـوجة الـ «إف. إم» لتنافس المحـطات الوطنية حـيث تملك فيه الإذاعات الأجنبية إمكانات كبـيرة على المستوى المادى والبرامجى وفى الحصول على الأخبار من مصادرها بشكل فورى ومباشر بالإضافة إلى اعتمادها على حشد كبـير من برامج التسلية والترفيه المشوقـة ومن غير أى التزام وطنى أو قيمى تجاه المتلقين .

الفصل الثانى :

الجذور والبدايات

ثوب جديد لتاريخ قديم من الإمبراطوريات وعصر الاستعمار

يعتبر مصطلح «العولمة »واحداً من أحدث المفردات شيوعاً فى سائر أرجـاء العالم خـلال السنوات القليلة الماضيـة ، لارتباط مدلول هذا المصطلح بشتى أمور الحياة الإنسانية ..وكانت أول صـياغـة لهـذه الكلمـة باللغـة الانجليزية عـام ١٩٦١ عندمـا ظهرت فى أحد المعـاجم اللغوية ، ثم سرعان مـا انتشرت وتم تداولها وشقت طريقها لتكون مفردة متداولة .

ويعـرف بعض المفكـرين «العـولمة » بأنهـا عـمليـة التـقـارب والتواصل والاتصال والانفـتاح بكل مستـوياته وجوانبه على مستوى العالم ، والاعتماد المتبادل بين الشعوب والذى يشكل خـصـائص الحـيـاة المعـاصـرة بين البـشـر فى تـفـاعـلاتهم ومعامـلاتهم.. وكأن لا حدود .. ولا فواصل .. ولا مـسافات فيما بينهم.. لكن المؤكد أن هذه الأفكار ليست بجديدة ، فقد سبـقتها أفكار ونظريات كـثيرة تتـشابه معهـا .. وليس أدل على ذلك من خروج الإنسان العربى مـن عزلة الصحارى إلى رحاب الأمم مـشفوعاً بالقـوة الروحية للإسلام التى كانت دعـوة للعالم .. ولم يتأخر الناس فى جميع أرجـاء المعمورة عن الاستجابة لهـذه الدعوة الداعية إلى حضاره تمتلك عناصرنجاحـها وقوتها .. وكانـت الدعوة فكرة ذات قـوة هائلة استـوعبت مـا قبلهـا ، واحتـضنت قلوب

الناس وآمالهم ، وأنتجت قوة اجتماعية متماسكة وقوة عسكرية ضخمة مؤمنة بأهدافها .. ولم تكن الرسالة رسالة عربية بل كانت رسالة إلى كل الأمم.

إن جوهر العولمة أو الأممية أو الكوكبية هو ازدياد الترابط والاعتماد المتبادل بين أرجاء المعمورة ، قفزاً على الحدود وأوضاع الحياة .. و قد تحقق ذلك من خلال الثورة العلمية التكنولوجية الحديثة وأنشطة الشركات والمؤسسات العملاقة ذات النشاط الدولى .. والتقدم الهائل فى نقل المعلومات والاتصالات .. إن الهيمنة تتمثل فى سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على نطاق دولى ، والمواد والنشاطات التى تنتشر عبر الحدود يمكن - كما يقرر روزناو - تقسيمها إلى فئات ست : بضائع وخدمات ، أفكار ، معلومات ، نقود ، مؤسسات ، أشكال من السلوك والتطبيقات.. فى ضوء ذلك كله يمكن إثارة سؤال رئيسى : كيف تحدث العولمة؟ وبعبارة أخرى : بأى الطرق أو من خلال أى قنوات يتم انتشار السلع والخدمات والأفراد والأفكار والمعلومات والنقود والرموز والاتجاهات وأشكال السلوك عبر الحدود؟

فى رأى روزناو تتم عملية الانتشار من خلال أربعة طرق متداخلة و مترابطة:

١- من خلال التفاعل الحوارى ثنائى الاتجاه عن طريق تكنولوجيا الاتصال.

٢- الاتصال المونولوجى أحادى الاتجاه من خلال الطبقة المتوسطة.

٣- من خلال المنافسة والمحاكاة.

٤- من خلال تماثل المؤسسات.

غير أن ذلك لا يعنى أن عملية العولمة تسير على النطاق القومى بغير مقاومة.

فهناك صراع مستمر بين العولمة والمحلية . فالعولمة تقلل من أهمية الحدود ، بينما تؤكد المحليـة على الخطوط الفاصلة بين الحدود . والعولمة تعنـى توسيع الحدود ، فى حين أن المحلية تعنى تعميق الحدود . وفى المجال الثقافى والاجتماعى العولمة تعنى « انتقالاً للأفكار والمبـادىء وغيرها» ، بينما المحلية قـد تميل إلى منع انتقال الأفكار والمبادىء. ويـرى المفكر السيد ياسـين (جريدة الأهرام ١٥/ ١/ ١٩٩٨) أنه إذا حاولنا أن نتتبع النشأة الأولى للعولمة يمكننا أن نعتمد على

النموذج الذى صـاغه رولاند روبرتسون فى دراسـته المهمـة «تخطيط الوضع الكوكـبى : العولمة باعـتـبارها المفـهوم الرئيـسى » والتى حـاول فيـها أن يرصـد المراحل المتتابعة لتطور العولمة وامتدادها عبر المكان والزمان .

ونقطة البداية عند روبرتسـون هى ظهور الدولة القوميـة الموحدة على أساس أن هذه النشأة تسجل نقطة تاريخـية فاصلة فى تاريخ المجتمعـات المعاصرة. ذلك أن ظهـور المجتـمع القومى منذ حـوالى منتـصف القرن الثـامن عشـر يمثل بنيـة تاريخية فريدة. ذلك أن الدولة القومية المتـجانسة ، والتجانس هنا بمعنى التجانس الثقافى ، تمثل تشكيـلات لنمط محدد من الحياة . ويمكن القول فى الحـقيقة : إن شيوع المجتمعات القوميـة فى القرن العشرين هو فعل من أفعال العولمة. بمعنى أن إذاعـة ونشر الفكـرة الخاصـة بالمجـتمع القـومى كـصورة من صـور الاجـتمـاع المؤسسة، كان جوهرياً بالنسبة لتـعجيل العولمة التى ظهرت منذ قرن من الزمان.. وهناك مكونان آخـران للعولمة وهمـا - بالإضافـة إلى المجتـمعـات القومـية - : مفـاهيم "الأفراد" و«الإنسـانية ». وبناء على هذه الاعتـبارات صـاغ روبرتسون

نموذجه من خلال تعقب البعد الزمنى التاريخى الذى أوصلنا إلى الوضع الراهن ، و الذى يتسم بدرجة عالية من الكثافة الكونية و التعقيد . وينقسم النموذج إلى خمس مراحل كما يلى:

المرحلة الأولى : المرحلة الجنينية

وقد استمرت فى أوروبا منذ بداية القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر. هذه المرحلة شهدت نمواً للمجتمعات القومية ، وإضعافاً للقيود التى كانت سائدة فى القرون الوسطى، كما تعمقت الأفكار الخاصة بالفرد وبالإنسانية وسادت نظريات جديدة عن العالم وبدأت الجغرافيا الحديثة وذاع التقويم الغريغورى .

المرحلة الثانية : مرحلة النشوء

وقد استمرت فى أوروبا أساساً من منتصف القرن الثامن عشر حتى عام ١٨٧٠ وما

بعده . فقد حدث تحول حاد فى فكرة الدولة المتجانسة الموحدة ، وأخذت تتبلور المفاهيم الخاصة بالعلاقات الدولية ، وبالأفراد باعتبارهم مواطنين لهم أوضاع مقننة فى الدولة ، ونشأ مفهوم أكثر تحديداً للإنسانية ، وزادت إلى حد كبير الاتفاقات الدولية ، ونشأت المؤسسات الخاصة بتنظيم العلاقات والاتصالات بين الدول ، وبدأت مشكلة قبول المجتمعات غير الأوروبية فى « المجتمع الدولى » وبدأ الاهتمام بموضوع القومية والعالمية .

المرحلة الثالثة : مرحلة الانطلاق

وهى التى استمرت من عام ١٨٧٠ وما بعده حتى العشرينات من القرن العشرين ، وظهرت مفاهيم عالمية مثل « خط التطور الصحيح » ،والمجتمع القومى « المقبول » وظهرت مفاهيم تتعلق بالهويات القومية والفردية ، وتم إدماج عدد من المجتمعات غير الأوروبية فى « المجتمع الدولى »، وبدأت عملية الصياغة الدولية للأفكار الخاصة بالإنسانية ومحاولة تطبيقها ، وحدث تطور هائل فى عدد وسرعة الأشكال الدولية للاتصال .. وتمت المنافسات العالمية مثل الألعاب الأولمبية وجوائز نوبل ، وتم تطبيق فكرة الزمن العالمى ، والتبنى شبه الكوكبى للتقويم الغريغورى ، ونشأت فى هذه المرحلة عصبة الأمم وقامت الحرب العالمية الأولى .

المرحلة الرابعة : الصراع من أجل الهيمنة

واستمرت هذه المرحلة من عشرينات القرن العشرين حتى منتصف الستينات ، وبدأت الخلافات والحروب الفكرية حول المصطلحات الناشئة الخاصة بعملية العولمة والتى بدأت فى مرحلة الانطلاق، ونشأت صراعات عالمية حول صور الحياة وأشكالها المختلفة وقد تم التركيز على الموضوعات الإنسانية بحكم حوادث الهولوكوست وإلقاء القنبلة الذرية على اليابان وبروز دور الأمم المتحدة.

المرحلة الخامسة : مرحلة عدم اليقين

والتى بدأت منذ الستينات وأدت إلى اتجاهات وأزمات فى التسعينات ، وقد تم إدماج العالم الثالث فى المجتمع العالمى وتصاعد الوعى الدولى فى الستينات

، وحدث هبوط علىالقمر وتعمقت قيم ما بعد المادية ، وشهدت المرحلة نهاية الحرب الباردة ، وشيوع الأسلحة الذرية ، وزادت إلى حد كبير المؤسسات والحركات العالمية . وتواجه المجتمعات الإنسانية اليوم مشكلة تعدد الثقافات وتعدد السلالات داخل المجتمع نفسه .. وأصبحت المفاهيم الخاصة بالأفراد أكثر تعقيداً من خلال الاعتبارات الخاصة بالجنس والسلالة ، وظهرت حركة الحقوق المدنية ، وأصبح النظام الدولى أكثر سيولة وانتهى النظام الثنائى القومية ، وزاد الاهتمام فى هذه المرحلة بالمجتمع المدنى العالمى والمواطنية العالمية ، وتدعيم نظام الإعلام الكونى.

ويختلف الكثيرون فى تفسيرهم لجذور " العولمة " التى أضحت هى بشرى الأمس وحديث اليوم وهاجس الغد ، فمن يجعل التطورات التكنولوجية ، وخاصة فى ثورة المعلومات فى السنوات الأخيرة ونتائج هذه الثورة على صعيد الإنتاج والإعلام والخدمات وثورة الاتصالات الكوكبية هى الجذر الضرورى الممهد لحقبة العولمة ، ومن يرى فى الشركات الاقتصادية العملاقة التى كانت متعددة الجنسيات وظهرت فى بدايات الخمسينات وأصبحت هى القوة الاقتصادية التى لا تنازع فى عالم اليوم وما ترتب على قرارات المنظمات الاقتصادية الدولية كالجات وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، وآخرون يرون البدايات فى الشكل السياسى للمنظمات الدولية ، كالأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وما تبعها من مؤتمرات وعقود دولية خاصة فى السنوات الأخيرة كمؤتمرات السكان والتنمية والبيئة والمرأة والعمل ، هو البذرة الأولى

لهـذا النظام.. كذلك التـحالف الدولى لتـحرير الكويت مـن الاحتلال العـراقى والذى ضم ٣٣ دولة بقـــيـادة الولايات المتـحـدة ، هى بـدايات إرهاصـات هذا الشكل الجديد .. خاصـة إعلان الرئيس الأمريكى الأسبق " جـورج بوش " قيام النظام العالمى الجديد بعد تحرير الكويت.

والخـلاف بين وجهـات النظر لا نعـتقـد أنه جوهرى وحـاسم ، لأن كل هذه الصيغ مـا هى إلا أشكال مختلفـة للظاهرة ،وليست مضـموناً أو محتـوى لها .. وهى لا تعـدو إلا أن تكونتـجـسـيـداً للظاهرة سـواء فى العلم أو الاقـتـصـادأو السيـاسة، وإن كان المضمـون أو المحتوى التـاريخى للظاهرة قد يمكن اكتـشاف وحدتـه وثباته فى تلك المحـاولات الدائمة ، لفـرض الهيـمنة والنفوذ والسـيطرة على الآخرين ، سواء فى شكل احـتكار مطلق للقوة ، أو من خلال نزاع مسـتمر ودائم بين أشكال القـوة ومناطق النفـوذ على توزيع الغنائم ، أو سلب الآخـر ما بيده من غنائم وأملاك وضمها لطرف وحرمـان آخرين منها ، فالاتجاه إلى العالمية ليس باتجاه جـديد بالنسبة لـلبشرية ،ومـضمون هذا الاتجـاه كان ظاهراً فى شكل الامبراطوريتين الفارسية والبيـزنطية ، وقد انتهت الأولى بعد ظهور الإسلام سنة ٦٣٢ ميـلادية، بينما تحطمت الامـبراطورية البيـزنطية وضاعت نصف ممـتلكاتها التى كانت تمتد فى ثلاث قـارات هى أوروبا وآسيا وشمال أفريقـيا ، وانحصرت فى أجـزاء قليلة من أوروبا فى منطقـة (البلقان) .. إلى أن سـقطت نهائيـاً سنة ١٤٥٣م على يد الإمـبـراطورية العـثـمـانيـة الـتى ورثت امـبـراطوريات الدولة الإسلامية والفـارسية والبيزنطية وأيضـا المغولية .. وفى الفترة التى سـقطت فيها

الدولة الأموية فى الأندلس سنة ١٤٩٢ بدأ ظهور ممالك أوروبية بدأت تتصارع على مناطق النفوذ فى العالم قديمه وجديده (أسبانيا ، البرتغال ، انجلترا ، فرنسا ، النمسا ، هولندا) حتى إذا ما كان القرنان الثامن عشر والتاسع عشر انحصر الصراع بين انجلترا وفرنسا وتوارت الممالك الأخرى . . وتم تقسيم العالم بين انجلترا(الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس) وفرنسا (البازغة بقوة فى عهد الثورة الفرنسية والامبراطور الجديد نابليون بونابرت) ، وفى أواخر القرن التاسع عشر برزت قوة جديدة هى ألمانيا ودخلت فى صراع رهيب حول تقسيم المستعمرات مع انجلترا وفرنسا ونشبت حربان عالميتان الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ، والتي انتهت بهزيمة ألمانيا وتقسيمها بين الدول المنتصرة .

إن مضمون العولمة من جهة الاتجاه لفرض السيطرة والنفوذ والاحتكار هو جوهر ثابت والتغيرات التى تطرأ عليه محدودة فى الاتجاهات ، وإنما التغيرات التى تطرأ كانت دائماً فى الأشكال والصياغات، وأيضا المبررات العقائدية أو الأخلاقية. والنقمة التى حلت بالبشريةوتراثها الانسانى ونضارة ونبل قيمها كانت واحدة أمام جحافل الطغاة والمغامرين سواء أكانوا برابرة كالمغول فى العصور الوسطى ، أو متمدينين كانجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا وأمريكا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وانتصار جبهة الحلفاء التى كانت تضم بريطانيا وروسيا (الاتحاد السوفيتى) والولايات المتحدة، وهزيمة المحور (ألمانيا

– إيطاليا – اليابان) سرعان ما انفرطت جبهة حلفاء الأمس وبدأ الصراع بين كتلة غربية تتمحور حول حلف الأطلسى بقيادة الولايات المتحدة التى أظلت بحمايتها دول أوروبا الغربية المتحالفة معها، وكتلة شرقية بقيادة الاتحاد السوفيتى ومجموعة دول أوروبا الشرقية الدائرة فى فلكه ، واشتد الصراع بين الكتلتين على بسط السيطرة والنفوذ والامتداد على مناطق العالم ،ونشأت كتلة ثالثة تحت مسمى عدم الانحياز لإحدى الكتلتين ولكنها كانت عرضة للاختراق من الداخل وبسط السيطرة والنفوذ من كلا الكتلتين المتنازعتين ، وكانت الثورات والانقلابات العسكرية أداة لتغيير النظم التى تحاول السيطرة ،كما سادت شعارات عن عدالة الأممية الاشتراكية العمالية لصالح جماهير العمال والفلاحين فى مواجهة شعارات الرخاء الاقتصادى فى ظل الليبرالية الاقتصادية والسياسية فى المجتمعات الغربية الحرة. وكان الصراع على أشده من الداخل إلى التخوم القريبة والبعيدة ومن جوف الأرض إلى حرب الفضاء والنجوم ، ومن داخل أروقة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية إلى داخل المجتمعات التى تشكل كتلة الشرق وكتلة الغرب ، وكان كل من الطرفين يسعى إلى ابتلاع العالم ، سواء بالقوة العسكرية أو الأيديولوجية ، سواء بفكرة العدالة الاجتماعية فى ظل الاشتراكية أو حقوق الانسان والديمقراطية فى ظلال الليبرالية .. حتى كانت نهاية الصراع الدراماتيكية بدءاً من عام ١٩٨٩ عندما بدأ الانهيار السريع والمتلاحق فى الكتلة الشرقية وتحطيم سور برلين وانهيار حلف وارسو ثم تفكك الاتحاد السوفيتى لتجد الولايات المتحدة نفسها القطب الوحيد، الذى يملك

الترسانة النووية والعسكرية التى لا تقارن فى عالم اليوم. وكان إعلان الرئيس الأمريكى الأسبق " جورج بوش " الذى ينتمى إلى حزب المحافظين (الجمهورى) تدشين النظام العالمى الجديد على مبادىء الديمقراطية ولكن بوش الجمهورى الذى ينتمى لحزب أمريكى محافظ (فى التوجهات والأفكار) ما كان ليستطيع أن يصمد أكثر من عام أمام جحافل الاتجاه الذى يمثل " العولمة " أمريكيا وهو أكثر ليبرالية وتحرراً ومقاومة للأفكار المحافظة والسعى للسيطرة. وجاء (كلينتون – آل جور) بفضائحهم الأخلاقية التى أصطدمت مع المحافظين ولكنها مثال ونموذج لرجال عولمة الغد الآتية التى تحرر كثيراً من القيود الأخلاقية ولا تبالى بالعقائد والأديان وإن كانت تستخدمها إذا كانت مفيدة فى مزيد من السيطرة وامتلاك القوة الاقتصادية والمالية .

إن الذين يتابعون تطور السلوكيات والمواقف لدى الفرد فى البلدان المتقدمة يجدون أن ثمة تطوراً خطيراً، وغير مسبوق حدث فى مواقف شعوب هذه البلدان ، ففى الستينات سقطت حكومة إدوارد هيث " المحافظة فى بريطانيا بسبب فضائح أخلاقية وجنسية لعدد من الوزراء فى هذه الحكومة ، وفى السبعينيات سقط ريتشارد نيكسون الرئيس الأمريكى المنتخب ، والذى اضطر إلى تقديم استقالته سنة ١٩٧٤ بعد فضيحة ووترجيت ، كما اضطر أحد مرشحى الرئاسة الأمريكية الذى كانت له مواقف مناهضة لإسرائيل هو جورج ماكجفرن، إلى الانسحاب من سباق الرئاسة فى نفس الفترة بسبب اكتشاف علاقات غرامية له ، ولكن فى التسعينات لم تؤثر فضائح الرئيس " كلينتون "

وعلاقاته الغـرامية قبل وبعد الزواج والاتهـامات الموجهة إليـه بالتحرش الجنسى وغيرها من التى اعـترف بها أو تلك التى أنكرها وقادته إلى المحاكمـة فى اختيار الناخب الأمريكى له وإسقاط الرئيس "جـورج بوش " الذى قاد أول حرب تحقق فيها الولايات المتحدة الأمريكية انتصاراً حاسماً بعد هزيمة فيتنام فى السبعينات. وسقط " بـوش " المحافظ والمتـمسك بأخـلاق الأسرة ، ودور الكنيـسة الإنجيـلية وحزبه الذى يرفع هذه المبادىء كمـا سقط من بعده " بوب دول " رئيس مجلس الشيـوخ الأمريكى ورغم سـجلهما الأخـلاقى النقى أمام " كلينتـون " وآل جور تباعاً، اللذين يمثلان

اتجاهاً جديداً فى الحزب الديمقراطى ، قد لا يكون هو كل الحزب بل هو اتجاه مـسيطر عـبر عنه آل جـور فى كتـابه (عن البيـئـة) الذى ربط بين التكنولوجيـا الصناعية الجـديدة والحفاظ على بيئة العالم باعـتبارها برنامجاً كوكـبياً للسنوات الأخيـرة من القرن العشـرين وبدايات القرن الواحـد والعشرين ، وهو يعـبر عن تغيرات كبيرة فى المزاج الأخلاقى للشعوب الأمريكية، وهو نفس ما أشارت إليه دلالات الاحتـفال العـظيم بوفاة الأمـيرة " ديانا " التى اعـترفت علنا لـلصحـافة والإذاعة بخيانتها المتكررة وعلاقاتهـا المحرمة .. ولكن الاعلام الذى تتبعها وهى مـجرد فـتاة عـادية تعمل فى إحـدى دور الحضـانة ، استطاع أن يتـوجهـا أميـرة للشعب ويجـبر الأسرة المالكة لأول مـرة على النزول إلى الشارع والمشـاركة فى تشييع جنازتهـا .. كل ذلك يشير إلى أن ثمة تغيرات جديدة لـيست فحسب فى المسـتوى التكنولوجى والاتصـالى والصناعى، وليـست فقط فى عـلاقات القـوة

والنفوذ السياسـية والاقتصادية، وانما أيضاً والأهم الأخلاقـية والمعنوية. إن تغيراً خطيراً يجرى فى أدمغة وعقول البشر وقيمهم وأساسيات منطلقاتهم وهو يمكن أن يصيب جزءاً من شـعوبنا أيضا، وسوف يكون ذلك له تأثـيره الهام فى الرأى العام العالمى الذى أصبح بمقدور أجهزة الاعلام استـخدامه وأيضا توجيهه لخدمة الاتجاهات " العـولمية " الجديدة، وبالشكل الذى تريده مـا دامت قادرة على خلق وإنتاج الأسطورة وتجسيـدها واقناع الآخرين بها ، وبالتالى تحييـد أو إفشال قدرة المعارضين على النفاذ إلى الرأى العام الذى أصبح طوع أمرهم .

الجديد فى الموجة القـادمة للعولمة ، هو فى صيـغها وأشكالها وليس مـحتواها أيضاً، فلا تقدم العولمة ، بصورة مباشرة ايجابيات للبشرية، وخاصة على مستوى الصراعات بين الأمم والشـعوب والثقافات والعـقائد وإن كانت تطحن كل هذه الصراعات والتفاوتات فى نظامها وتعيد استخدامها بما يؤدى إلى ازدياد السيطرة والتحكم لجمـاعات بسط النفوذ والهيمنة والنيل من الآخـرين ليس بأيديها لكن بأيديهم هم .. بإثارة النزاعـات السياسـية والعرقـية والطائفيـة وتغذيتهـا وتحويل محتواها إلى اختلافات أو تعارضات فى المواقف والمصالح ثم

إلى صراعات دامية ومدمرة ويكون التدخل بعد أن تأخذ المذابح مداها وتسيل أنهار الدماء تتعقد المواقف والقضايا ..

يقول المفكر محـمد سيد أحمـد (جريدة الاهرام ٢/ ٢/ ١٩٩٧) «إن العولمة إنما تحـمل فى طياتـها جـانباً شـأنه إذابة الفـوارق والتـمايزات عن طريق فـرض ضوابط ومعايير وقيم عالميـة المراد لها أن تكون متجانسة ، ولكن هناك أيضا وفى

الوقت ذاته أسـبـاباً تبرز تكـثيف التـزاحـمات والتـصـارعات بـين الحضـارات والثـقافـات سوف تبـرزها على الدوام عمليـة لن تعـود بالنفع على نحو واحـد لمختلف القطاعات فى المجتمع العالمى » .

وتيـار العولمة القـادم من الشمـال لا يهب على الجنوب إلا بمزيد من التـبعـية والاخضاع والدمار ، فحيث يتقاسم العالم الآن أربع قوى رأسمالية كبرى ، هى أمريكا واليابان والصين وأوروبا الغربية وتبرز فى القلب من أوروبا الغربية ألمانيا .. وهذه هى القوى التى سيطرت علـى العالم فى الثلاث قرون الماضية عـدا فترة ٧٠ عامـاً سيـطر فيـها الاتحـاد السوفـيتى قـبل انهيـاره وتفككه ونازع الولايات المتحـدة على أماكن النفوذ والسيطـرة فى العالـم .. هذه القوى التى كانت سـيدة عـالم الأمس تعـود اليوم لفـرض هيـمنة واسـتعـمـار جديدين لم يـعد للقـوى العسكرية دور هام فيـها أو ضرورى، وإن كان احتكار الولايات المتحـدة للتفوق العسكرى هو عـامل مساعـد فى تقدمهـا فى الصراع على مناطق النفوذ وإجـبار المنافسين لهـا على التراجع فى اللحظات الحرجة. إلا أن هذا الاسـتعـمار الجديد لن يأتى من خلال بارجة حربية أو حاملة طائرات وهو ليس فى حاجة إلى قواعد عـسكرية واحـتـلال أجزاء من الأراضى ، لـكنه قـادم من خلال فـتح الأسـواق وحرب التـجارة والفضـاءات المفتوحـة والطريق السريع لتدفـق المعلومات لجنى الأرباح والحصول على العـوائد الضخمة وتدميـر القطاعات الانتاجية الضعـيفة التكوين فى مـجتمـعات المسـتعـمرات السـابقة ، والتى لم تفـعل سوى اعـادتها مجدداً تحت شعار هيمنة جديدة ولكن تطورت صيغها وأشكالها لتناسب التطور

فى التكنولوجيا ووسائل الاتصال غير المتطورة والتى عرفت بالثورة التكنولوجية الثالثة.

الموجات الثلاث

قدم العالمان ألفين وهيدى توفلر ـ وهما من أشهر علماء المستقبليات ـ فكرة الموجات الثلاث للحضارة الإنسانية فى كتب عدة آخرها كتاب " خلق حضارة جديدة : سياسة الموجة الثالثة " (Toffler, 1995). وملخص هذه الفكرة هو أن تطور الحياة الاجتماعية الإنسانية يمكن تقسيمه إلى ثلاث موجات رئيسية تعكس فى الأساس التطور الذى طرأ على وسيلة الانتاج الرئيسية فى المجتمع. ولقد مرت الحضارة طبقاً لتحليل قمة الأمواج الاجتماعية الذى يتبناه توفلر بمرحلتين رئيسيتين هما الموجة الأولى التى تميزت بانشغال القوة العاملة فى المجتمع بالفلاحة، والزراعة، ثم الموجة الثانية وهى تلك التى استقرت الصناعة فيها كالنشاط الاقتصادى الرئيسى فى العالم، ثم الموجة الثالثة وهى عصر المعلومات. وتجدر الإشارة هنا إلى تفاوت الدول والمناطق المختلفة فى اجتياز هذه المراحل المختلفة فما تزال توجد دول لم تدخل بعد عصر الصناعة وتظل الزراعة النشاط الرئيسى لسكانها . أما عن الوقت الذى استغرقته هذه المراحل فيبدو أنه فى تناقص مستمر حيث دامت الموجة الأولى آلاف السنين فى حين استقرت الصناعة كالعماد الرئيسى للاقتصاد فى فترة لم تزد على ثلاثمائة سنة .

وحالياً تخترق بعض الدول حاجز الموجة الثانية الصناعية لكى تنضم إلى حضارات الموجة الثالثة فى الوقت الذى لا تنأى أى دولة فى العالم حتى وإن

كـانت فى مـرحلة أخرى مـن التطور الاجتـمـاعى عن أضـواء وشـروق عصـر المعلومـات . إن العالـم المتقـدم فى الأسـاس يمر الآن بمرحلة اسـتـبدال العـمل بالصناعة، بالـعمل بالمعلومات كنشـاط رئيسى للاقتـصاد ، نتيـجة للاختـراعات التقنـية فى مجـال تكنولوجيـا المعلومات والاتصـالات ، ويصاحب هذه الفـترة الانتقاليـة عملية إعادة تشكيل وهيكلة للحـياة الاجتماعـية بمجملها قـوامها علو مكانة المعلومـات ومن ثم المعرفـة فى المجتـمع الجديد . .. إن المعلـومة والمعـرفة أصبـحتا المـكون الأساسى للثروة ، ولذا فـإن الوظائف التى تعتـمد على المعـرفة وعلى معالجـة المعلومات أصبحت أكـثر الوظائف التى تدر دخلاً على صاحـبها وأعلى الوظائف على سلم المكانةالاجتـماعية . ويحل عامل المعرفـة محل عامل المصنع فى العـصر الصناعى ومكان الفلاح والمزارع فى الـعصر الزراعى. والمثـير للاهتـمام على النطاق الدولى هو أثـر الثورة المعلواتصـالية على هجـرة العمـالة الدولية ، فالآن ومع انتـشار شبكات المعلومات على مستـوى العالـم ، أصبح من الممكن الاستفادة من العمالة الرخيصة دون الحاجة إلى تنقل مادى وهذا ما يطلق عليه العـمالة عن بعد(البُـعدية Telework). واتصالاً بهذا ، يعتـقد البعض فى بزوغ تقسيم دولى جديد للعمل تتخـصص فيه بعض الدول فى إنتاج الصناعات الخفيفة والبعض الآخر فى الصناعات عـالية التقنية والأخير فى الزراعة ، وهكذا ينقـسم العالـم إلى ثلاثة عوالم كل مـازال فى طور مـوجة مـن موجـات التطور الحضارى . وسيكون لهذا الأمر بالطبع عواقب اجتماعية وسياسية جمة .

وكمـا أثرت المعلومات على أحـد عوامل الانتاج الأسـاسية ـ وهى العـمالة ـ

فـقـــد أثرت كـذلك عـلى باقى العناصـــر وهى الأرض و رأس المال والإدارة . فبـالنسبة للأرض نعـود إلى كيف أن الثورة "المعلواتصـالية" قد غـيرت مفـهوم البـعد والمكان نظراً لقـدرتها الهـائلة على كسـر الحواجـز الجغـرافية لـدرجة أن تعريف المكان الآن أصبح هو الفضاء الحاسوبى أى الجغـرافيا الافتراضية المتخيلة التى تشتـرك فيهـا أطراف الشبكة . أمـا بالنسبة لرأس المال الـذى يعتبـره البعض العامل الأهم فى عمليـة الإنتاج ، فنجد أن بعض المستقبليـين يجادلون أن المعرفة قـد حلت محل رأس المال نظراً لانـخفـاض تكلفة أجـهـزة معـالجة المعلومـات وقدرتها الكبيرة على الانتاج المتنوع واختصار مراحل عديدة كانت تكلف الكثير فيما مـضى وهو ما يطلق عليه اختصـاراً دوائر الإنتاج. ويجادل هؤلاء بأن ذلك يحمل فى طياته الآثار الإيجابية بالنسـبة للدول الفقيرة فى رأس المال ، الغنية فى القدرات الإنسانية والبشرية ، حيث يميل وزن الأهمية إلى العنصر البشرى وفى هذا أطلق توفلر على المعرفة لقب "البديل الحتـمى "، حيث إنها يمكنها أن تقوم بدور العـديد من العناصـر الأخـرى بما فـيهـا المواد الأوليـة. وبما أن المعلومـات والمعرفة لايعترفان بحدود سياسية سيادية للدولة فإن السمة الأساسية للاقتصاد "الدولى" المعاصر هى دولة الاقتصاد (عمرو الجويلى – العلاقات الاقتصادية فى عصر المعلومات (ملف السيـاسة الدولية ـ يناير ١٩٩٦). ولا يقدم توفلر ، إلا العامل المادى وهو تطور وسيلة الانتاج كعامل مباشر له تأثير فى شتى المناحى الانسانيـة والحضارية واعـتباره أن المعلومـات هى العنصر الحاسم نحـو النموذج العـالمى الجديد والمعـروف الآن باسم العولمة ، بينمـا يرى آخرون أن جـذور تلك

العولمة ترجع لمنظمات وأشكال اقتصادية أو أخرى سياسية أسهمت فى بلورة ظهور "العولمة" إلى عالم الواقع وهى الشركات المتعددة الجنسية .

وفى عالم الاقتصاد كانت الشركات متعددة الجنسية من أهم المستفيدين من الثورة المعلواتصالية لعدة أسباب : أولها يتعلق بطبيعة هذه الشركات التى تعبر وتتخطى الحدود السياسية للدول فطبيعة هيكل هذه الشركات هى وجود مقر أو عدة مقار رئيسية يتبعها أفرع عديدة منتشرة في كل أنحاء العالم المختلفة . ثانى هذه الأسباب هو كبر حجم العوائد المالية التى تدرها أنشطة هذه الشركات ،بما يتيح لها فرصة تخصيص قدر هائل منها للبحث والتطوير ، وهما عنصران رئيسيان فى عملية التكيف مع البيئة الجديدة لعصر المعلومات ، ولا تملك أى مؤسسة أخرى قدرة مماثلة باستثناء المؤسسة العسكرية والمعروف أنها أيضا متقدمة جداً فى مجال تطبيق تكنولوجيا المعلومات . . ولعل ثالث هذه الأسباب هو مرونة الهيكل الإدارى للشركات متعددة الجنسيات التى أتاحت لهذه الشركات فرصة تطوير نظمها الإدارية لتعظيم الكفاءة والفاعلية. . إن النتيجة النهائية هى أن قوة الشركات متعددة الجنسية قد زادت ، حتى احتلت موقعاً متميزاً فى ساحة العلاقات الدولية لا يمكن إغفاله عند دراسة تطور العلاقات الدولية ، ومن ثم النظام الدولى الجديد. واعتبر البعض أن نشأة وتطور هذه الشركات (التى بدأت فى أواخر خمسينات القرن العشرين ثم توسعت توسعاً هائلاً فى الستينات والسبعينات)، والطريقة التى تدير بها عملها وأسلوب وأنماط أنشطتها المتعددة الوظائف والقوميات، هي البذرة أو الأساس لعولمة الاقتصاد

المعاصر، وأن هذه الشركات هى المستفيد الأول من هذه الموجة الحضارية الجديدة أو هى الخالق والباعث عليـوجودها لارتباط مصالح كل من العـاملين فى مجال البحث العلمى والتطـوير ومالكى هذه الشركات الـتى أصبحت تتعـدى الحدود القومية والمصالح القطرية إلى نطاق العالم أجمع .

فالأمم المتحـدة كمنظمة دولية ومن قبـلها عصبة الأمم.. ومـا نتج عنهما من معاهدات دولية واتفاقيات ومنظمات هى إرهاصات سياسية لنظام العولمة أو هو المسعى السـياسى باتجاه نظام عـالمى للشعوب ..غـير أن الأمم المتحدة كـانت قد خضـعت لنظام مكونها الأسـاسى منذ نشأتها فى أعـقاب الحـرب العالمية الثـانية وهو نظام (الدولة – القوميـة) ذات السيادة، مع التسليم بامتيـازات خاصة مثل حق النقض (الفـيتو) للدول الخـمس المنتصـرة فى نهاية الحرب العـالمية الثـانية (الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفيتى (روسيـا حاليا) ، الصين ، فرنسا ، انجلترا) ، ولكن لا يمكن أن نعتبر أن الأمم المتحدة قد استفادت أو استطاعت أن تستثمر اتجاهات مسألة العولمة وتقنياتها كما حدث بالنسبة للشركات متعددة الجنسيات . فما توالى به الأمم المتـحدة الآن هو تعدد صور العولمة ، والأزمـة التى تعانى منها الآن هى فى التعـدد وتضارب صـور العولمة بمعناها الراهن ، فـالعولمة فى آليـاتها الاقتصـادية العالمية وجدت تعبـيرها المقنن فى منظمة التجـارة العالمية التى ورثت سابقتها (الجات) ، كما كان تعبيرها المفروض بحكم الأمر الواقع فى الشركات متـعددة الجنسيـات وأيضا فى الأسواق الـكبرى كالسـوق الأوروبية المشتـركة ، والنافتا لدول أمـريكا الشمالية إلا أن إسهـام الأمم المتحدة فى التمهـيد والاعداد

لتيار العولمة لا ينكر من خلال مؤتمراتها الدولية ،التى عقدت طوال العقود الخمسة الماضية كمؤتمرات البيئة والسكان والمرأة والعمل الدولى ، وحقوق الانسان، وهى مؤتمرات حرصت على وضع مواثيق دولية ملزمة لأطرافها الموقعة عليها فيما يخص قضايا حقوق الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمل والبيئة والمرأة واعتبار هذه المواثيق إلا أن الخلافات التى تدور بين الأمم المتحدة والدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت سبباً فى إعاقة الأمم المتحدة عن لعب الدور الذى كان يمكن أن

تقوم به فى بلورة الأوضاع السياسية والقانونية للنظام العالمى الجديد. لقد شنت الولايات المتحدة الأمريكية حملة على المنظمة وأنشطتها وميزانياتها وأمنيها العام الأسبق د. بطرس غالى. رأت الولايات المتحدة (التى اعتبرت نفسها القطب العالمى الأوحد) أن الأمم المتحدة لا تحقق أهدافها ومصالحها التى بإمكانها أن تتحقق بدون الأمم المتحدة وبدون دور فاعل ومؤثر لها ، وكانت الحملة الأمريكية تهدف إلى عزل دور الأمم المتحدة وتحجيمه، بحيث تمنع أية اتفاقات أو معاهدات تتعارض مع مصالحها ، ثم حث الأمم المتحدة على الحركة والنشاط والفاعلية إذا كانت ستسفر عن نتائج تحقق المصالح الأمريكية. واعتبرت الولايات المتحدة أنها القطب الوحيد بعد انهيار منافسها الاتحاد السوفيتى ومن ثم يجب أن يتم صياغة العالم وفقاً لما تراه أو يتفق مع ما تريده .

إذا كانت فترة الحرب الباردة هى فترة صراع بين قوتين على تقاسم النفوذ والهيمنة فى الكرة الأرضية فإن الفترة التى أعقبت الحرب الباردة وانهيار الاتحاد

السوفيتى حتى الآن هى فترة صـراع بين الولايات المتحدة (القوة المنتصرة) التى تسعى إلى الانفراد والسيطرة على العالم وفرض عولمتها عليه، وبين قوى أخرى عالمية وأيضا كتل إقليمية على مقاومة هذا التفرد ومنعه من أن يبلور برنامجه .

ويشهد العـالم الآن مرحلة من السيولة وعـدم التحدد فى التوجهـات بالنسبة للذين يستطيـعون بناء القوة فـضلا عن مشاريع لم تتـبلور صيغهـا بعد بين دول كبرى تؤثر بشكل مبـاشر فى صنع القرار العالمى مثل روسيـا وفرنسا وألمانيا. إلا أن هذا التـحـالف الذى بدأ فى شكل تنـسيق بـين الدول الثـلاث من الممكن أن يأخذ تطوره الطبيعى نحو تحالف أعمق ،

لاتفاق مـصالح القوى الثـلاث إزاء محاولات الانفـراد الأمريكى، فى وقت أصيبت فيه السـياسة الأمريكية بحالة من التخبط وعـدم القدرة على اتخاذ القرار المناسب، خـاصة فـى مرحلة (بوش الابن).. وتسـعى الولايات المتـحـدة حاليـاً للخروج من الدوائر الضيقة للسـياسة الخارجية الأمريكية. لقد اعـترفت سياسة أمـريكا الخارجـية بثـوابت جـذرية فى العلاقـاتمصـدراً الدولية سـواء بالكتل أو الكيانات الكبرى أو الدول والمجموعات الإقليـمية، إلى سياسة جديدة تعلى من شأن المصالح العـالمية الكونية للولايات المتحدة. لم تسـتطع الولايات المتحدة أن تحدد أسـساً واضحـة لها بين التمـسك بذلك الجديد بما فـيه من تضحـيات وآلام وصراعات جديدة أو المحـافظة على القديم ومحاولة فرض التـوجهات الجديدة مرحليا أو تدريجياً لتجنب مخاطر الصدامات مع القوى الأخرى عالميا وإقليميا، مع إمكان رفض الآخرين للتوجهات ،التى تدمـر مصالحهم أو تلحق بهم خسائر

جسـيمة. وليس أدل على ذلك من قـانون " داماتو " الذى يفرض عـقوبات على الشركـات الأمريكية وغيـر الأمريكية التى تسـاهم فى مشروعات بتـرولية داخل ايران تزيد على ٢٠ مليـون دولار، وهو الوضع الذى وجـدت فـيه أمـريكا أنهـا تواجه بمقاومة ورفض أوروبى وعالمى، وتجسد الرفض فى كـسر مؤسسة شركة " توتال " الفرنسية لهذا الحظر ومشاركة شركتين واحدة روسية والأخرى ماليزية ، باستثمـار مبالغ تزيد على مليارى دولار فى تجديد حقـول النفط الإيرانية . ولقد وجدت أمريكا نفسها عاجزة إزاء هذا التـحدى الذى سنت بموجبه قانوناً يتعدى الجنسيـات، لأنه قانون فرضه الكونجـرس الأمريكى ويجب إلزام الشركـات غير الأمـريكية به ، بـل ويفرض عـقوبـات اقتـصاديـة عليهـا . اسـاسيـاً لكل الدول المشاركة فى هذه المؤتمرات والموقعة عليها .

الفصل الثالث:

ثـورة المـعـلـومـات

الإنترنت أول سلطة تفرض أحكامها بدون حكومة مركزية

اعتـبرت الطفرة التكنولوجـية التى أنتجت أجـهزة الحاسـبات ثورة أحدثت تغيرات جـذرية ،ليس فى طريقة الانتاج ، ولكن فى حـياة البـشر بمـا أدخلته من تغـيـرات فى نظم هذه الحيـاة وطريقة السيطرة عليها، وما غيـرته من أساليب الحياة والمعيشة بالنسـبـة للفـرد والجـمـاعة والدولـة .. وبفضـل الحاسـبـات الإلكترونية تغيرت نظم الإنتاج والمراقبة والجودة .. وهناك من يرى أن النظام الـدولى الجـديد فى السنوات الـقـادمـة والذي بدأت ملامحه تظهر بعد تداعى النظام القديم عام ١٩٩١ ، قد تبلور على أساس فرز مـغاير لطبيعة الـتنافس الدولى ، قوامه السبق والـتفوق المعلومـاتى والاتصالى ، والذى بـدا ضروريا على كافة الأصـعدة السياسى منهـا والاقتصادى اللذان صـارا أكثر التصـاقاً بعد غيـاب الثنائية القطبـية السابقـة. وعلى هذا الأساس فالتـقدم الاتصالى لا يمـيز سوى شمال فائق التفوق فى تكنولوجيا الاتصال والمعلومات وجنوب عاجز عن اللحاق به فى هذه المجالات .

وفى عام ١٩٩١ ، فى خطابه أمام الجمعيـة العامة للأمم المتحدة ، قال الرئيس الأمـريكى الأسـبق جـورج بوش ، وهو يبـشـر بنظام عـالمى جـديد : " إن ثورة المعلومات أدت إلى تدمير أسلحة العزلة والجـهل ، المعروفين بالقوة ، لقد تغلبت

التكنولوجيا فى العديد من أنحاء العالم على الطغيان ، مثبتة بذلك أن عصر المعلومات يمكن أن يصبح عصر التحرير ، إذا ما عمدنا بحكمة إلى تحديد قوة الدولة وحررنا شعوبنا لكى تتمكن من استخدام الأفكار والاختراعات والمعلومات الجديدة خير استخدام " .

وقبل حوالى سبع سنوات ، من إطلاق بوش نبوءته ، حاول" ليوتار" الإجابة عن التساؤل المثار فى كتابه " شرط ما بعد الحداثة " الذى صدر عام ١٩٨٤، فقال : المعرفة ، بصفتها سلعة معلوماتية ، لا غنى عنها للقوة الإنتاجية ، فقد أصبحت وستظل من أهم مجالات التنافس العالمى - إن لم تكن أهمها - من أجل إحراز القوة ، ويبدو أنه من غير المستبعد أن تدخل دول فى حرب من أجل السيطرة على المعلومات كما حاربت فى الماضى من أجل السيطرة على المستعمرات ، وبعد ذلك من أجل الحصول على المواد الخام والعمالة الرخيصة واستغلالها ، لقد فتح مجال جديد للفكر الاستراتيجى التجارى والصناعى من جانب ، والعسكرى من جانب آخر .

ينذرنا "ليوتار" إذن بأن عصر المعلومات ما هو إلا مرحلة جديدة من مراحل الصراع العالمى ، ومع كون تكنولوجيا المعلومات هى وسيلتنا للسيطرة على الظواهر المعقدة وحل المشاكل ، إلا أنها ذاتها قد أضافت بعداً جديداً يزيد معظم ظواهر حياتنا تعقيدا ويولد لنا مشاكل جديدة لم تكن فى الحسبان . ضمن أهم هذه المشاكل الجديدة ، خدمات نقل المعلومات وتبادلها التى اعتبرت فى بداية ظهورها خدمات إضافية، وهى تقع فى نطاق هيئات الاتصالات السلكية

واللاسلكية، إلا أنـها بدأت تستـقل بذاتها مع نمو حجـم البيانات وزيادة سـرعة تدفقها وتنوع الخـدمات المطلوبة ، وهناك حاليا عدة شبكات عـالمية، ذات مراكز منتشـرة فى جميع أرجاء العـالم .. وهذا يعنى أن المستقبل القـريب ، يحمل فى طياته نذيرا آخر ، هو إدراك ذوو الحس التجارى ، القيمة الاقتصادية للمعلومات وبالتـالى، فـهم لن يدخـروا جـهداً فـى تحويلـها إلى سـلع وخدمـات وأصـول استثمارية ، واخضاعها لما تخضع له السلع المادية والخدمات التقليدية. ويكفى أن نشيـر هنا إلى أن الناتج الكلى لصناعـة المعلومات ، يـقدر فى عام ٢٠٠٠ بـنحو ١٠٠٠ مليـار دولار ، لـتكون بذلك أول صناعـــة فى تاريخ العـالم تحـــقق رقم البليون ، بل إن النشاطات المتصلة بالمعلومـات توفر أكثر من ٥٠ بالمائة من الناتج القومى الإجمالى ، ومن العمالة فى الدول الصناعية المعاصرة .

وإذا أخذنا اليابانيين ، كـمثال، سنجد أنهم يندفعون بسـرعة عالية فى تطوير أوتوستـراد المعلومات، فقـد أعلن تاكينورى كانداكى وزير البـريد والاتصالات اللاسلكيـة فى يناير ١٩٩٤ ، أن اليـابان تتوقع اسـتثـمار ١,١ بليـون دولار فى خدمـات الوسائط المتـعددة للمعـلومات بحلول عام ٢٠١٠ ، وقـد توقع الوزير اليابانى لهذه الصناعة أن توظف ٢,٤ ملايين عامل .. فى هذا السياق هل نجاوز الحـقيـقة إذا قلنا إن اقـتـصاديات صناعـة الاتصال والمـعلومات ، هى التى تقـود الاقتصاد اليوم ؟ .

فى كل عصر ، هناك مجموعة من الصناعات تقـود الاقتصاد ، فقبل قرن كان الفـحم والسكك الحـديديـة همـا قائـدي النمـو فى أوروبا والولايات المتحـدة

الأمريكيـة على التوالى ، وبعـد الحرب العالميـة الثانيـة (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، كان الشائع هو التـصنيع والصناعات التحـويلية، ثم جاءت السـبعينات والثـمانينات بقطاع جديد سمى قطاع الخدمات كالخدمات الصـحية والقانونية والتوزيع وغير ذلك. أما محرك الاقـتصاد فى التسعينات فليس التـصنيع ولا الخدمات ، إنما هو صناعة الاتصال والمعلومات ، ويكفى أن نعرف أن أجهـزة الكمبيوتر، وبرامجها حققت ٣٨ بالمئة من النمو الاقتصادى فى الولايات المتحدة سنة ١٩٩٠ .

إن اقتصاد صناعة الاتصـال والمعلومات هو القطاع المتوسع والنامى، سواء فى خلق فـرص للعمل أو فى تحـقيق الأرباح ، إنه تصنيف وتوزيع المعلـومات ، من المعلومات المالـية إلى الترفـيهيـة ، وهو اقتصـاد منتعش. وقـد سارعت كثـير من الدول فى إقـامة شـبكات للمعلومـات العلمـية والتكنولوجـية لخـدمة العلمـاء والمتخصصين ، ومن أشهرها نظام فينيـتى الروسى ، الذى يقوم بتجميع البحوث العلمية على مستوى العالم وترجمة الكثير منها إلى الروسية فور نشرها.

وقد اجتهد الباحثون فى استشفاف أبرز سمات المجتمع المعلوماتى بالرغم من اعتـرافهمـأنه لم يستـقركامـلاً بعد فى أى من الدول ، حـيث إنه مازال في فـترة انتقال بل وتصـارع فى بعض الأحيان بين نمط الموجتـين الثانية الصناعيـة والثالثة المعلومـاتيـة. ولعل أبرز هذه السـمات هـى أثر ثورة المعلومـات فى تفكيك كل الخدمـات والأنشطة الجمـاهيرية وهـو ما يطلق عليـه اللاجمـوعية، ويـبدو ذلك واضحاً فى اقتصاد الجـملة ، والإعلام والتعليم ، ويرجع فى الأساس إلى القدرة الهائلة للتقنيات التى هى أحـد أعمدة عصر المعلومات ، حيث يمكنهـا مضاعفة

القـدرة على التنوع دون تحـميل ذلك عـلى التكلفة بـحيث يسـتـجيب صـاحب الخدمـة الإعلانيـة لطلبات المـستهلـك المحددة . وهكذا الأمـر موجود أيضـاً فى التعليم ، حيث يتـيح التوافر الهائل للمعلومات ، التى من الممكـن استقاؤها عن بعـد ، يتـيح الفـرصـة لطالب العلم أن يـحصـل على مـا يشـاء من التـعليم فى التخصص الذى يريده .

وقد أشرنا هنا إلى سمة التفاعلية التى هى من أهم سمات المجتمع المعلوماتى الذى يمـتاز بالتـشـبيك (أى عـملية الـربط الكامل بين مسـتـخدمى الشـبكة). والتـشبـيك يعنى أيضاً إمـكانية رد الفـعل السريـع ، وما يسـمى بدائرة التغـذية الاسـترجاعية التي هى من أكـثر آثار ثورة المعلومات والاتصـالات ثورية ،حيث أنها تمكن أطراف الشـبكة من التغـيير المستـمر لمعلومات ومـكونات هذه الشبكة طبقـاً لما يرونه من رد الفعل . وهذا هو بالضـبط ما يتعلـق بالسرعة أو مـا يسمى بالوقت الحاسـوبى الذى ينتج عنه تغير شـبه دائم فى المحيط والبـيئة يصعب فـيه التفريق بين القديم والحديث وبين الأصل والصـورة. ولعل المتتبع للتغيرات التى تطرأ على قـواعد البيـانات على شبكة «الإنتـرنت » يدرك ذلك تمام الإدراك عند تتبعه للتحديث الدائم الذى يطرأ على الفهارس والمحتويات.

ومن الخواص الأخـرى للشبكات مـا يمكن أن نطلق عليه "اللاشـخصـانية"، لأن طرف الشبكة لا يُعرف بمكانته الاجـتماعية وإنما ينحدر إلى مسـتخدم عادى قيمـته وقوته مرتبطة بـوجوده على الشبكة، وتندرج تحت هذا إمكانية الـتخاطب المباشر بين المستخدمين ، كاسرين فى ذلك أى قـواعد اجتماعية أخرى قد يجب

اتباعها فى نظم أخرى . ولذا فإن للشبكات آثاراً عميقة على التراتب الاجتماعى معظمها سلبى ، إذ إن طبيعة الشبكة تتخطى قيود الطبقات البيروقراطية والإدارية ، هذا بالطبع إن لم تكن هناك خطة مسبقة تساعد فيها الشبكة على تقوية السلم الإدارى ، وينبع من ذلك ما يطلق عليه ميل الشبكات إلى التفكيك واللامركزية. وهنا تتضح إحدى السمات الأساسية للثورة المعلوماتية ألا وهى القوى المتعارضة التى تولدها، فكما يمكن أن تسهم تكنولوجيا المعلومات فى التوحيد والمركزية يمكنها أيضاً أن تساعد على التفكك واللامركزية ، فهى أصلاً عامل محايد تقتصر آثاره على طريقة وأسلوب استخدامه ، ومع ذلك فهو يضع قيوداً ويفرض وضعاً جديداً لابد على الفاعلين فى بيئة ما أن يستجيبوا له .

ويرتبط بهذا الحديث حول الآثار المركزية أو اللامركزية لثورة المعلومات الحديث عن أثرها على طريقة حفظ النظام ، لقد اعتدنا على الاعتماد على سلطة مركزية تقوم بحفظ النظام وفرض القانون ، ومع ذلك فهناك طرق كثيرة أخرى لحفظ النظام منها وجود مجموعة من الأعراف والقوانين يتفق عليها الأطراف المتفاعلون على الشبكة ويلتزموا بها دون وجود سلطة مركزية تفرض عليهم ذلك . ولعل مصطلح« الأناركية» ، كما درج على استخدامه منظرو العلاقات الدولية ، هو أنسب مصطلح لتعريف هذه الحالة التى يطلق عليها الحكم دون حكومة ، هكذا الحال فى شبكة علاقات مثل الإنترنت التى لا تحكمها جهة مركزية، ومع ذلك هناك بعض القيود والأعراف التى تحظى بالالتزام الإرادى للقانون الحاسوبى.

إن مسألة حـفظ النظام ترتبط هى الأخرى بمفهوم آخر للثـورة المعلوماتية وهو خاصية الاضطراب ، فـهناك العديد من الكتابات التى ترى أن من آثار التطورات الاتصاليـة والمعلوماتيـة الاضطراب ، ومعناه أن سـرعة الأحـداث ، وزيادة توافر المعلومات عنها يعطى صورة شـبه فوضوية لهذا التتابع ، ولذا ظهـرت مجموعة من النظريات يطلق عليهـا نظريات الفوضى أو نظريات الاضطراب، التى يرجع جزء منها إلى حدوث عدد من التطورات المستقلة فى وقت متزامن فيصعب تبين وجـود ربط بين هذه التطورات بالرغم مـن التأكـد من وجـود ربط مـا ، ويرجع ذلك إلى الترابط الهائل الذى يتيح لعدد هائل من الـتفاعلات أنيحدث فى وقت متزامن ويقود ذلك إلى مفهوم آخر وهو التعقد .

و من المسلم به أن لدى بعض من مـثقفـينا ولعاً بالغـاً بنوع ما من العـالمية فى السينما .. فى الأدب .. فى الثقافة.. فى السيـاسة .. فى الاقتصاد ، حتى أضحى مصطلح " الـعالمية " دليـلاً على التقـدم والرقى والنجاح بغض النظر عن عـلاقة ذلك بواقعنا وشـعوبنا وقضايانا ، بل وإن كـان هذا الانجاز الذى وصف أو نعت بالعـالمية لا أثر له .. إلا أن التـقاط الإعلامـيين لهـذا المصطلح وترديده قـد أضر كثـيرا به، كمـا أضر بقـضايانا التى أصـبحت تقيم بمدى اقـترابهـا أو بعدها عن مفهوم ملتـبس غامض غير محدد أو مرئى، وإن كانت قـواعده وأسسه تصنع فى الخارج تحت دعـوى العالميـة . غير أنه بالـنسبة لمجـتمع المعلومـات تعتبـر الثقـافة العالميـة لها مفهوم ومكونـات أخرى كما أن دلالات هذه المعلومـات شيىء آخر فى خضم واسع من المعلومات.

لقد أفرد عدد من الباحثين جزءاً من كتاباتهم لدراسة دور العلاقات الثقافية الدولية فى العلاقات الدولية ، بل إن بعضهم جادل بوجود ثقافة عالمية ينتمى إليها معظم شعوب العالم ولذا فضلوا مصطلح المجتمع الدولى أو عند درجة أعلى من التناغم الثقافى " الجماعة الدولية ". فالثقافة العالمية تفترض وجود منظومة موحدة للقيم الإنسانية مرتبة طبقاً لأولوية واحدة . وإذا أردنا استكشاف أثر ثورة المعلومات على الثقافة العالمية ، وجب علينا دراسة أثرها على عملية ترتيب القيم . ولا شك أن المعلومات تلعب دوراً رئيسياً فى هذا المضمار فالثقافة السياسية يتم تبنيها عن طريق (التنشئة السياسية) على المستوى المحلى من خلال وكلاء أبرزهم العائلة ، المدرسة ، الأصحاب ، المؤسسات الدينية ، والإعلام بطبيعة الحال ، فإذا اعتبرنا أن شعوب العالم وصلت إلى درجة من الترابط تسمح لها بتلقى التنشئة السياسية عن طريق مؤسسات أو وسائط عالمية النطاق مثل السفر ، والإعلام وحالياً الطرق السريعة للمعلومات فإنه لم يتضح بعد هل وسائط المعلومات هذه تساعد على الاندماج الثقافى العالمى أو أنها قد تسهم فى حالة تشرذم ثقافى عالمى جديد. إن اللغة الإنجليزية أصبحت لغة شبه عالمية ويزداد المتحدثون بها باستمرار ، خاصة أن الشبكة البينية «الإنترنت» بدأت أول ما بدأت فى الولايات المتحدة التى تعتبر من أشد المشجعين على بناءما تطلق عليه الإدارة الأمريكية " البنية التحتية الكوكبية للمعلومات ". نجد أيضاً أن مشروعات تكييف الاستخدامات للوسائل الاتصالية الحديثة لكى تناسب اللغات الأخرى فى تطور مستمر. ومن المثير أن كلمة الإنترنت ظهرت مبكراً

كعنوان لمقال رئيسى على الصفحة الأولى فى إحدى الجرائد الدولية تحت عنوان " الحرب الثقافية للكلمات تلوح على الإنترنت "، وتطرق المقال لتخوف العديد من الشعوب من هيمنة اللغة الإنجليزية الأمريكية. وهناك من ينظر إلى هذا من منطلق الغزو الثقافى حيث يعتبر أنه " محاولة الثقافة الغازية فك الارتباط بين الثقافة المعرضة للغزو من ناحية ، والأفراد من أصحاب هذه الثقافة من ناحية أخرى ».

إلا أن هذا التناقض كشف لنا عن تداعيات الصراعات المقبلة ، والقوانين التى تحدد مسارات هذه الصراعات. فمن جهة نجد أن المحاولة الأمريكية لبسط الهيمنة والنفوذ الثقافى العالمى تواجه بمقاومة ضارية من الأمم الأخرى. هناك منافسة على العولمة بين القوى العالمية البازغة مثل اليابان ، وأوروبا الموحدة ، وفى القلب منها ألمانيا، فى حين أن عامل المنافسة على تسويق السلع الإلكترونية يدفع حتى الشركات الأمريكية على الإسهام فى محاولة تكييف استخدام هذه الوسائل الاتصالية الحديثة لكى تناسب اللغات الأخرى ،ولكى لا تفقد فى حمى المنافسة إمكانية تسويق منتجاتها إلى الجمهور الراغب فى استخدامها بلغته القومية .. إلا أن النفوذ الذى تحرزه اللغة الانجليزية وهو ناتج عن السبق والريادة فى مجال محدد ، هو الذى يرغم أيضا حتى الشركات اليابانية المنافسة على إنتاج سلعها الموجهة للتصدير باللغة الانجليزية وليس اللغة اليابانية ، وهذا هو المعنى المتناقض لكثير من الظواهر الملتبسة بالعالمية ،إلا أنه يكشف عن مسارات عدة تحكم تلك الظواهر التى تتجاوز فى حركة نموها ،وتطورها مسارات البشرية

لعشـرات الآلاف من السنين من الحضـارة لتصنع عالماً جـديداً فى بضع سنوات قليلة .. يتجاوز تلك الحقب الزمنية المتعاقبة.

إن اللغة تقـودنا بطبيعة الحال إلى مـفهوم القومـية فى عصر المعلومـات ، فقد اقـترن مـفهـوم القومـية بمؤسـسة الدولـة الأم لفتـرة طويلة، ولذا فإن المتـوقع أن ينعكس أى تغير فى قـوة الدولةعلى تغيرات فى مفـهوم القومية فكلمـا ضعفت مؤسـسات الدولة ضـعف الإحسـاس بالانتماء إليـها ،خـاصة وأن الطبـقة التى ساندت الدولة الأمة ، ووجدت فى تحالفها معها مـصالح اقتصادية تجد مصالحها الآن فى "عبر القومية" ، بالإضافة إلى أن أحد العوامل الرئيسية التي ساهمت فى بناء وتكوين الدولة الأمة هو رأسمالية الطبـاعة التى توحى بتشارك أفراد الشعب فى الزمان والمكان، وقد تحولت الآن إلى رأسمالية إلكترونية وهى بطبيعتها عابرة للحـدود السياسـية الحـالية . وإن كـان هناك مضـاد ، وإن كان متـزامنا ، وهو « المحلية »الذى يأخذ شكله الاقتصـادى فى مفهوم الدولة الإقليم أو الدولة المدينة على غرار الـوضع فى اليونان القديـمة ، فالمدن باسـتطاعتـها الاتصال ببـعضـها البعض الآن ولذا فإن الحركـات القومية الانفصالية التى يشـهدها العالم الآن قد يمكن تفسيرها من خـلال هذا المفهوم . وقد أدى التيار الانفصـالى الحاد المعاصر إلى أن يوجه بعض الباحثـين جهودهم لمناقشة حق ومبدأ تقرير المصـير فى عصر المعلومات .

لقد ارتبـطت الدولة القوميـة فى السابق بالسـوق وكان اتسـاع الدولة حجـماً وكثـافة له دلالة باتـساع السوق وحـرصت الدول على جـمع شتـاتها وأجزائـها

حرصاً على السوق القومية. إلا أن العولمة التى أصبحت لها لغتها وأدواتها الخاصة ووسائل اتصالها ، تتجاوز هذه السوق القومية ومفاهيمها فتتجه ناحية التكتلات الاقتصادية الكبرى التى تحقق مصالح أعضائها ، بغض النظر عن القومية أو الدين أو اللغة ، لتعزيز القدرة على الصمود فى مواجهة المنافسة الضارية من الآخرين ، فى حين ان التفاوتات الحادة فى الدخل والثروة التى باتت تحظى بها المدن التى دخلت عالم المعلوماتية عن تلك التى تخلفت ، أضحى يشجع المدن الكبرى على الاتجاه إلى الانفصال ، وتكوين دولة قائمة بذاتها أو اقليم ذي حكم سيادى حتى لا تتحمل عبء رعاية وحماية ومعاونة المناطق الأخرى الأكثر تخلفاً .. ويمكن أن نرى ذلك فى الحركة الانفصالية لشمال ايطاليا الغنى والمتقدم بالنسبة لباقى أقاليم الدولة الايطالية حيث الريف والمناطق الأقل تقدماً فى الجنوب والوسط. وهو نفس الاتجاه الذى أكده انفصال جمهوريتى السلوفاك والتشيك، ذلك الانفصال الذى تم بطريقة دستورية تشير إلى لغة انفصال أقاليم ومدن الغد .. فى وقت لم يمنع ذلك الانفصال اتجاه كل من الجمهوريتين وسعيهما للانضمام إلى الاتحاد الأوروبى أو حلف الأطلنطى ، بما فيه من التزامات تنقص من سيادتها الوطنية فى الأمن والسياسة الخارجية .

ومن مفهوم القومية نتجه إلى مفهوم أوسع وهو الأيديولوجية.. وهى أحد العناصر الباعثة على تماسك بعض أو كل المنظوم الدولى ، فالأفكار لابد أن تعتمد على معلومات وأن تتبلور فى صورة معرفة وقد ترقى إلى مرتبة الحكمة. ومع عصر المعلومات لابد من التفكير فى ماهية الأيديولوجية ، فهناك رأى يقول

بموت الإيديولوجيات الكبرى فى عصر توافر المعلومات ، وقد يستند ذلك الرأى إلى طبيعة تنوع وكثرة المعلومات، التى تؤدى إلى فـوضى فى متابعتها وإلى حالة من عدم اليقين والتـحديد ..كما أن التجدد أوالإضـافة التى تحدث من الأفراد أو النظام فى المعلومات تضفى بعداً آنـيا للحقيقة وأيضا نسبـياً بالنظر إلى التفاوتات الزمـانية والمكانيـة .. غيـر أن هذه الفوضـى سرعـان ما تتـبلور وتتخـذ أشكالاً مسـتقـرة متحـدة فى مسـارها من الماضى إلى الحاضـر والمستـقبل ، قابلة بالـتنبؤ وبإمكانيـة تقدير الموقف ، وهناك من ينظر إلـى عصر المعلـومات نفسـه على أنه بداية للتبـشير بأيديولـوجية أو أيديولوجـيات جديدة تنقل مـهمتـهم من البحث العلمى إلى العـمل الحـركى المدفوع بمصـالح اقتـصـادية وسيـاسيـة ، ومن أجل تشكيل منظوم مـعرفى يدافع عن القـيم المصاحـبة لمجتـمع المعلومات ،والـبعض يتوقع أن ينقـسم العالم إلى تكتـلات أيديولوجية طبـقا لتناسق قـيم كل كتلة مع أيديولوجية ثورة المعلومات .

الدبلوماسية والمعلومات :

الدبلومـاسيـة هى النشـاط السـياسى لأمـة أو شعـب من أجل تحقـيق أهداف السيـاسة فى محيط دولى قـد يتسع أو يضيق، ويعـتمد هذا النشـاط على وسائط وأساليب بين الدبلوماسى والمـركز الذى قد يكون (وزارة الخارجية) فى غـالبية الدول أو مـفـوضيـة الشـئـون الخـارجيـة فى الحـركـات والجمـاعـات المطالبـة بالاستـقلال. وتعـمل وسائل الاتصـال دوراً مهـماً فى تقـدير الموقف السيـاسى وسـرعـة اتخـاذ القـرار وإبلاغـه وتلقى ردود الفـعل بشـأنه .. ولا شك أنثـورة

المعلومـات جعلت هذه الوظائف مـختلفـة فى جدواها وطرق أدائهـا. ومن أهم نتـائج ثورة المعلومـات أنها أفـرزت بيـئة جـديدة محـيطة بنطاق عـمل وزارات الخارجـية ، وفى بعض الأحـيان ، وفـرت هذه الثورة لدوائر أخـرى أدوات طالما احتكرتها وزارات الخارجية مما أدى إلى تغيير الوزن النسبى لهذه المؤسسات فيما يتعلق بصنع السياسة الخارجيـة. فالتيار الذى يتبنى منظور التأثير السلبى يرى أن التغيرات السـياسية التى نتجت عن العصر الإليكتـرونى فى المجتمع الأمريكى ، قد أضافت إلى قوة الرئيس فى نفس الوقت الذى توزعت فيه القوة إلى المجالس التشريعيـة من خلال الإعلام الذى أشرك الجمهور فى قضـايا العلاقات الدولية ، وهو ما يعـتبر تناقـضا داخليا حيث إن كـلا من السلطة التشريعـية والتنفيـذية قد تمتعت بزيادة فى القوة ، إلا أن زيادة قوة السلطة التنفيذية لم توزع بالتساوى بين كل مؤسـساتهـا بالطبع ، والإمكانات التى توافـرت للسلطة التـشريعيـة هى فى حقيقة الأمر إعادة توزيع لبعض الإمكانات التى كانت قطاعات تنفيذية تملكها .

وفى تطور آخر ، يرى الـبعض أن المعلوماتيـة ، وعلى غيـر المألوف ، قد أدت إلى شخصنة العـلاقات الدولية، حيث أتاحت فرصة الاتصال المـباشر بين القادة السـياسـيين، ويضـرب فى ذلك مثل هـو قيـام الرئيس الأمريكى الأسـبق بوش بتجميع التـحالف الدولى فى حرب الخليج الثانية. لقد اسـتخدم الرئيس الهاتف كما لم يستخدم من قبل فى الدبلوماسـية الدولية ، كانت هناك أنواع مختلفة من المكالمات . المكالمة القصيرة من أجل إطلاع المخاطبين على التطورات. والمكالمات الأكثـر تفصيـلاً ، وهكذا وضعت القواعـد الدبلوماسـية جانبـاً ، ولم يعد وزراء

الخارجية يمضون ثلاثة أيام من أجل التحضير لمحادثات رئيس الدولة مع رئيس دولة أخرى، وكان رؤساء الدول فى طور تشكيل شبكتهم الخاصة – بقيادة جورج بوش .

كما يرى البعض أن الثورة الإعلامية نتج عنها تعدد الألسنة المتحدثة باسم الدولة، وفيما يطلق عليه الدبلوماسية العامة أو الإعلامية، ويرى هؤلاء أن ذلك يضعف الأداة الدبلوماسية، لأنها كانت القناة الوحيدة للتعبير عن موقف الدولة . كما أن هناك من يقول إن دبلوماسية القمة والدبلوماسية الشعبية والدبلوماسية الرياضية إلى آخر ذلك من

" الدبلوماسيات " قد أدت إلى توزيع فى المهام التى كانت تضطلع بها الدبلوماسية الرسمية الممثلة فى وزارات الخارجية، حتى أن كاتباً ألف كتاباً كاملاً بعنوان " ضد الدبلوماسية ، الجواسيس ، الإرهاب ، السرعة والحرب "، حذر فيه من نتائج الثورة الاتصالية التى تؤثر سلباً على الأدوات والأدوار التقليدية للدبلوماسية مما أفسح المجال للحركات الإرهابية وللأنشطة الاستخباراتية ، وقد رأى الكاتب أن فى ذلك خطراً كبيراً على السلام الدولى الذى تلعب الدبلوماسية فيه دوراً كبيراً.

وإذا استرجعنا أحد أهم وظائف الدبلوماسية ، نجد أنها حماية المصلحة القومية ، وهى مصلحة مركبة تتكون من عدد من المصالح الجزئية اقتصادية ، ثقافية ، عسكرية ، سياسية ... الخ ، ولذا فهناك حاجة دائمة إلى تشكيل صورة شاملة. ومن هنا كانت فائدة أى آلة قادرة على تربيط ومعالجة المعلومات وذلك

هو لب العمل والهـدف من استخدام تكنولـوجيا المعلومات . لقـد أوضحنا هنا كيف أن تكنولوجـيا المعلومات وتكنولوجـيا الاتصالات تسـتجيـبان فى حقيـقة الأمر لأهم متطلبـات الجهاز الدبلوماسى المبنيـة على وظيفته وبنيتـه ، وبالإضافة إلى العوامل الذاتيـة التى تشجع وزارات الخارجـية على إدخال تقـانة المعلومات فى منظوماتهـا ، فقد ضـاعفت العوامـل الخارجيـة ، التى تتمثل فى تغـير البيـئة المحيطة ، من أولوية وأهميـة هذا الاتجاه ، فقد تغير السيـاق الدولى العام المحيط بصناعة القرار الدبلوماسى مع تسارع الأحداث وكثرة المعلومات المتوافرة عنها . ولذا فـقد تقلصت المدة المتـاحة أمـام عمليـة صناعة القـرار فهنـاك حاجة دائـمة للاستـجابة للبـيئـة المتغـيرة فـالسلوك تجاه اسـتخدام تكنولـوجيا المعلـومات فى الحكومة يتغير كلما أصبـحت نظم المعلومات أكثر تطوراً خاصة وأنه من الممكن التكيف مع بعض نظم المعلومات المستخدمة بالفعل فى المؤسسات التجارية ، بل إن تطبيق وتفعيل نظم المعلومات كـان أحد الطرق لتمكين وزارات الخارجية من المنافسـة وإثبات ذاتهـا نظراً لقيام الوزارات الأخـرى بمشاركة أكـبر فى القـضايا الدولية لتمكنهم بالاتصال مباشرة بنظرائهم الأجانب .

ولكن كما أن هناك مركـبات ذاتية وخارجية لاستقـدام تكنولوجيا المعلومات فى العملالدبلومـاسى ، توجد أيضا عوائق وحـواجز عديدة نقسمـها إلى عوائق مـادية ، وأمنية ، وبنيـوية ، وتقنيـة وبيئـية مـحيطة . فـالعـوائق المادية تتمـثل فى محدودية توافر الأجهزة وضعف ميزانيات وزارات الخارجية بالمقارنة بالشركات العملاقة المتـعددة الجنسية ووزارات الدفاع ، مما يصعب القـيام بالبحث والتطوير

اللازمـين فى عـصـر المعلومـات. ومما يفـاقم من هذه المشكلة أن هيكل الجـهـاز الدبلوماسـى يتكون من مقر دائم وبعـثات فى الخـارج مما يزيد من تكلفة عـملية إدخال تكنولوجيـا "المعلواتصالية "، نظراً " لتمدد " الجهـاز الإدارى عبر مواضع متباعدة جغـرافياً .. كما أن هناك معوقات بيئية تتـمثل فى جانب مهم من عمل الجهاز الدبلوماسى وسط محيط أجنبى يمكن الدولة المضيفة من فرض قيود عليه وتبـخل عليه بالمسـاعدات الفنيـة. وهناك أيضـاً عوائق تقنيـة تتمـثل فى صعـوبة المعالجة الإليكتـرونية لمعظم المعلومات التى تضطلع بها وزارات الخارجـية حيث إنها معلومات " مـرنة" وغير مهيكلة. ومن العوائق البنيـوية صعوبة الوصول إلى استراتيـجية عامـة لميكنة وربط المقر بالبعثـات نظراً لاختلاف أحجـام السفارات واختلاف المعاييـر الفنية. إلا أن المشكلة الأكبر تتمثل فى العوائق الأمنيـة فطبيعة المعلومـات التى تتـداولهـا وزارات الخـارجيـة مـعلومـات سـرية ، وبما أن هناك مخاطرة دائماً فى شبكات المعلومات بأنها يمكن اقتحامها إليكترونيا ، فقد كانت المعوقـات الأمنية أحد أهم الأسبـاب وراء الإبطاء فى ميكنة العمل فى الأجـهزة الدبلومـاسيـة . وتطورأسلوبان للتعـامل مع هذا العـائق ، الأول تقنى فنى يعنى باستخدام تكنولوجيا متقدمة يصعب الـدخول عليها وكسرها .. أما الثانى فتمثل فى إعادة تقييم معيار السـرية الدال على عدم تمكن توصيل التحليلات المهمة إلى الشخص المناسب فى الوقت المناسب ، وذلك حتى يتسنى إتخاذ القرارات المهمة مما حتم تبـنى رؤية جديدة لمفهـوم سرية المعلومـات يدفع إلى التقليل من القـيود المفروضة على إنسياب المعلومات وتبادلها. وقد أتاح ذلك إمكانية الحصول على

المعلومات المهمة من مصادر مفتوحة للاستخدام العام حتى أن الإعتماد على المصادر السرية فقط ، يقود حتما إلى الوقوع فى فخ عدم الكفاءة والفاعلية. ويضرب المثل

هنا بوزارتى الخارجية فى المملكة المتحدة والولايات المتحدة اللتين قامتا بتخفيض درجة السرية على عدد كبير من الوثائق .

وكما رأينا فإن هناك حلولاً لكل هذه الحواجز ، ولكن هناك عائقاً رئيسياً لم نتطرق إليه هو العائق البيروقراطى الإدارى . فمن المتوقع أن تمثل الجوانب الاجتماعية والسياسية ،وليس الفنية، الصعوبات الحقيقية أمام عملية استقدام نظم المعلومات الجديدة فى وزارات الخارجية .. ومن ناحية أخرى فإنه نتيجة للتطورات التى أحدثتها ثورة الاتصالات ، نجد أن الفرص التى أتاحتها والإمكانات التى توفرها تفتح آفاقاً جديدة لدور مرموق تقوم به وزارات الخارجية فى عملية صنع واتخاذ وتنفيذ قرارات السياسة الخارجية . هذا بالطبع إذا تم تطوير العمل بهذه الوزارات وتكييف هياكلها الإدارية. فخلاصة القول إنه أمام وزارات الخارجية فرصة ، لتوفير الوقت والجهد الموجهين لتجميع البيانات والمعلومات الخام، فالإعلام ومؤسسات المعرفة المختلفة من جامعات ومراكز أبحاث يقومان بهذه المهمة الآن . والإمكانية متاحة لتوجيه الوقت والجهد إلى مهام أكثر إبداعا تتطلب طبعاً نوعاً خاصاً من العمالة للالتحاق بالعمل الدبلوماسى تتميز بروح المبادرة والقدرة على الإدارة ، والتعامل مع التكنولوجيا ، وتكون لديها ملكات فكرية ومهارات بحثية عالية، وتكون قادرة على الاتصال

بكفاءة وقيادة الفرق والمجموعات والثقافة المتنوعة الواسعة أى باختصار " عمالة الألفية الثالثة " .

ويستلزم هذا بالطبع إعادة تنظيم الهياكل الإدارية لتأهيلها للقيام بالمهمة الجديدة مثل إمكانية استحداث أو تدعيم إدارات مختصة بمتابعة التطور العلمى والتكنولوجى وإدارات للعلاقات العامة ، وما إلى ذلك من تطوير إدارى ..كما أنه من المحتمل أن تتجه وزارات كثيرة إلى إنشاء مراكز بحثية ، وبنوك ملحقة بها يمكن تكليفها ببحث ودراسة الموضوعات المطلوبة ، وذلك مع تمتعها بمرونة فى التحرك وحرية فى التعبير هى فى حاجة إليها للقيام بأبحاث إبداعية.. أما عن كيفية التعامل مع المعلومات والبيانات الخام ، فهناك قابلية لتكييف

منظومات إدارة المعلومات التى طورتها مؤسسات الإعلام الدولية العملاقة ..و فى جملة واحدة : هناك إمكانية وفرصة لوزارات الخارجية أن تتحول من محصل للبيانات ومجمع للمعلومات، ومنفذ للسياسات إلى متلقٍ للمعرفة ، ومنسق للمجهودات ، مفكر فى البدائل ومخطط للاستراتيجيات .

ونتيجة التطور الهائل فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أصبح العالم الآن متشابكاً ومترابطاً إلى درجة لم تشهدها البشرية من قبل .. ولكن يجب التنويه إلى أن معظم التيارات والاتجاهات التى تمت الإشارة إليها تحدث فى الدول المقدمة فى المقام الأول . وينذر هذا بتقسيم الكرة الأرضية إلى " حقب تاريخية " تعانى من فقر معلوماتى محتدم، فالتطور الحادث اليوم ربما يكون أكثر التحولات ثورية فى تجربة الإنسانية ، ولكن لكى يكون هذا العصر ذا طيات

إيجابـية وليسـت سلبيـة ، لابد أن تستـخدم المعلومـات المتاحـة فى خدمة الـقيم الخـالدة ، إن المطلوب هو أن نعبـر عصـر المعلومـات إلى عصـر المعرفـة ومنه إذا أمكن إلى عصر الحكمـة .. وإذا كان الغرب قد وجد فى عصـر المعلوماتية شكلاً جديداً من أشكال الابهار ،لأنه مازال يحـبو فى سنواته الأولى ليخفى آثار الخلل والدمار الذين أحـدثتهمـا الثورة الصناعـية والكيمـاوية فى بيئة الأرض وصـحة البشر وما تشكله من أخطار فعلينا أن نلحق بقطار المعلوماتية ليس كإله جديد .. وإنما كعلم جديد نستطيع أن ندرك إمكانياته ونوظفها ، ونستعد لمعرفة أضراراها .

الفصل الرابع :

الاستعمار الإلكترونى

تكنولوجيا الإعلام تسقط الأيدولوجيات

إن التطور الذى حدث فى تكنولوچيا المعلومات والاتصال ، كان له أكبر الانعكاسات فى مجالات ووسائل الاتصال .. لقد تغيرت إمكانات هذه الوسائل وقدراتها وخصائصها، فالأقمار الصناعية جعلت جهاز التليفزيون يستطيع استقبال محطات التليفزيون من جميع انحاء العالم ، وأصبحت السماء هى أكبر ناقل اتصالى وأسرعه وأقدره .

لقد تخطت وسائل الاعلام ، الحدود الجغرافية والحواجز السابقة ، التى أصبحت بالنسبة لها مثل الكثبان الرملية على شواطئ البحار ، كما تخطت حواجز اللغة والدولة والعقائد، وأصبحت قادرة على التأثير والتلاعب والتوجيه المباشر والصريح فى فكر وعقيدة وسلوك المشاهدين أو المستقبلين، وأصبح المستقبل حراً فى استقبال ما يشاء وقتما يشاء وبالطريقة التى يشاء ولكن وفقاً لما يريد الآخرون أن يعطوه ، ووضعت بذلك بذور قرية عالمية يبدو فيها المستقبل هو سيد الأمر فى لحظة واحدة ،هى لحظة توجيهه لمؤشر المحطات بينما كل الحرية والسيادة لمحطات الإرسال فى توجيه المشاهد واعطائه الجرعة الإعلامية .. وأصبح الصراع بين محطات الإرسال فى كل مكان هو فيمن يستطيع أن يمتلك تلك اللحظة الوحيدة لدى المستقبل

ويجعلها لصـالحه هو ، من خلال استخدام فنون الإعلان ودراسـة أعماق النفس البشرية والحاجات والرغبـات الباطنة .. إلخ .. المؤكد أن التطورات الهائلة وغير المسبوقة التى قدمـتها العلوم والتكنولوجيا فى عالمنا المعاصر قد غـيرت كثيراً من أوراق

الماضى ومـقولاته ، وهذه الهـبة العلمـية التى استـحقت وبجـدارة لقب ثورة تمضى بوتيرة سريعة حتى أنه يقدر أن كم الاكتشافات العلمية والتكنولوچية فى الربع الأخير من القرن العشرين فاق على كل الاكتشافات التى جربتها ومارستها البشرية منذ بداية التاريخ الحضارى المكتوب والذى يقدر بآلاف السنين .

كـمـا أن الحدود والآفـاق المفـتـوحـة بلا ضـفاف أمـام هذه الثـورة العلمـيـة والتكنولوچية جـعل الكثيرين من العلماء والمفكرين يتـحسبون لتغـيرات جذرية فى نمط الحـياة والعـلاقات السـائدة، وقـد بدأت انعكاساتهـا بالفـعل فى جمـيع مناحى النشاط الانسانى الاجـتماعى والاقتصادى والسيـاسى والثقافى. ويذهب البعض من المفكرين إلى القول إنه ولأول مرة فى التاريخ تسـبق العلوم التطبيقية العلوم النظرية، بمعنى أن التـغيـرات الهائلة والجـذرية فى مجالات التكنـولوچيا والمعلومات والاتصالات والجينات والهندسة الوراثية وعلوم الفضاء وغيرها من مستـحدثات تلك الثورة ، لم يواكـبها أو يسبـقها أي نظريات فكرية أو فلسـفية تضع لهـا الأطر الاجتمـاعية والاقـتصـادية والثقافـية ، فـقد تعودنا فـى التاريخ البـشرى علـى التبـشـير النظـرى أولا، والذى اتخذ فى بعـض الأحيـان أشكالاً أيديولوچية تحدد مـسار وتطور التقدم العالمى ..إن الثورة العلمـية والتكنولوچية

التى جرت فى الربع الأخير من القرن العشرين تجاوزت بكثير المنطلقات الأيديولوچية الموجودة على الساحة العالمية كما طرحت إشكاليات وقضايا لم تكن تتوقعها أو تحسب لها أى من المدارس النظرية أو الفكرية الموجودة على الساحة العالمية. حتى أصحاب المذهب البراجماتى التجريبى ظلوا أسرى منهجهم الذى يؤمن بالعلم والتجربة ولكنه فى الوقت نفسه عاجز عن تقديم تفسيرات أو منهج للأسس والآفاق التى يمكن أن تصل إليها الثورة العلمية .

وهكذا فاجأت الثورة العلمية والتكنولوچية العالم الذى كان منقسما إلى أيديولوچيتين أو نظريتين تزعمان أنهما تقدمان أفضل الأشكال والأطر للتطور الانسانى الحضارى .. وإذا كان صحيحا القول بأن هذه الثورة العلمية والتكنولوچية الهائلة غير المسبوقة قد أسقطتفيما أسقطت نظرية الثنائية القطبية عندما انهار أحد المعسكرين وهو الاتحاد السوفييتى الذي تحلل وتفكك نتيجة الخلل الذى كشفته الثورة العلمية والتكنولوچية فى التطبيقات النظرية التى كان يقوم عليها ، والتى أدت إلى تخلف تكنولوچى واضح ، فإن هذه الثورة فى هيئتها ومسيرتها المنطلقة قد أسقطت كذلك النظرية الرأسمالية الأخرى ومنطلقاتها ، فمع التطورات العلمية وخاصة فى مجال ثورة الاتصالات والمعلومات أصبح بإمكان من يمتلك أجهزة استقبال بث الأقمار الصناعية أن يستقبل ما يشاء من محطات التليفزيون الفضائية التى تبث مئات البرامج فى جميع أنحاء المعمورة ، وأصبح وارداً مع التطور العلمى فى هذا المجال ، أن يستطيع أى فلاح مصرى فى قرية نائية بالصعيد أو صياد يمنى أو حتى راعٍ على

الجبـال والأودية العربيـة الممتـدة شرقـا وغربا أن يرى الصـورة المجسـدة ومعـها الصوت لكل مـا يجرى فى عـالم اليوم من أحـداث وثقافات ،بما فـيهـا الصالح والطالح ، وأن يشـاهد ويرى وينتقى لنفسـه مـا شاء من برامج بكل ايـجابياتـها وأيضا بكل موبقاتها دون أن يستطيع أحد أن يحجب أو يراقب.

إن ثورة العلوم والتكنولوچيـا تفرض واقعاً جـديداً لم يستقر بعـد لأنه مازال فى حـالة الفـوران البركـانى ولكنه وفـى كل الأحوال أصـبح يمس الكثيـر من المسلمات التى كانت راسـخة إلى وقت قريب ، والأمر لا يتعلق فقط بمـجموعة التغـيرات السيـاسية الدرامـية التى جرت ومـازالت تجرى فى عـالم اليوم ولكن التغـيرات الأخطر والأهم هى تلك التى تجرى فى الأعـماق ومن الممكن أن تنتج عنها تغيـرات جذرية فى الأبنية القوميـة والعلاقة القائمـة بين الخاص والعام بين الفرد والمجتمع. ففى عالم تضيق فيـه المسافات ، ويجرى فيه حوار عالمى من نوع جديد عبر التلفزيون والفضائيات والفاكس وشبكة الإنترنت إضافة إلى شبكات المواصلات العالمية فـوق الأرض وتحت الارض، ينمو أكثر وأكثر مـفهوم القرية الدولية ، حيث تتشابك المصالح والحضارات .

ويبدو واضـحاً أن كلمة الاسـتقلال بمفـهومهـا القديم الذى عرفناه فى فـترة انهيارالاستعـمار القديم وبروز حركة التحرر الوطنى فى أعـقاب الحرب العالمية الثانية ، تخلى مكانها أكثر وأكثر لمفهوم الاعتماد المتبادل. يمثل هذا المفهوم أعلى مراحل دمج وسائـل الاتصال التقليدية والجـديدة معاً والمقصود بـه وضع جميع التـقنيـات المـتـوافـرة على صـعـيـدى الاتصـالات والمعلـومـات ، من الهـاتف

والتليفزيون والكمبيوتر الشخصى والأقمار الصناعية والأطباق اللاقطة والكابلات وموجات الميكروويف فى منظومة مدمجة واحدة ووضعها بتصرف أفراد المجتمع للإفادة منها فى حياتهم العملية والاجتماعية. وتعكس هذه التسمية الطريقة التى ستوضع فيها هذه الشبكة الواسعة من التقنيات والخدمات بتصرف الناس .. وهى بصورة عامة تتألف من خطوط اتصالية أشبه بالعمود الفقرى تتفرع منه نقاط دخول وخروج . ومما يميز هذه المنظومة أنها تربط جميع جوانب الحياة المنزلية والعلمية والاجتماعية والترفيهية ، كما تتيح لكل من يريد الاتصال بالآخرين إليكترونياً. من أمثلة هذه الاتصالات أن يجرى مداولاته مع السوق والزبائن والمؤسسات التى يتعامل معها ، أو أن يلهو بألعاب الفيديو أو يشاهد البرامج التليفزيونية من أى نقطة يوجد فيها مسكنه أو مكتبه بل وأينما كان بمجرد أن يكون مزوداً بهاتف أو كمبيوتر من النوع المحمول أو المفكرة ، نظراً لما توفره هذه المنظومة من علاقة شبكية واسعة من كل نقطة وبواسطة أى أداة وعبر أى اتجاه . ورغم أن جوهر هذا المفهوم ليس جديداً تماماً إذ أن ملامحه ظاهرة فى مصطلح تعاملنا معه على الأقل طوال الأعوام الأخيرة وهو مصطلح " الوسائط المتعددة "، أى دمج الصوت والصورة فى أدوات التواصل والعمل والترفيه (الكمبيوتر والهاتف والتليفزيون)، إلا أنه من الواضح أن الذى يقصده الداعون الى خدمة " الطريق السريع للمعلومات " أو "جادة المعلومات " هو شئ أكثر من ذلك. .. وقد ورد هذا التعبير لأول مرة على لسان آل "جور نائب الرئيس الأمريكى، ليعبر بواسطته عن معنى هذه التطورات وهذا الاتجاه، وكان

قـد كشف عن اهتـمامـات مسـبقـة فى هذا الصدد مـذ كان عـضوا فى مـجلس الشيوخ ، وكان يرى أن التكنولوچيا الرفيعة تعنى أكثر من صنع طائرات تستطيع تحاشى الرادار كالطائرةالشبح أو الصواريخ الذكية، وقد طالب آنئذ باعتماد مبلغ ٥٠٠ مليون دولار لتوسـيع شبكة الإنترنت . . وحينما أصـبح نائبا للرئيس أخذ على عاتقـه العمل على تحقـيق هذا المشروع الذى من شـأنه أن يسمح للولايات المتحـدة بالاحتفـاظ بزعامة الـعالم فى قطاع التكنولوچيـا ، وكما توقع السـاسة الأمريكيون أنه بحلول عام ٢٠٠٠ أصـبح قطاع الاتصالات السلكية واللاسلكية أكبر سـلعة تصدير أمريكيـة وأكبر ميـدان للنشاط الاقتصـادى فى العالم. وتمثل شـبكة الإنترنت الأمـريكيـة أبرز النمـاذج العالميـة فى الاسـتفـادة من الخدمـات المتكاملة للمـعلومـات. إنها شـبكة اتصـالات عالميـة تربط الآلاف من شـبكات الكمـبيوتر بـعضهـا ببعض ، ويسـتخـدمهـا الملايين من مسـتخـدمى الحاسـبات الإليكتـرونية حـاليـا على مدار ٢٤ سـاعـة فى معظم أنحـاء العـالم خاصـة فى الجـامعـات ومراكـز البحـث العلمى والشركـات الكبـرى والبنوك والمؤسسـات الحكومية. وقـد بدأ العمل بهذه الشبكة فى السـبعينات كمـشروع لوزارة الدفاع الأمريكية ولكنه سرعـان ما تحول إلى مشروع أكاديمى ثم اقـتصادى يهدف إلى الخدمـة العامـة مكونًا الأساس لطريق مـعلومات دولـى سريع. وقد بدأ الـعمل بهذه الشبكة عام ١٩٧٥ كـتجربة قامت بها وكالة المشروعات للأبحـاث المتقدمة للدفاع التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية ، بهدف انشاء نظام للاتصالات قادر على ربط جمـيع أنظمة الاتصالات المختلفـة وبروتوكولاتها مع شـبكة مكتب الدفاع

الأمريـكى. وكان الهـدف من هذه الشبكة أو هذا النظام الاتصـالى هو السـماح للحاسبـات الإليكترونية المتصلة بالـشبكة أن تكون قادرة على محـاكاة أية شبكة حاسبات إليكترونية أخرى متـصلة بها عن طريق إنترنت وتبادل المعلومات معها ، وأن تبقى شبـكة إنترنت قادرة على العمل حـتى لو توقفت أى شبكة كمـبيوتر أخرى متصلة بها عن العمل .. لم يكن الهدف بالطبع علميا أو إعلاميا ، بل كان خشية وزارة الدفاع الامـريكية أن تتعرض مراكز الكمبيـوتر الحربية إلى ضربات نووية تدمـرها وتضعف قدرة الآلـة العسكرية على الرد أو التـحرك بسـرعة، لذا كانت هناك حاجة حل يستطيع العسكريون عن طريقه نقل المعلومات إلى مراكز كمبيوتراتهم التى لم تتأثر بالعمليات العسكرية .

وخلال سنوات قليلة تمكـن الخبراء الذين تولوا دراسـة المشكلة من إيجاد حل مناسب ترجـمـوه فى بناء شـبكة عـرفت باسم (اربانيت) مـولت وزارة الدفـاع نفـقاتهـا وضـمت فى البداية أربعـة مـختـبـرات كمـبيـوترية تهـدف إلى تطوير بروتوكـلات الاتصال الذى يمـكن أن يدعم هذه الشبـكة .. بعد ذلك انضـمت جامعات ومختبرات عـديدة ومراكز علمية عديدة إلى هذه الشبكة وشكلت هذه المؤسسات العمود الفقرى لشبكة إنترنت التى لم يتـعد عدد المشتركين فيها حتى عام ١٩٨٨ مليون مشترك ، ولكنهـا تطورت ونمت وزاد عدد المصادر التى تعتمد عليها والشـبكات الفرعية التى تتـصل بها ليصل عدد مشـتركيها عـبر العالم إلى حوالى ١٠ ملايين مـشترك فى منتصف عام ١٩٩٤ ، ثم ٣٣ مـليوناً فى منتصف عام ١٩٩٥.

يقول د. محمود علم الدين أستاذ الاتصال بكلية الاعلام جامعة القاهرة : من منظور اتصالى يـمكن القول إن المعلوماتيـة هى مزيج من تكنولوچيـا المعلومات وتكنولوچيـا الاتصال ، ويمكن حـصـر أبرز سمـات هذه المرحلة الاتصاليـة فى الجوانب التالية :

١ ـ استقرار بعـض الأنظمة المستحدثة فى الثمـانينات ، وأبرزها أنظمة النشر المكتبى وأنظمة البريد الالكترونى وأنظمة اللقاءات عن بعد .

٢ ـ التطوير المستمر للوسائل الاتصاليـة التقليدية وفى أساليب انتاج الوسائل الاتصالية خـاصة الوسائل الجماهيـرية الإليكترونية وكذلك الوسـائل المطبوعة ، وبالنسبة للوسائل الإلكترونية يشهد العـالم حالياً العهد الثالث فى مجال الإذاعة ، حيث بدأ العهد الأول بظهور الراديو ، والعهـد الثانى بظهور التليفزيون ونحن حـاليا فى العـهـد الثالث ، عـهـدإلى التليـفزيون الذى يوزع برامـجـه بالأقمـار الصناعية والأنظمة السلكيـة ، فقد شهدت الفترة منذ منتـصف الثمانينات وحتى الآن تطورين مهمين أثرا على البرامج فى الخدمات التليفزيونية الغربية .

التطور الأول : انتشار البث بالأقمار الصناعية البالغة القوة والتى لا تحتاج إلى هوائيات كثيرة وتخضع لسيطرة القطاع الخاص .

أما التطور الثانى : فهو انتشـار أنظمة التليفزيون السلكى التى لم تكن تخضع حتى عام ١٩٩٣ ، لأى تنظيم وتقوم ببث ساعات إرسال طويلة .

والتـغيـيـرات العمـيـقة فى مـجـال البث التليفـزيونى حـدثت نـتيجـة تطور تكنولوچيـا الاتصال وانتـشار البث المبـاشر بالأقـمار الصناعـية وانتـشار أنظـمة

التليفـزيون السلكية « الكابلية » فى الدول المتـقدمة ، والترويج التـجارى المتطور للانتاج التليفزيونى .. ونتـيجة لما سبق تحول الاعلام التليفـزيونى إلى العالمية بعد أن ظل حبيس المحلية طوال حوالى نصف قرن منذ اختراع التليفزيون .. وبالنسبة للتليفزيون هناك تطورات فى نظم الإرسال والاستقبال فبعد ابتكار نظم الارسال السلكى والتليفـزيون متعدد النقـاط ، ونظام الإرسال المباشر من القـمر الصناعى والتليفـزيون منخفض القوة ، ظـهر نظام التليفـزيون عالى الوضوح .. وبالنسـبة لنظم الاستقبال نجد أنه بعد أن تم تطوير التليـفزيون المجسم ، وتليفزيون الشاشة الضخـمة ، والتليفـزيون المصغر ، وتليـفزيون الشاشـة المستقـيمة ، والتليـفزيون الرقمى هناك محاولات لإنتاج التليفزيون ذي الأبعاد الثلاثة ، والتليفزيون المجهز لاستقـبال إرسال الأقمار الصناعـية مباشرة دون الاستـعانة بهوائيات الاستـقبال الخارجية التقليدية. وقد ظهر الجيل الأول منه مـحتويا على جهاز استقبال إرسال الأقمار الصناعـية .. كما أن هناك تجارب نهـائية جهاز تليفـزيون يتضمن داخله جهاز كمبيوتر ، بحيث يمكن استخدامه كجهاز كمبيوتر وجهاز تليفزيون عادى فى الوقت نفسه ، إضافـة إلى قدرته على أن يتحول إلى جهاز تليـفزيون تفاعلى لا يكتفى المشاهد من خـلاله فقط بمشاهده ما يعرضه من برامج بل يـختار هو ما يريد مشاهدته وتقدم له خدمات أخرى غير المشاهدة التليفزيونية المسلية .

ويتوقع خبيـر الاعلام العربى حمدى قنديل أن التليفـزيون بشكله التقليدى ، وكما نعرفه الآن قد يختفى بعد ٢٠ عاما ، ففى تليفزيون المستقبل توضع خريطة البرامج وفق مـا يعتـقد أنه مزاج المشـاهدين ، كمـا أن التكنولوچيات الاتصـالية المستقـبلية تقول إن عصر التليـفزيون الحالى قد أشرف على الانتـهاء وأنه قد بدأ

ذلك بالفعل فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولن يتمكن فيه أحد من القيام بنفسه بتحديد رغبات المشاهدين ، بل إن الرأى سوف يكون للمشاهد ، وسيطلب من مشاهد المستقبل البرنامج الذى يريده فى الوقت الذى يريده ، طبقاً للنظام المعروف باسم المشاهد بالدفع أوتليفزيون الاشتراك أو الدفع مقابل كل برنامج. فالتطورات فى تكنولوچيا المعلومات والاتصال إذن حولت التليفزيون إلى وسيلة عالمية ووسيلة تفاعلية وأداة للتسوق والتعلم والمشاركة السياسية وليس فقط مجرد وسيلة تسلية وترفيه .

وفيما يتعلق بالصحف يتجه تفكير الناشرين الآن إلى عملية استخدام خدمات الاتصال السلكية ،لنقل الأخبار والموضوعات الإعلامية والصحفية ونشرها ، وجعل هذه الجرائد والمجلات أوسع انتشارا عن طريق الوسائط غير الورقية ، والدافع إلى ما سبق يكمن فى ارتفاع أسعار الورق ونفقات الطباعة الباهظة.

وبالنسبة للكتاب وسائر المطبوعات الأخرى غير الدورية نجدها تأخذ الآن أكثر من شكل غير مطبوع ، بدأت بشريط مسموع ، ثم شريط فيديو مسموع مرئى ، وديسك حاسب إليكترونى. وفى عام ١٩٩٣ بدأ صدور الكتب وبعض المطبوعات الأخرى غير الدورية مثل دوائر المعارف والموسوعات والقواميس فى شكل اسطوانة مدمجة ، وهناك أيضا ما يطلق عليه النشر الشبكى الذى يستخدم شبكات المعلومات وبنوكها فى نشر الكتب والدوريات العامة والمتخصصة - خاصة الدوريات العلمية - وفى توزيعها للمشتركين عبر منافذ خاصة بكل مشترك بحيث تصل المعلومات مباشرة الى المشترك فى الشبكة عبر النهاية

الطرفية للحاسب الاليكترونى الخاص به فى منزله أو مكتبه .

وعلى الرغم من أن الوسـائل الاتصاليـة التى أفرزتها الـتكنولوچيا الاتصـالية الراهنة تكاد تتـشابه فـى عديد من السـمات مع الوسـائل التـقليدية ، فـإن هناك سمـات مميزة للتكنولوچيـا الاتصالية الراهنـة بأشكالها المختلفـة مما يلقى بظلاله ويفرض تأثيراته عـلى الوسائل الجديدة ويؤدى إلى تأثيرات معـينة على الاتصال الانسـانى. وأبرز هذه السمـات التى تتصف بهـا التكنولوچيـا الاتصاليـة الراهنة هى:

١ ـ **التفاعلية :** وتطلق هذه السمة على الدرجة التى يكون فيـها للمشاركين فى عـمليـة الاتصـال تأثيـر على الأدوار والأفـعال الاتصـاليـة، حـيث يسـتطيع الشـخص (أ) أن يأخذ مـوقع الشخص (ب) ويقـوم بأفعـاله الاتصاليـة. المرسل يستقبل ويرسل فى الوقت نفسه ، وكـذلك المستقبل. وبذلك تدخل مصطلحات جديدة فى عملية الاتصال مثل الممارسـة الثنائية ، التبادل ، التحكم ، المشاركين ، ومثال على ذلك التفاعلية فى بعض أنظمة النصوص المتلفزة.

٢ ـ **اللاجماهيرية :** وتعنى أن الرسالة الاتـصالية من الممكن أن تتـوجه إلى فرد واحد أو إلى جماعة معينة ، وليس إلى جماهير ضخمة كما كان فى الماضى، وتعنى أيضا درجة تحكم فى نظام الاتصال بحـيث تصل الرسالة مباشرة من منتج الرسالة إلى مستهلكها .

٣ ـ **اللاتزامنية :** وتعنى إمكانية إرسال الرسائل واستقبالها فى وقت مناسب للفرد المسـتخدم ولا تتطلب من كل المشـاركين أن يستخـدموا النظام فى الوقت نفسه ، فمثلا فى نظم البريد الإليكتـرونى ترسل الرسالة مباشرة من منتج الرسالة

إلى مستقبلها فى أى وقت

دونما حاجة لوجود المستقبل للرسالة .

٤ ـ **قابلية التحرك أو الحركية :** فهناك وسائل اتصالية كثيرة يمكن لمستخدمها الاستفادة منها فى الاتصال من أى مكان إلى آخر أثناء حركته مثل التليفون النقال ، تليفون السيارة أو الطائرة ، التليفون المدمج فى ساعة اليد ، وهناك آلة لتصوير المستندات وزنها عدة جرامات ، وجهاز فيديو يوضع فى الجيب ، وجهاز فاكسيميل يوضع فى السيارة ، وحاسب آلى نقال مزود بطابعة .

٥ ـ **قابلية التحويل :** وهى قدرة وسائل الاتصال على نقل المعلومات من وسيط لآخر ، كالتقنيات التى يمكنها تحويل الرسالة المسموعة إلى رسالة مطبوعة وبالعكس ، وهى فى طريقها لتحقيق نظام للترجمة الآلية ظهرت مقدماته فى نظام مينيتيل الفرنسى .

٦ ـ **قابلية التوصيل :** وتعنى إمكانية توصيل الأجهزة الاتصالية بتنويعة كبرى من أجهزة أخرى بغض النظر عن الشركة الصانعة لها أو البلد الذى تم فيه الصنع .

٧ ـ **الشيوع أو الانتشار :** ويعنى به الانتشار المنهجى لنظام وسائل الاتصال حول العالم وفى داخل كل طبقة من طبقات المجتمع ، وكل وسيلة تظهر تبدو فى البداية على أنها ترف ثم تتحول إلى ضرورة. نلمح ذلك فى التليفون ، وبعده الفاكسيميل ، وكلما زاد عدد الأجهزة المستخدمة زادت قيمة النظام لكل

الأطراف المعنيـة. وفى رأى " ألفن توفلر" أنه من المصلحة القـوية للأثرياء أن يجدوا طرقـا لتوسيـع النظام الجديد للاتصال ليـشمل ، لا ليـقصى ، من هم أقل ثراءً حـيث يدعمـون بطريقة غـير مـباشرة الخـدمة المقـدمة لغـير القـادرين على تكاليفها .

٨ـ **التدويل أو الكوكبية :** البيئة الأساسيـة الجديدة لوسائل الاتصال هى بيئة علمية دوليـة ، وذلك حتى تستطيع المعلومة أن تتبع المسارات المعـقدة التى يتدفق عليها رأس المال إليكتـرونياً عبر الحدود الدولية جيـئة وذهابًا من أقصى مكان فى الأرض إلى أدناه فى أجـزاء على الألف من الثانـية ، إلى جـانب تتبـعهـا مسـار الأحداث الدولية فى أى مكان فى العالم.

لإنتاجالبحث عن مكان فى العالم .

إن الأخبـار كأبرز محـتويات وسائل الاتصـال قد استـفادت بشكل كبـير من التطورات الراهنة فى تكنولوچيـا الاتصال، مما أدى إلى زيادة فاعليـة أداء وسائل الاتصـال لمهـامهـا الإخـباريـة على الصـعيـدين المحلى والدولى. وتتـمـثل أبرز مجالات الاسـتفادة الاخبـارية من تكنولوچيا الاتصال فى توسيع نطاق الـتغطية الإخبارية جغرافياً من خلال بث وقـائع الحدث الإخبارى على الهواء خلال فترة لا تتـجاوز دقـائق من تواجـد المندوبين فى مـوقع الحدث سـواء داخل الدولة أو خارجها. ولعل تغطية شبكة الـ C.N.N الأمريكية لأحداث مثل حرب الخليج، واعـتصـام روتسكوى وحسب اللاتوف فـى الكرملين وما تلا ذلك من أحـداث لخـير دليل عـلى ذلك الاتساع .. وقـد تحـسن الأداء المهنى للوظيـفـة الاخبـارية

لوسائل الاتصال ، من خلال ابتكار نظم لحفظ المعلومات واسترجاعها داخل البلد الواحد وخارجه من خلال توظيف بنوك المعلومات وشبكاتها ، وكذلك ابتدعت أدوات ونظم لتسريع عملية الحصول على المعلومات وتوصيلها إلى مقر الصحيفة .. وتم استحداث وسائل وقنوات اخبارية جديدة تماما ومختلفة عن الوسائل والقنوات التقليدية مثل الصحف الإلكترونية.

وتأسيساً على ما سبق يمكن القول إن أبرز آثار التكنولوچيا الاتصالية الراهنة تبدو فى عملية التغطية الاخبارية، فقد ألغت التكنولوچيا الاتصالية الحديثة الفواصل الدقيقة بين المراحل الثلاث لنشر الخبر وهى : مرحلة اندلاع الخبر ومرحلة بث الخبر ومرحلة التشبع الإخبارى. وقد تم ذلك من خلال عملية تغطية الأخبار فور وقوعها بتوظيف نمطين مستحدثين من الأساليب الفنية فى التغطية الإخبارية التليفزيونية : النمط الأول هو التغطية الإخبارية الإليكترونية بواسطة توظيف الكاميرات التليفزيونية الإليكترونية المحمولة فى موقع الحدث سواء أكانت تلك الكاميرات تنقل نقلا حياً مباشراً على الهواء، أو ليذاع بعد فترة ، وهناك أيضاً التغطية الإخبارية بواسطة القمر الصناعى من خلال الكاميرات التليفزيونية الإلكترونية

المحمولة فى موقع الحدث والتى يتم بث منتجها مباشرة - أيضاً - إلى محطة الإرسال القومية أو إلى المقر الرئيسى للمحطة التليفزيونية الدولية عبر القمر الصناعى، ثم عملية البث المباشر من المحطة فى الوقت نفسه أو بعد فترة .

وقد أدت الأسباب السابقة إلى جعل تعريف الخبر الآن وخاصة بعد ظهور

شبكة الـ CNN الأمريكـية التى يغطى ارسـالها أكثـر من ١٥٠ دولة ، أنه - أى الخبـر - هو ذلك الحدث الذى نشـاهده وهو يقع .. وأصبح من الصـعوبة بمكان التـفرقـة بين مـا هو إعلام وطنى ومـا هو إعـلام دولى ، فالإعـلام الوطنى الذى ينتجـه مجتمع مـا لمواطنيه ، قد أصبـح له ـ بشكل من الأشكال مقصودا أو غـير مقـصود ـ بعـدا دولى ، فالبـرامج التى تبثـها مـحطات التليفـزيون فى الولايات المتحـدة الأمريكية والاتحاد السـوفييتى وكندا واليـابان ودول غرب أوروبا والتى أعدت من الاساس لجمـهورها المحلى ، أصبحت تشاهد عبر الأقـمار الصناعية فى أنحاء متـفرقة من العالم ، وقد اكـتسبت بذلك بعداً دوليـا لم تسع إليه أصلا ولكن تطور تكنولوچيـا الاتصال جعـل ذلك ممكنا ، كذلك فإن بـرامج محطات الراديو الوطنيـة فى مـعظم دول العـالم، أصبـحت تسـمع فى أمـاكن أبعـد من حـدودها الجغـرافيـة ، بفضـل تطوير إمكانات الموجـات المتوسطة والقـصيـرة ، وبرامج هذه المحطات - بخـلاف الاذاعـات الموجـهـة - تستـهـدف فى الأصل المستمع المحلى ، ولكن التطور التكنولوچى أضاف اليها بدرجة ما بعداً دولياً .

والظاهرة نفسـها تنسحب أيضا على الصـحف سواء منها الجرائد اليـومية أو المجلات الأسـبوعـية أو الشـهرية فـإن التقـدم الكبيـر فى وسائل المواصـلات قد اختصر الكثير من الوقت والجهد والمال اللازمين للتوزيع خارج الحدود الوطنية ، وقد شجع هذا التطور العديد من الصحف المحلية ، وخاصة التى تصدر باللغات الأكثر تداولاً فى العـالم ، على وجود الأسواق العالمية. أمـا الصحف الدولية من الأصل فقد زادت فعاليـتها واتسع مجال انتشارها، ووصلت رسائـلها ونسخها

إلى أماكن لم تصل اليها من قبل بفضل تطور تكنولوچيا الاتصال .. لكن هل عولمة الاتصالات الاليكترونية تجعل المواطنين أكثر درايةبمشاكل العالم ، وبالتالى تمكنهم من إيجاد حلول لهذه المشاكل ؟

إن هذا الأمر صحيح بالنسبة للولايات المتحدة والدول الصناعية المتقدمة خاصة فى أوروبا ، فلا شك أن التقدم التكنولوچى المتلاحق قد غير مسار الانتاج، وزيادة تدفق المعلومات قد أصبح من الصعب مقاومته مهما بلغت قوة الدولة لإحتواء هذه المعلومات ومصادرتها .. ولا يجب أن نصدق الدعاية التى تؤكد على أن كل سكان العالم يمكنهم أن يستقبلوا المعلومات من خلال الشبكات العالمية. هذه الدعاية ليست صحيحة وربما لن تكون ، وذلك يرجع إلى أن شبكة CNN تصل إلى٢٠٪ من سكان العالم ، أى أن أربعة أخماس العالم ليس لديهم وقت أو إمكانات لاستقبال الشبكة. وربما تزداد نسبة الذين يمكنهم الاتصال بشبكات المعلومات الإلكترونية من خلال أجهزة الكمبيوتر إلى ستة بلايين نسمة حتى القرن الحادى والعشرين .. وهناك مناطق وأماكن عديدة فى العالم من الصعب الحصول على معلومات عنهم بسبب السياسات الديكتاتورية فى هذه البلاد ، فى أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط حيث يصعب الحصول على معلومات أو أخبار تفصيلية خاصة الأخبار الدولية .. ومع ذلك هبط الاعلام المطبوع بسبب ظهور الاعلام المرئى من خلال أجهزة التليفزيون التى أصبحت الوسيلة المفضلة لدى كثير من الناس للحصول على المعلومات ، فعدد الجرائد اليومية المتداولة فى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٦٥ حتى ١٩٩٥ ظل كما هو

٥٩ مليـون نسخـة بينما زاد عـدد سكان الولايات المتـحدة من ١٨٥ مليـونا إلى ٢٦٠ مليـون نسمـة وهذه الملحوظة تعنى أن هناك هبـوطاً أو انخـفاضاً فـى عدد القراء يصل إلى نحو ثلث القراء ، كما أن الهبوط سوف يستمر مادامت أن نسبة قراء الجرائـد ضعيفة جـداً، خاصة بين من تقل أعـمارهم عن ٣٥ سنة ومن تزيد أعمارهم علي ٦٥ سنة. أمـا بالنسبة للمادة الإخبـارية ومحتوياتها ، فـإن التحول من الكلمة المكتوبة أو المطبوعة إلى الكلمة المرئية قد أصبح ظاهرة أكبر من كونها مجرد تغير فى وسيلة الاتصال ، فكلنا يعلم أن التليفزيون قد أحدث تغيراً جذرياً فى طريقة تفاعلنا مع الأحداث لأن السياسيـين والدبلوماسيين قد أدركو اسريعا أن التليفزيون أكثر تلامسا مع المشاعر والأحاسيس،

ولذلك أصبح له تأثير فعال على صناعة السياسة الخارجية أكثر من أية وسيلة إعلام أخرى. على سبيل المثال بعد التـدخل العسكرى فى حرب فيتنام أصبحت السيـاسة الخـارجية الأمـريكية حـذرة من أن تتورط فى أى تدخل عـسكرى بعد الهجوم الـشرس من الرأى العام الأمريكى على الادارة الأمـريكية فى واشنطن ، لذلك نجـد أن الرئيس بوش أخر العـمليات العـسكرية على العـراق عام ١٩٩١ خشـية تصاعـد سخط الشعب الأمـريكى إذا ما تورط أكثـر من اللازم فى حرب الخليج.

وفى الصـومال فـإن الصور والأفـلام التى يبـثهـا الاعلام المرئى عن الأطفـال الرضع الذين كانوا يتضورون جوعا وهم يرضعون من صدور أمهاتهم الجافة قد جعلت الادارة الأمـريكية تحصـر مهمة الـقوات العسكرية الأمـريكية المرسلة من

قبل الأمم المتحدة فى حفظ السلام واسترجاع الأمل ومعونة المنكوبين فى الصومال بدلاً من التدخل العسكرى المباشر .

التلفزة الأمريكية

وتعتمد الإدارة الأمريكية على إحداث الصدمة الاعلامية فى الرأى العام الأمريكى عندما تجد نفسها مضطرة إلى تدخل عسكرى خارجى أو إلى ممارسة ضغوط سياسية مكثفة على دولة أو شعب آخر فى مكان ما من العالم. فأمام أزمة التدخل فى حرب الخليج الثانية ركزت إدارة الرئيس بوش حملة إعلامية مكثفة ومضخمة لتحريك الرأى العام الأمريكى لكسب دعمه وتأييده ، وأعيد استخدام الصدمة الاعلامية الأمريكية لتغطية التدخل العسكرى الأمريكى فى الصومال تحت ستار المساعدات الانسانية ، ومؤخراً فى التدخل العسكرى فى هاييتى تحت عنوان إعادة الديموقراطية .

والاعتماد على الصورة فى التلفزة الأمريكية لإحداث الصدمة الاعلامية المحركة يدخل فى إطار السياسة العامة لتجييش الرأى العام، وهذا الأمر يظهر بوضوح وصراحة من خلال تصريح أنطونى لايك المستشار السابق للرئيس كلينتون لشئون الأمن القومى لصحيفة وول ستريت جورنال فى أول نوفمبر ١٩٩٣، حيث قال : إذا كنا لا نملك القدرة على تأمينالصور بسرعة فلن نستطيع أن نشرح للكونجرس وللشعب الأمريكي أين هى مصالحنا ومهماتنا ، وعندها سوف نعجز عن السيطرة على الوضع ... هذا الأسلوب الإعلامى فى الإثارة والتدجين فى آن واحد يخدم المصالح الحيوية لرجال الأعمال والشركات

العملاقـة، بينما الشعب الأمريكى لا يـكترث بالسياسة أو بما يجـرى فى العالم لأنه مجتـمع قروى تغلب عليه الانطوائية، ولا يهتم إلا بشـؤونه الذاتية ولا يعنيه ما يجرى بالقرب منـه. ثم أنه شعب مبرمج على عادات وتقاليـد معينة « الشراء بالبطاقــة أوالمراسلة والتـأمـين علـى كل شيء » منهـمك فى عـمـله ، يجـد فى اعلانات التلفـزة كل ما يحتـاجه .. وبالتالى فـهو شعب غيـر مسيس، فـالحزبان المتنافـسان الديمـوقراطى والجـمهـورى ليسـا حزبين عـقائديين بمقـدار ما هـما مؤسـستان تابعـتان لرجـال الأعمال، يتـبادل النفوذ عليـهما المـؤسسة الصناعـية العسكـرية - والشركات مـتعـددة الجنسيـة ، لذلك نجد أن الإعـلام الأمريكى لا يتـحـرك إلا حيـال الأحـداث الكبـرى ، عندها فـقط تتـحـرك فـرق المحقـقـين والمصورين نحـو موقع الحدث. فـهذا الاعلام لا يمـلك محطات فى إفريقـيا أو الشـرق الأوسط أو أوروبا إنما يمـتلك مـحطة فى مـوسكو لأسبـاب سـيـاسيـة ومعلوماتية، وتقوم محطة موسكو بتغطية أحداث أوروبا عند الضرورة الملحة .

ومما لا شك فيه أن الصورة التليفزيونية سـريعة الوصول إلى المهتم بها كما أن المطبوعة تلعب دورها وتثير القارىء ، لأن كلا منهما تمثل الحقيقة لقارئها بالرغم من أن عمليـة الإثارة قائمة وموجـودة عند مختلف الشـعوب والأمم وليس عند الشعب الأمريكى فقط ، لكن لكل نظرته وفلسفته فى عملية الاثارة .

ومن نـاحـية ثانيـة اقتـدى الإعـلام الأوروبى بخطوات الإعلام الأمـريكى فى تنظيم استـطلاعات الرأى ، لكنه ما زال مـحصوراً فـى دوائر محدودة ، كـما أن حالة الإثارة عند الأوروبيين غـيرها عند الامريكيين بفعل أن الصدمـة الاعلامية

عند الأوروبى والشعوب الأخـرى تظل بدورها محدودة بفعل عـدم اهتمام هذه الشعوب بالسياسة الخارجية.

إن السيطـرة والتحكم فى مقـدرات العالم اسـتنادا إلى الرأسمـالة الليبـرالية الأمريكية

ستواجه صعوبات جمة قد تؤدى فى النهاية إلى انفجار الفقراء .. ظهرت فى الخمـسينات فرضـية رئيـسية هى أن وسـائل الاعلام قادرة علـى تغييـر اتجاهات وسلوك الأفـراد على المستـويين المادى والنفـسى ، إذ تقود الإنسـان إلى أن يرى نفسـه فى مواقف الآخريـن. بعبارة أبسط عندمـا يشاهد مواطـن فقيـر يعيش فى إفريقيـا ما يقدمه التليفزيون من نماذج للحـياة الحديثة الرغدة ، فإنه سـيسعى الى تغيير ظروف حـياته حتى يصبح فى مستوى مـا يشاهده ! وأدت ظاهرة التقمص الوجدانى عـلاوة على ثورة التطلعات إلى إطلاق غـول التقليد الأعـمى لنماذج الحياة الغربية المنتشرة فى وسـائل الاعلام والتنافس للوصول اليها، كما أدت إلى مشكلات اجـتمـاعية وثقـافية هائلة. فـنماذج الحيـاة الغربية التـى تقدمهـا أفلام هوليود أو المسلسلات الامريكية لا تعكس واقع الحياة فى المجتمع الأمريكى ، بل تقـدم الجانب المشـرق والبـراق فقط، مما يـخلق لدى الجمـاهيـر خاصـة فى دول الجنوب ، وعياً زائفاً بالحياة الامريكية، ويدفـعها لتقليد شيء غير واقعى ، أقرب الى الحلم. ولأن هذا الحـلم لا يتـحـقق ، ولن يـتـحـقق فى ضـوء الإمـكانيـات المحـدودة لأغلبيـة المواطنين فى دول الجنوب ، فـإن مـشاعـر الإحـباط واليـأس ستـتملك الأغلبيـة ،وربما قد ينصرف بعـضهم إلى الجريمـة أو الوقوع فى براثن

المرض النفسى ، لتعويض الفجوة بين الواقع المعاش والحلم الجميل المقدم فى الأفلام والمسلسلات والاعلانات الغربية.

وكما هو معروف فإن شبكات التليفزيون الدولية والشركات متعددة الجنسية تسعى بالدرجة الأولى للربح ، ولا تراعى اعتبارات التنمية فى دول الجنوب ، كما تقدم مضموناً لا يتفق واحتياجات دول الجنوب ولا يحترم خصوصياتها الثقافية .. إن ما يقدم فى الشبكات الدولية يستهدف بالأساس تدويل الاقتصاد والاستهلاك وفقا لنماذج الحياة الغربية بغض النظر عن بؤس الحياة فى دول الجنوب . كما يستهدف الوصول للفرد فى عالم الشمال والذى يزيد دخله السنوى على ١٢ ألف دولار ، بينما لا يزيد الدخل السنوى للفرد فى عالم الجنوب على ٣٠٠ دولار فى المتوسط. علينا أن نتخيل مدى الحسرة والألم التى تتولد لدى الفرد فى عالم الجنوب عندما يشاهد الإعلانات والمسلسلات التى تبثها المحطاتالفضائية التى تستهدف أساسا الفرد فى دول الشمال .

ومن المهم أن نتوقف قليلا عند امبراطورية الاعلان التى تتحكم فى إنتاج كثير من برامج المحطات الفضائية ، كما تسيطر على أولويات تلك المحطات. تقترح الإعلانات أساليب معيشية على أفراد يربط بينها ما يسمى بأيديولوچية الاستهلاك ، وتشجع هذه الأيديولوچية قيماً ومعايير وموضوعات أساسية. والإعلانات كما يراها البعض هى دعوة خيالية إلى سعادة مؤقتة واستهلاكية قد تجعل الأفراد ينسون ظروفهم المعيشية الصعبة .. ويشجع الإعلان على الإسراف من خلال خلق احتياجات غير واقعية، أو ما أطلق عليه عالم الاقتصاد

"جالبـريث" إنتاج الطلب بواسطة الإعـلان الذى يخلق احتـياجات مـصطنعة .. ورغم هذه الانتـقـادات إلا ان هناك من يـدافع بقـوة عن الإعـلانات ويرى أنهـا ضرورية لتسيير عجلة الاقتصاد ، ودعم وسائل الإعلام.

وحـسب الإحصـائيـات الصادرة عن منظمـات دوليـة من عام ١٩٩٤ حـتى ٢٠٠٨ فـإن الإنفاق الإعـلانى فى الولايات المتـحدة الأمـريكية يسـاوى نصف الإنفاق الإعلانى فى العالم كله .. ومثل هذه الأرقام والمصالح المرتبطة بها يكون من الصـعب تصور اخـتفـاء الإعلان أو الحـد من انتشـاره لكن ما يهـمنا هنا هو الاهتمـام بدراسة الآثار المخـتلفة للإعـلانات، خاصـة الإعلانات الأجنبـية على جهود التنمية فى دول الجنوب ، وعلى خصوصيتها الثقافية .

التبعية الإعلامية :

والواقع أن أزمة الاعلام التنموى جاءت كانعكاس لأوضاع التـبعية الإعلامية التى عـانت منهـا ـ وماتزال ـ دول الجنـوب. فالدول الصناعـيـة المتقـدمـة تمتلك تكنولوچيـا إنتـاج وتطوير وسـائل الإعـلام والاتصال ، وتمتلـك أيضا وكـالات الأنبـاء الكبرى والصـحف والمجـلات الدولية ،وشـبكات الاذاعـة والتليفـزيون الفضـائية ، وتقوم بانتاج أكـثر من٩٠ % من برامج التليـفزيون وأفلام السـينما. ومثل هذه الأوضاع تمكن دول الشمال من السيطرة والهيمنة الإعلامية ، وبالتالى الحد من قـدرة الإعلام الوطنى فى دول الجنوب على تقـديم برامج ذات أهداف تنموية. وحتى إذا نجـح الإعلام الوطنى فى تقديم بعض البرامج التنمـوية فإن ما يتعرض له الجمهور من برامج دولية يقلص من تأثير برامج الاعلام الوطنى.

لقد أفضت أوضاع هذه التبعية الاعلامية إلى ظهور مصطلح الإمبريالية الإعلامية ، أو الثقافية، وكذلك مصطلح الاستعمار الإلكترونى. ويشير المصطلح الأول إلى جميع العمليات التى تستخدم لإدخال مجتمع ما إلى النظام العالمى الحديث ، أما مصطلح الاستعمار الإلكترونى فيشير إلى علاقة التبعية التى تأسست باستيراد المعدات الاتصالية ، والمنتجات الأجنبية وحضر معها المهندسون والفنيون الأجانب. أدى هذا إلى وجود وتأسيس مجموعة من المعايير والتوقعات الأجنبية ، وقد تعمل بدرجات مختلفة على تغيير الثقافات المحلية وعمليات التنشئة، وقد نبه كثير من العلماء والباحثين إلى خطورة استمرار أوضاع التبعية الإعلامية والاستعمار الإلكترونى ومخاطرها على جهود التنمية فى دول الجنوب. وفى هذا السياق برزت بقوة خلال السبعينات الدعوة لإعادة النظر فى مقولة التداول الحر للمعلومات ، وما أسفر عنها من تبعية ثقافية ، وخلل واضح فى تدفق المعلومات بين الشمال والجنوب ، وطرحت بقوة فكرة إقامة نظام إعلامى جديد يضمن التوازن فى تدفق المعلومات واحترام الخصوصيات الثقافية والأولويات الاقتصادية والتنموية لدول الجنوب .. لكن الدول الكبرى بقيادة الولايات المتحدة عرقلت ظهور النظام الإعلامى الجديد ، ومع التحولات فى النظام الدولى تراجعت الدعوة لنظام إعلامى جديد ، بل وتلاشت وعادت من جديد وبقوة مقولة حرية تدفق المعلومات .

ومن الصحيح القول بأن العالم أصبح قرية واحدة من ناحية سرعة معرفة وتداول الأخبار والمعلومات ، غير أن هذه القرية تخضع لهيمنة ونفوذ دول

الشمال والشركات متعددة الجنسية ، التى لا تهتم بأوضاع ومشكلات التنمية فى دول الجنوب ، وتسعى من خلال ما تقدمه من مـضمون إلى نشر وترويج اقتصاد السوق ونموذج الحـياة والثقـافة الغربيـة. من هنا يمكن القول إن أوضـاع التبعـية الإعـلاميـة وعدم التـوازن قـد ازدادت لصالح دول الشـمـال، خاصـة الولايات المتحـدة ، ومثل هذه الأوضـاع تطرح أكثر من سـؤال حول امكانيـات التغيـير ، ووسائل وأسـاليب العمل التى يـمكن اتباعهـا لدعم وتطوير الإعلام الـتنموى ، والحد من مظاهر التبعية والاستعمار الإعلامى.

الفصل الخامس :

عولمة الاقتصاد

المعلوماتية تحدث الانشقاق فى العالم

من المؤكد أن العولمة بدون الاتجاه إلى السوق التجارية الحرة في المبادلات والاستثمار والخدمات تصبح مجرد نزعة خيالية .. إنها فى الأساس اتجاه اقتصادى ينزع لتحويل العالم إلى سوق واسعة للمبادلات، وصغيرة أو محدودة فى المسافات، وبدون عوائق من قوانين حمائية أو أفكار أو ثقافات قومية، وخاصة أنها شراكة واحدة وسوق واحدة تقسم فيها الأدوار بين الكبار والصغار ،الأغنياء والفقراء ، أصحاب المليارات والذين لا يملكون إلا قوت يومهم، الكل مدفوع للتوحد والتبادل والمنفعة التى تختلف غنائمها ومغارمها وتتفاوت حسب مراكز وقوة الشركاء وقدراتهم .

وقد يختلف الباحثون فى تحديد بدايات أو أولويات العلاقة بين العولمة والاقتصاد .. إقتصاد العولمة، أو عولمة الاقتصاد نزعتان متضادتان للتغيرات التى شهدتها السنوات العشر الأخيرة بين من يرى أن التغيرات التى حدثت فى تكنولوجيا المعلومات انعكست فى التطورات الاقتصادية على المستوى العالمى، ومن يرى أن العولمة فى جوهرها هى استجابة لتغيرات اقتصادية عميقة كانت بدايتها منذ الخمسينات مع نشأة وتطور وتضخم دور الشركات المتعددة

الجنسيات التى كانت بدورها السباقة إلى امتلاك واستخدام التطورات والاكتشافات العلمية لثورة المعلومات فى تطوير أساليب عملها وتوسيع نطاقه ومده عبر الكرة الأرضية .. وفى النهاية كان اتجاه حركة العولمة يعبر عنه فى شكل اقتصادى.. ومن

خلال أبنية ونسق اقتصادية ، تسعى للتعامل مع " السوق " ليس بمعناه القومى ولكن بالمعنى العالمى .. فالعالم كله ، شرقه وغربه شماله وجنوبه هو سوق عالمية واحدة تتبادل فى حرية السلع وتتنقل خلاله العمالة والاستثمارات الضخمة التى تتحكم فى انتقالها وتوطنها معايير ومحددات عالمية ، وبمصالح قد تتعارض جزئياً أو كلياً مع المصالح القومية الضيقة والمحدودة والقاصرة عن فهم واستيعاب تلك القوانين الغامضة التى تهب الثروة أو تنتزعها من هذا الجزء أو ذاك البلد وتهبها لبلد آخر وهكذا فى حركة وصيرورة مستمرة . فهل كان الصراع الدائر بين "مهاتير محمد" عبقرى النهضة الماليزية المعاصرة ورجل الأعمال اليهودى "سوار دس " غير صورة من صور تجلى تلك القوانين التى هوت بالعملة الماليزية إلى الحضيض ودمرت الاستثمارات الأجنبية. لقد اتهم فيها مهاتير محمد ، رجل الأعمال اليهودى سوار دس بتدمير اقتصاد ماليزيا، ورد عليه الأخير بأنه ، أى مهاتير محمد ، يجهل قواعد اللعبة .. والمشكلة فى علاقة السياسيين بما يجرى الآن من سرعة حركة وتغير وتبدل الأوضاع والعلاقات الاقتصادية ليست قاصرة على ما كان فى تايلاند وماليزيا وأزمة البورصات الآسيوية فقط، إنها مشكلة عالمية فى أمريكا كما فى اليابان وفى

أوروبا كما فى آسيا .

الثورة والصدام :

فى كتابه « التناقض الكونى» يقدم "جـون مياست" عرضاً مشوقاً للـتغييرات الدراميـة التى وقعت على التركيـبة البنيوية للرأسمـاليات الكبرى ، فـيقول : إن العصر الذى نـعيشه يختلف جـذرياً عن العصر الذى عشناه منـذ عشر سنوات . عـصـرنا محكـوم بثلاث منـظومـات: المعلومـات والاتصـالات والجـينات .. المعلومات يجسدها الكومبيوتر والاتصالات تجسدها الأقمار الصناعية والجينات تجسدها علوم الهندسة الوراثية بمعاملها وتطبيقاتها المذهلة . المعلومات والمعارف تكاثرت وتوافرت بمعـدلات مستحـيلة على البشر . فلا أحـد يستطيع أن يلاحق المسـتجـدات على مسـتوى التـخصـص الواحد ، ولا أحـد يستطيع أن يقـيم أو يكتشف

العلاقات بين المستجدات داخل العالم الواحد أو بين العلوم المختلفة .

كائن واحد فقط ابتكره الانسان استطاع ان يقوم بالمستحيل : الكومبيوتر الذى يقرأ ويحفظ ويسترجع وينظم ويعيد بناء المعلومات .. ثورة المعلومات رافـقتها ثورة موازية فى نقل المعلـومات والمعارف ونعنى بهـا ثورة الاتصالات التى تنقل الرسائل فى التو واللحظة، وتثرى الحياة البشرية بمعدلات غير مسبوقة ، وتساعد الإنسـان على اتخاذ قـراره فى الحاضـر والمستـقبل بـكثيـر من اليقـين وقليل من الظنون .. أما الجـينات فقد أحدثت هى الأخـرى ثورة تمتد بآثارها التطبيقـية إلى الأسرة البشرية والكائنات الحية فى كل المواقع والأنحاء .

التحديات والفرص التى جاءت بها الثورات الثلاث استجاب لها الأفراد والمؤسسات الاجتماعية بكفاءة متدنية . على المستوى الأول : تغير الأفراد بدرجات متفاوته تكاد أن تشق المجتمعات الغربية شقا ، وتميز بين فريقين : فريق يتعامل مع الثورات الثلاث ويقبل نتائجها بما فى ذلك الثورة على المؤسسات القائمة التشريعية والسياسية والتنفيذية .. وفريق آخر يقاتل دفاعاً عن القديم تحت مسميات الأصالة والمبادىء الأخلاقية والتراث والدور التاريخى .. ولعل الصدام الواقع داخل الولايات المتحدة يقدم نموذجا بالغ الدلالة فقد صوت الناخب الأمريكى لـ " كلينتون وآل جور " اللذين يعبران بدرجات كبيرة عن الاستجابة العالية للثورات الثلاث " المعلومات والاتصالات والجينات" .. نفس الناخب أعطى صوته لقوى اليمين فى انتخابات الكونجرس وجاء بمن يدافع عن القديم بكل مفرداته. وكان التصويت فى الحالتين تعبيراً عن الانشقاق الاجتماعى بين من يقبل نتائج العصر ومن يرفضها ويقاتل ضدها .

ومن المرجح أن يزداد الانشقاق الأمريكى دون توقف حتى تتآكل قوة الرئاسة ، وتتآكل قوة السلطة التشريعية معا .. وربما يؤدى تآكل القوتين إلى ظهور بديل ثورى قادر على التعامل مع التحديات والفرص التى يطرحها العصر .. الانشقاق الأمريكى يتكرر بأشكال مختلفة داخل الدول الست الأخرى الأعضاء فى مجموعة السبع (الولايات المتحدة الأمريكية، اليابان، بريطانيا، إيطاليا، فرنسا، ألمانيا، كندا) فانجلترا على سبيل المثال تعانى الانشقاق طوليا وعرضيا بين المحافظين والعمال : وبين العمال والعمال، وبين المحافظين والمحافظين ..كذلك

تتجمع قـوى الأزمة فى فرنسا وأبرز مظاهرها تنامى قوة الجـبهة القومية اليـمينية فى مواجهة قوى التجديد . وتتنامى قوى اليمين فى ألمانيا .

أما فى ايطاليا فقـد تفاعلت قوى الـتغيير بسرعـة وأطاحت جمـاعة الأيدى النظيفـة بعناصر النظام القديم ، لكنهـا لم تقدم حتى الآن دستـوراً جديداً وبناء سياسياً وتشريعياً يستطيع أن يتعامل بكفاءة مع الثورات الثلاث . هكذا الأمر فى اليابان التى تعـانى من عدم اسـتقرار سيـاسى أما فى أمـريكا. فعلى سبـيل المثال ولاية ميـتشجن التى شـهدت عام ٢٠٠٩ تراجـعا في مسـتوى دخل مواطنيـها، وكانت بذلك واحدة من بين خمس ولايات اميركية، فيما احتلت

المرتبـة ٣٠ من بين الولايات الخمـسين في مسـتواها الاقـتصادي للـعام ذاته، بحسب تقـرير صدر عن مكتب الاحصـاءات ، وقد تأثرت بالركود الاقتـصادي الطويل، فقد كانت تحـتل المرتبة ١٦ في موقعها الاقتـصادي عام ٢٠٠٠ . ويقول اقتـصاديون إن مستـوى معيـشة المواطنين في الولاية تراجع، عاكـسا بذلك تدني دخولهم، والتي وصل متـوسط انخفاضها عـام ٢٠٠٩ إلى ٢,٥ بالمئة لتصل إلى ٤٨,٥٩١ دولار في مقـابل ٤٩,٨٠٧ دولار للعام الذي سـبقـه، في حين كان مـتـوسط الانخفـاض على المسـتوى القـومي ١,٢ ٪ من ٥٢,٦٧٣ دولار الى ٥٢,٠٢٩ دولار.

وقال دان كرايمز وهو اقـتصادي في جامـعة ميتـشجن: "إن ميتشـجن لحق بها الكثير من الأذى" بحسب رأيه وذلك ليس مفـاجئا، فهي بحاجة لمزيد من الوقت لتتعافى إذ وصل معدل البطالة إلى ١٥%".

ويشار إلى أن ميتشجن كان يعتريها خلل اقتصادي، اذ كان عمال مصانع السيارات يحصلون على مرتبات عالية لا تتوازى مع مستوى الدرجات العلمية التي يحملونها، في حين أن بقية الولايات كان دخل الأفراد فيها متواكبا مع تحصيلهم الأكاديمي، وذلك في المرحلة التي سبقت سنوات الركود الاقتصادي الثمانية الماضية. وبما أن الشركات الثلاثة الكبرى للسيارت تعاني أزمات مالية عصيبة، فقد خسر العمال وظائفهم او انخفضت مرتباتهم.

وعليه فالأسباب وراء معضلة الدخول في ميتشجن تكمن في انهيار صناعة السيارات في الولاية، والآلام التي نجمت عن ذلك على الصناعات المعتمدة على شركات السيارات، أضف إلى ذلك الكساد في البناء والعقارات الذي تشهده الولايات المتحدة بكاملها.

وأظهرت أرقام مكتب الإحصاءات كيف أن الركود لم يعد مقتصرا على ميتشجن وحدها، ففي عام ٢٠٠٧ كانت ميتشجن هي الوحيدة التي شهدت تراجعا في مستوى دخلها، فيما شهدت خمس ولايات فى عام ٢٠٠٩ مثل هذا الانخفاض، اثنتان منها أسوأ من ميتشجن، هما فلوريدا وصلت نسبة تراجع دخلها إلي ٩ ,٣ ٪ وإنديانا ٨ ,٢ ٪.

المصدر :(http://www.arabamericannews.com/Arabic/)

إن هذه المجتمعات المأزومة لا تقدم صانع قرار قوى ، بل تقدم النموذج الوسط على كل المستويات : الرئاسة والبرلمان والسلطة التنفيذية . مثل هذه القيادات قليلة الجهد والفعل على المستوى الوطنى والدولى، لا تشارك فى حسم

المواقف أو المبادرات . إن هذا النموذج من

صناع القرار : أخطر مـا يواجه العـصر. إنه يتـعامل مع التـحولات الدرامـية بمنطق مسطح، مـتردد ، يعانى من الاضطراب وعـدم الاتساق. الأزمات العرقـية فجـرتها ثورات المعلومـات والاتصالات. وان لم يتـعرف المجتـمع الدولى على آليات محـددة للتعامل مع مثل هذه الأزمـات فإنه سيظل عاجزاً عـن التعامل مع الحالات المماثلة فى المستقبل المنظور .. لكن العـجز والتردد أمام الأزمة ما هو إلا تعـبيـر عن غيـاب المنهج الذى يسـتطيع التعـامل مع التـحديات والفـرص التى تفرضـها مرحلة مـا بعد الحرب البـاردة . وغياب المـنهج يعود إلى الانشقـاقات الخطيرة التى تعـانى منها الدول السبـع الكبرى ، وبالتالى تظل الأزمـات تبدأ من الصفر وتنتهى إلى الصـفر .. هل نلوم فى ذلك مؤسسات الديمقـراطية الغربية؟ ربما تكون هذه المؤسسات قـد أصابها العجز والوهن فلم تعـد قادرة على المبادرة والتعـامل مع مستجـدات العصر.. هل نلوم فى ذلك الرأسـماليات الغـربية التى تتعامل مع العصر بمعايير الربحية بغـض النظر عن النتائج الاجتماعية؟ والربحية لا تصلح وحدها معيارا للنجاح فى عصر تتعدد فيه وسائل النجاح، هل نلوم فى ذلك الناخب الغربى الذى أهمل حقـوقه، ولم يعد يهتم بعمليـة التصويت ، ولم يعد يعطى لصوته قيمته الحقيقـية؟ كل هذه الأسئلة مشروعة، وهى سبب ونتيجة فى سياق الأزمات التى نراها ونعايشها فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة .

لا نسـتطيع أن نجزم مـا إذا كانت السنوات الـقليلة القادمـة سوف تؤكـد على إنهاء الأزمة بين القديم والجديد، وإن كـانت خبرات التاريخ ترجح أن النهاية لا

تكون لصالح طرف ضد آخر ، فالقديم يملك القواعد والنظم والأسس الراسخة ،رغم عدم قدرتها على مواكبة التطور، والجديد يملك الأحلام والوعود والخيالات والأوهام دون أن يحدد قواعد وأساليب ، فسوف يتجه القديم إلى محاولة تغيير نفسه كما سوف ينزع الجديد إلى التأقلم ، وإن كان لابد من صراع وضحايا وهذا هو درس التاريخ أيضا .

اقتصاد المعلومات :

بدأت عولمة الاقتصاد من خلال الشركات العملاقة متعددة الجنسيات. ولعبت ثورة المعلومات دوراً هاماً فى الإسراع فى هذه العولمة، يتضح ذلك فى عدد من الحقائق والمتغيرات. لا يمكن إغفال الدور الذى لعبته تكنولوجيا الاتصال والمعلومات عبر التاريخ فى التأثير على المجتمع ، إضافة إلى العلاقة التفاعلية التى زادت وتعقدت بين تكنولوجيا الاتصال والمعلومات من ناحية، وسائر قطاعات المجتمع من ناحية أخرى. ولقد تأكدت هذه العلاقة فى ربع القرن الأخير بعد أن أصبح قطاع الاتصال والمعلومات هو القطاع الاساسى فى المجتمع المعاصر. وأصبح يطلق على المجتمعات المتطورة تكنولوجيا "مجتمعات المعلومات" تمييزا لها عن عصرين أو نمطين سابقين للحياة أو للتطور.. هما نمطا الزراعة والصناعة ، فقد شكلت الاتصالات والمعلومات إذن سمة لمجتمعات ما بعد الصناعة .

ويمكن أيضا أن يفسر هذا الاتساع الدولى للأنشطة المعلوماتية أيضا كجزء من عمليتين مرتبطتين معا وهما عمليتا التخطى التجارى للحدود القومية،

والتخطى المعلوماتى للحدود القومية. والعملية الأولى نجد أساسها ومحورها فى أنشطة الشركات العابرة للقارات أو الشركات متعددة الجنسيات ، بينما العملية الأخيرة تتضمن تحولات جذرية فى وسائل التخزين ، ومعالجة واسترجاع المعلومات ، والنمو السريع لتجهيزات الاتصالات السلكية واللاسلكية (الميكروويف ، ألالياف البصرية وتكنولوجيات الأقمار الصناعية) والبرامج ، والتليفزيون . وظاهرة التخطى المعلوماتى للحدود القومية أو ظاهرة الثقافة عابرة القوميات هى عملية أساسية يحل فيها بدرجات متفاوتة وفى سياقات مختلفة ، تنظيم الشعوب فى مجموعات "أفقية " بدلاً من تنظيمهم رأسيا فى مجموعات وطنية. بمعنى آخر ترتبط الشعوب بعضها ببعض بأساليب إليكترونية وليس بالجوار الجغرافى ، وليس أيضا بالثقافة الوطنية أو القومية .. ويذهب البعض إلى ان ظاهرة التخطى المعلوماتى للحدود أو الثقافة عابرة القوميات هى ظاهرة الأمركة . ويثير امتزاج وتداخل ظاهرتى التخطى التجارى وكذلك التخطى المعلوماتى للحدود القومية تساؤلات محورية وأساسية ومهمة لكل المجتمعات ، بغض النظر عن وضعها الاقتصادى الراهن والمشاكل التى تواجهها أو الضغوط التى تتعرض لها .. وتتصل التساؤلات بعدد من القضايا الأساسية : السيطرة الثقافية ، الإنتاج الثقافى والتوزيع ، النفاذ للمعلومات السياسية والاقتصادية والأخرى ، خلق نظام إعلامى دولى (عالمى) جديد، وتنظيم عمليات تدفق البيانات عبر الحدود والتحكم فيها، وتحديد (تقرير) سياسة الدول فى المجالات الاقتصادية والثقافية والأخرى ، وتنمية طاقة أهلية وطنية (تكنولوجية وإنتاجية

)، وإعادة بناء ما هو وطنى بالمعنى الثقافى والتاريخى وبأى معانٍ أخرى .

وهذه القضايا بالنسبة للعديد من دول العالم الثالث تبدو أكثر ضغطاً والحاحاً بسبب أن الدول فى أفـريقيا وآسيـا والشرق الأوسط معظمـها قد حصل حـديثا على أستقلاله ومازال يعانى من مشاكل التخلف الموروثة منذ العهد الاستعمارى .. وفى إطار ما سبق فإن التوغل

الزائد لرأس المال الدولى فى شكـل الشركـات متـعددة الجـنسيـات التى تمثل التطبـيق العملى لـظاهرة التخطى التـجارى للـحدود القـوميـة المتزاوجـة مع نمو الصناعات الاتصالية والمعلوماتية والتى تجسد على الجانب الآخر ظاهرة التخطى المعلوماتى للحدود القومـية ـ يعنى وببساطة شديدة تعميق الاعتـمادية على الغير أو المزيد من التبـعية التـى تأسست فى عهـود الاستعـمار .. فالشـركات متـعددة الجنسيات أثناء توسعـها على المستوى الدولى بحاجة إلى فـرض نماذج اقتصادية واجتماعـية تشجع على قبول معـايير وقيم ثقافية ملائـمة لإحداث هذا التوسع. يشير " أرجومـيدو " إلى أن الأخبار المتعلقة بالشئون الداخليـة والدولية بالإضافة إلى الأفلام وأشرطة التسجيل والمجلات ومطبوعات المدارس وبرامج التليفزيون وغيـرها، تروج لأنماط من الحيـاة تساعد فى عـملية تحـويل ونقل المعاييـر والقيم المحلية أو الاقليمية لتصبح ذات صفة عالميـة ، هذه العملية يرافقها انتشار وتركيز للمؤسسات الاقتصادية والمالية المهيمنة داخل النظم التابعة .

وتلك التبعـية أو الاعتمـاد المستمر على العالم الخـارجى الصناعى ، حتى اذا كان قـد أتى فى شكل و قناع جديدين، أو جـاء بتعـبير مـختلف فإنه فـى النهاية

سوف يؤدى إلى إمكـانية ظهور بعض الأشكـال المقيدة للنمـو الاقتـصادى، لأن المستـوردين لتكنولوجيات المعلومـات والاتصال المتقدمـة، لن تكون لديهم قدرة حقـيقيـة على المقاومـة وتأسيس مقـياس حقـيقى للسـيطرة على عمليـة الإنتاج الثقافى الخاصة بهم ، التى تشمل تنميـة وسائل الاتصال الجماهيرية . كذلك فإن زيادة أهمية تكنولوجيا الاتصال فى الثمانينات والتـسعينات جاءت نتيجة لأمور تتصل بسمات هذين العقدين أو الاتجـاهات الكبرى التى سادت ومازالت تسود العالم خلالهما ، إضـافة إلى عوامل مجتمعية أخرى .. فقـد شهدت الثمانينات عدة تحولات كبـرى فى العالم عمت معظمها أرجـاء العالم الغربى وأثرت على باقى دول العالم وأبرزها:

- التـحول من المجتـمع الصناعى إلى مـجتـمع مـا بعد الصناعـة (مـجتـمع المعلومـات - التـحول من التكـنولوجيـا البـسيـطة والمحدودة إلى التكـنولوجيـا الأعلى) .

- التحول من الاقتصاد الوطنى المنغلق على نفسه إلى الاقتصاد العالمى .

- التحـول من اهتمامات المدى القـصير إلى اهتـمامات المدى البعـيد ومن ثم أهمية التخطيط الاستراتيجى .

- التحول من النظم المركزية إلى النظم اللامركزية.

- التحول من الاعتـماد على التبعية للمؤسـسات والمنظمات إلى وضع يسود فيه الفرد وتزداد أهمية الاعتماد على الذات.

- التحول من نظم الديمقراطية النيابية إلى نظم ديمقراطيات المشاركة.

- التحول من التنظيمات الهرمية القائمة على السلطة المركزية وفوارق المستويات إلى التنظيمات التداخلية القائمة على التفاعل والتكامل بين عناصر التنظيم.

- التحول من الشمال إلى الجنوب .

- التحول من التـفكير فى البدائل المتعارضة إلى التـفكير فى البدائل المتكاملة والمتداخلة.

كما يحدد نايسبت أيضا تحولات التسعينيات فى المجالات التالية :

- انطلاقة الاقتـصاد العالمى - نهضة الآداب والفنون - ظهور شـراكة السوق الحر - ظهور أنماط حياة متشابهة عالمياً ، مع زيادة الضغط من أجل المحافظة على الثقافـات القومية - انتشار وتعـاظم الاتجاه نحو التخصيص -نهـضة دول الحزام الباسـيفيكى - تزايد دور المرأة فـى القيادة - تزايد أهمـية البيـولوجيا -الصـحوة الدينية - انتصار الإنسان الفرد .

وهذه التحولات وغيرها مرصـودة فى العالم الغربى وتحدث آثاراً فى مختلف جوانب الحياة هـناك ، ولكنها بالدرجة الأولى تحدث تغيرات فكرية مـهمة وتنتج مفاهيم وفلسفـات إدارية جديدة تتناسب مع حركة التحول فى المجـتمع وتساعد على استكمالها وصولا إلى المستقبل .

إضافة لما سبق نجد أنه ليس هناك خلاف بين الباحثين فى مختلف تخصصات العلوم الاجـتـماعـيـة على أن هناك عـالماً جديداً يـتخلق أمـام أنظارنا . ويسـود الإجماع على أن عام ١٩٨٩ كان هو نـقطة الانطلاق التى بدأ فيها تداعى النظام العالمى ثنائى القطبية ، حيث انهار الاتحاد السـوفييتى ، وتفككت الكتلة الشرقية ،

وتوحدت ألمانـيا ، وانتهى عـصر الحـرب الباردة ، وسقطت مـفردات القـاموس القديم. وبالتـدريج بدأت تصاغ مفاهيم ومـصطلحات جديدة ، وأصبح مـفهوم الكوكبيـة هو المصطلح الرمز الذى يشير إلى العالم الجـديد الذى هو بسبيله إلى النشوء والارتقاء .. لقـد أصدرت اللجنة اليابانية لدراسـة النظام الكونى ما بعد الحرب الـباردة عـام ١٩٩٢ كتاباً بالغ الأهميـة بعنوان " إعادة بناء نظام عـالمى جديد : ما بعد إدارة الأزمة " .. واسـتطاعت اللجنة أن ترسم فى تقريرها خريطة واضحة للعالم الجـديد. ويبدو التأثير المتسارع لنهاية حقـبة الحرب الباردة وبداية ظهور العـالم الجديد فى مستـويات عدة على رأسها مـجموعة الدول الصنـاعية السبع المعـروفة بالسـبعة الكبـار .. وهو ما يؤكد عليـه من ملاحظة الفـتور الذى يسود المناقشـات بين زعماء الدول السبع الصناعية الغنيـة والرفض المتزايد لحالة الهيمنة الامريكية على قـرارات تلك الدول ، بمعنى آخر أن هناك تناقضاً حاداً فى المصالح الاقتـصادية بحيث تكون الدول السبع الصناعية على طـريق اضمحلال هذه الكتلة وتفكـكها لأنهـا لم تعـد تلبى مـتطلبـات النظام الدولى الذى تقـوده أمريكا بعد انهيار الاتحاد السوفييتى السابق وسقوطه .

لقد وصل التذمر من الهيمنة الأمريكية على قرارات هذه المجموعة الاقتصادية التى تأسست عام ١٩٧٥ إلى درجـة دفعت رئيس الوزراء الكندى الأسبق بريان مالـرونى إلى القول إن غـياب الحـرب الباردة سـيجـعل القمم الصناعـية المقـبلة تكتـفى بأن يدخل الرئيس الأمريكى غـرفة خـاصة للتأمـل والتفكير ، ثـم يخرج بالتعليمات ويلقيها على مسامـع زعماء الدول الديمقراطية الصناعية ..إذا كانت

هذه هى الروحيــة التى يعبـر عنهــا رئيس وزراء كندا، البلد الـذى يشكل مع الولايات المتحدة أمريكـا الشمالية باعتبارها البلد الجـار، فما بالنا بمواقف الدول التى تحاول أن تنحو اتجاهاً مغايراً فى السياسـة الدولية يتسم بنوع من الاستقلالية مثل ألمانيا وفرنسا واليابان؟!

وحسب الحـقائق فإن هذه المجمـوعة قد تمخـضت عملياً، عن مـثلث تنافسى يضم أوروبا واليـابان وأمريكا حـتى اذا مـا اجتـمعت رؤوسـه من آن لآخر فـإن اجتمـاعاتهم التشاورية التداوليـة قد تنقلب إلى " محاكـمة " غالبا ما تودع فـيها الولايات المتحدة قفص الاتهام انطلاقا من سيـاسة الأنانية التى طالما اتبعتها سواء فيـما يتعلق بأوروبا أو اليابان . . ومع ذلـك ، فإن الدول الصناعية السـبع الكبار تسيطر على مصادر القوة الاقتصادية والسيـاسية والاعلامية فى العالم . ففى عام ١٩٩٠ ، أسـهمت هذه الدول بنحـو ٤٥ % من الإنتـاج العالمـى ، كمـا تمتلك خمس دول منها ٨٦ % من كبريات الشـركات العالمية ، أى أنها تتـحكم تقريبا فى الاقتصاد العالمى ، وفى وتيـرة الازدهار أو الركود فى العالم. ويصل اجمالى ناتجـها القـومى ١٢,٥ تريليـونات دولار حـيث كـانت المؤتمرات الدورية لدول السبع الكبار ينظرإليها فى السبعـينات على أنها آلية لتنظيم وضمان هيمنة الدول الرأسمـالية الصناعيـة على الاقتـصاد العالمى. ومع انتـهاء الحرب البـاردة تحدث بعض الخبراء عن قمة السبع الكبار كمنافس وبديل عن مجلس الامن .

وربما كان السبب الأول وراء تدهور أهمية قمة السبع الكبار هو انتهاء الحرب الباردة ، واخـتفاء صورة العـدو الشيوعى الذى كـان يهدد دول الاقتصـاد الحر ،

وتفكك المعسكر الشيوعى وتحول دوله إلى الطريق الرأسمالى .. ومع اختفاء العدو طغت المشكلات التجارية بين الدول السبع واقتربت من حد الإعلان عن حرب تجارية على نحو ما حدث بين اليابان والولايات المتحدة ، كما تعثرت جهود المسئولين فى الدول الصناعية للتوصل إلى اتفاقيات بشأن سعر الدولار وإعادة النظر فى اتفاقية « بريتون وودز» ووسائل مواجهة شبح الركود والبطالة .. جيفرى جارتن مساعد وزير التجارة الخارجية الأمريكى الأسبق اعترف بهذا التراجع ، وقال انه اذا طلب منه فى بداية القرن الحادى والعشرين اعادة تشكيل نادى الدول الصناعية فانه سوف يختار اعضاءه وفق الترتيب التالى : الولايات المتحدة أولا ، وألمانيا ثانيا ، واليابان ثالثا ، والصين رابعا ، والهند خامسا ، والبرازيل سادسا . ويستبعد ترتيب المسئول الأمريكى كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وكندا، حيث تشكو ايطاليا من عجز فى ميزانياتها المالية للعالم الحالى بلغ ٩,١% من إجمالى ناتجها المحلى ، وفرنسا ٥% وبريطانيا ٤,٧%. لذلك فقد اتخذت هذه الدول مجموعة من الإجراءات لخفض العجز فى ميزانياتها كالحد من الانفاق الحكومى والاستغناء عن ٤٥ ألف موظف حكومى والاستمرار فى خصخصة مؤسسات القطاع العام ، وتخفيض المساعدات الخارجية بنسبة ٢٠% خلال السنوات القادمة .. ويمكن القول إن قمة الدول الصناعية السبع هى أحد هياكل ومؤسسات الحرب الباردة ، وبالتالى فإنها تواجه تحدى التكيف مع أوضاع ما بعد الحرب الباردة .

المكان والاقتصاد

إذا قيل إن المسافات تذوب فى عصر طفرة الاتصال والمعلومات، فإن قولاً كهذا ليس له معنى مقبول ، إلا إذا اعتمدنا على عامل التغيير فى المسافة الذى يمكن أن يؤخذ وكأنهركيزة أساسية فى زحف العولمة .. ومع ذلك فإن " المكان " يظل محتفظا بأهميته فى نطاق العولمة ، الأمر الذى يبدو مستغرباً فى طفرة المعلومات وتزايد السرعة فى نقل النبأ ، أو حتى المادة . إن قيمة المكان لا تنضب ولا تنتهى اقتصادياً أو سياسياً أو حتى رمزياً ، ولا مانع من القول إن بعض الأماكن ستتجاوز قيمتها الإقليمية لتصبح عالمية من خلال صعود " مزايا المصلحة " المقارنة.. بيد أن ما يجب التنبيه إليه هو أن الحواجز الطبيعية يمكن أن تلعب دورها فى المنعة أكثر من الماضى ، فعلى سبيل المثال إن مد خط حديدى سريع أو مد طريق عريض فى منطقة جبلية وعرة تزيد تكاليفه بعشرات المرات أو حتى بمئات المرات بالمقارنة مع تكلفته قبل قرن من الزمن .

بعض الشبكات قد تبقى إقليمية أو حتى وطنية كالكهرباء والماء، إلا أن شبكات من نوع آخر لابد أن تخرج من هذا النطاق كالنقل البرى أو النهرى أو البحرى أو الجوى أو حتى نقل البترول والغاز ، وشبكات توليد الكهرباء على المستوى القارى أو حتى شبكات توليد الطاقة الذرية لأغراض سلمية. وإذا قلنا إن معارك ستبدأ بشأن حقوق الامتياز فإن شبكات المعلومات ، كالإنترنت ، تبقى تحتفظ لذاتها بقصة مغايرة تماما .

كل شيء يتحرك فى عالمنا الحاضر، تقنياً وعلمياً ومادياً ، وبديهياً فإن أموراً

كـهذه تفـترض الاعـتـماد على بنى تحـتـية غـير مـحـدودة ، وخاصـة فى نطاق الاسـتثـمارات التى تتطلب رؤوس أمـوال باهظة. القـيمـة المادية للبنى التحـتيـة الكبـرى ، فى العالم يمكن أن تتـجاوز ٥٠ مليـار دولار ، ومع ذلك فإنهـا قيـمة رمزية بحتـة خاصة وأن الوحدة الحسـابية بالنسبة لبعض المشـاريع المساعدة على رفع مسـتوى الشـبكات الدولية قـد تقترب من هـذا الرقم. ففتح نفـق تحت بحر المانش أو مـد خط حديدى أوروبى سريـع لا يمكن أن تهبط تكلفـته عن عـشرة مليارات دولار ، أمـا وحدته الزمنية فـقد تصل إلى ربع قـرن من الزمن .. أى ما يوازى جيلا من البـشرية . وتطوير الطائرات ذات السعة أو الحمولات الـضخمة قد يتطلب ما لا يقل عن عشر سنوات إضـافة لعشرات المليارات من الدولارات ، رغم أن فتـرة استخـدامهـا قد لا تتعـدى ثلاثة عقود .. وكـذلك الأمر بالنسـبة لتركيب شبكة من الاتصالات بواسطة الأقمار

الصناعية مـع محطات استقبـال أرضية ، فإن أرقام التكالـيف لابد أن تتجاوز عشرات المليارات من الدولارات .

فى اقتصـاد السوق الهدف هو الربح ، أى أن حرباً للأسعار يمكن أن تـتفجر عالميا ، قد تكون حرباً تجارية ، كـالحرب بين الصين والولايات المتحدة أو اليابان والولايات المتحدة أو أوروبا والولايات المتحدة ، إلا أن فائدتها اذا قلنا إنها تعود على المستهلك فإن أضرارها على المؤسسـات المتنافسة قد لا تكون مرجوة . ومن هنا يقال إن المنافـسة تضرب الأسـعار مثلمـا يقال عن التقنيـة الحديثة أو التـقدم العلمى ، بيد أن ما ينطبق على أوروبا قد لا ينطبق علـى إفريقيا ، وما ينطبق على

إفريقيـا الجنوبية قد لا ينطبق على إفـريقيا الاستوائيـة .. تلك هى بعض افرازات العولمة السلبية التى يجب التصدى لهـا ، والبعض يرى أن الاختلافات الجوهرية فى مجتـمع متطور قد اضمـحلت. لننظر إلى خريطة العالم بتمـعن فنكتشف أن الكل واقع ضـمن منطقـة نفـوذ معـينة ، بدءاً من أوروبا ووصـولاً إلى القـارات الأخرى ، لتبـقى الولايات المتحدة ، كقطب واحد ، هى الأكـثر قدرة على رسم خطوط التـقـسيم ، سـواء مـبـاشرة أم بواسـطة البنك الدولى أو صندوق النقـد الدولى، أو تنظيـمات تجـارية إقليمـية أو تنظيـمات عسكـرية قارية .. لقـد كان لليابان فـتوتها قـبل نصف قرن من الزمن ، أمـا اليوم فإن "الدب " الصـينى آخذ بالامتـداد تدريجيـا ، حيث من المنـتظر أن يسجل طفـرته بعد اسـترجاع الـصين لمستعمراتها من هونج كونج إلى تايوان إلى ماكاو أو أرخبيل سبارتلى .

أمريكا التى انتصـرت فى الحرب العالمية الثانية مـا زالت هى الأعظم وخاصة بعـد التفـتت السوفـييـتى ، أمريكـا وحدها التى تملك اسـتراتيـجيـة قادرة وقـوة عسكرية سـهلة الانتشار عالميـا. وإذا ما كانت قد سـيطرت اقتصادياً بعـد النصر فإنهـا تحاول السيطرة مـاليا، خاصة وأن "الدولار " عـملة نقدية دولية وقـواعد " اللعبـة " توضع بناءاً على معـايير مسـتمدة منـه . وإذا قيل إن لأمريكا " عـجزاً " ضخمـا إلا أن عجزها غالباً مـا غطته بواسطة الآخرين. فعلى سبـيل المثال مازال يقـال إن أمـريكا هى بطلة حـرب الخليج بلا منازع إلا انهـا لم تدفـع شيـئـا من تكاليـفهـا التى غطتـها دول الخليج واليـابان وألمانيـا .. ورغم أن أمريكا لم تعـد تتحكم فى التكنولوجيا

الحديثة فإن كل شيء ممكن تعويضه من خلال احتلال الواجهة العالمية عسكرياً أو استراتيجياً .. أمريكا تصر على " الهـيمنة " إلا ان العولمة التى تبشر بها قد تنقص من قدراتها رغم أن عولمة من الذى ننتظرها ليـست من نسق متجانس قارياً إذ أن الاختلافات القـائمة فى أمريكا اللاتينية أو إفريقيا أو آسيـا أو حتى أوروبا ستدر افرازات متناقضة قد يستحيل اغلاقها بسهولة، ولو على المدى البعيد .

هناك بلاشك عدة تساؤلات مثـارة حول ظاهرة العولمة : هل يمكن أن تصبح العولمة مـصدر تقدم ورجاء اقـتصادى يشمل العـالـم أجمع كما يعـتقد كثـير من الاقتصاديين ؟ هل تصبح العولمة مصدراً لتهديد استقرار وأمن المجتمعات والبيئة الطبيعية كما يعتقد أنصـار البيئة والعمال الكادحون ؟ هل يمكن للعولمة أن تقلل من سلطة الحكومات المحلية وسيطرتها على السياسـات الاقتصادية والاجتماعية ؟ أو كل هذه مجرد تساؤلات حول ما يمكن أن تحدثه العولمة ؟

إن الذين يناصـرون عـملية التكامـل الاقتـصادى بـين الدول بعضـهـا بعضـاً يتـهمـون المعـارضين بـأنهم يجهلـون القوانين التـجـارية بدعـوى الحفـاظ على الاقتصاديات القوميـة، وهم فى الحقيقة غير متخصصـين فى قواعد التمايز التى تختص بها كل دولة، وبالتالى لابد من وجـود تكامل بين اقتصاديات دول العالم حتى تتـوافر عـدالة التوزيع فى التـجارة ويعم الرخـاء على العالم .. أمـا الفريق المعـارض للعالمـية فـيتـهم الفـريق الآخـر بأنه قصيـر النظر وذلك يرجع إلى أن الاقتـصاديـين لا يهتـمون إلا بالنمـاذج والسيـاسات الاقـتصـادية التى لا يمكن تحـقيـقهـا . وأنه لا يمكن الانطلاق فى هذه المناقـشة على اعـتبـار أن المزايا التى

ستـخلقها الـعولمة هى فى آن واحد مـتساوية لجـميع الأطراف أو أن هناك مـيزاناً حسـاساً يزن به أطراف المعادلة العـالمية، المعطيات مقـابل نتائجهـا، وأنه فى عالم غير متساو ومتعدد الأنماط فى الثروات والإمكانات والقدرات وأيضا السياسات ، فان واقع نتائج العولمة سيكون أيضا متفاوتاً بل تفاوته أكثر

عمـقا وحدة مما عـرفت البشـرية من قبل .. إن العالم الصناعـى يكاد لا يمثل أكثر من ٨ % من البشرية ، فى الوقت الذى لا يـمتلك الباقى الذى هو ٩٢ % أكثر من ١ % من التجارة التجـارة العالمية. وصحيح أن أنماط العلاقـة التى تبثها العولمة ، منهـا ما هو أفقى ومنها مـا هو عمودى إلا أن العموديـة ، ومن خلال ما هو قائم ، لابد وأن تطغى على الأغلبـية الأفقية، على أسـاس أن القوى العظمى ذات المصلحـة الحاليـة لن تفرط بمكاسـبهـا ، وعلى أساس أنه " الأفـضل " الذى يسيطر حاليا هو الذى سـيبقى مسيطراً فى عصر الـعولمة إلى درجة العمل على " حذف " الأدنى درجة .

ومما لا شك فـيه أن بعض الجـهـات تمارس قليلا من الـسيـاسة ، كـأوروبا أو الاتحاد الأوروبى ، حتى وإن كانت ممارستها تبقى أسيرة ضغوطات أمريكية ، إلا أن الدخول فى مرحلة العولمة الاقتـصادية لابد وأن يركن " السياسة " إلى الوراء بحـجة أن التفـسيـر الذى يجب أن يعطى لأى صـراعات أو نزاعـات ، إقليمـية كانت أو دوليـة ، لابد وأن يؤخذ من خلال رؤية اقـتصادية. فالصـراع العربى – الإسرائيلى قديم ، بل هو تاريخى أيضا ، وصحيح أن الفرقاء قد اختاروا العملية السلمية إلا ان هذه العملية قد اتخذت سبيلاً اقتصادياً بات يطغى على كل ما هو

سـياسـى، فإسـرائيل قـد وقـعت على اتفـاقيـات سـلام معـينة إلا أنهـا ليـست بالاتفاقيات التى حلت قضية الصراع ، أى أن الصراع مازال قائماً .. وقد تنقلب شعارات الـتفجيـر أو التهديد بالحرب إلى حـرب حقيقـية تؤكد إمكانية طغـيان العولمة الاقـتصـادية على العولمة السيـاسيـة حتى وإن تزعمت النمـط الثانى دولة عظمى كالولايات المتحدة الأمريكية .

بعض الدول تنتظر أشـياء كثيـرة من العولمة فى الوقت الذى نرى فـيه دولاً لا تنتظر شيئاً. بعض الدول تستبشر خيراً منها ، وبعض الدول الأخرى لا تنتظر إلا " كارثة " . أصحاب رؤوس الأموال والثروات يتطلعون إلى آفاق جديدة، إلا أن " المعدمـين " لا يفكرون إلا بتفاقم أعدادهم وبـتساقط ملايين غـيرهم من الناس فـوق الأرصفـة والطرقـات. فـما الذى يدفـع إلى التفـاؤل ومـا الذى يدفع إلى التشاؤم ؟ البعض الـذى يرى أن العولمة سوف يستفيدمنـها الكل . من أصحاب هذه الرأى المؤسسـات الدولية (صندوق النقد الدولى - الـبنك الدولى للإنشاء والتـعـميـر - منظمـة التـجارة العـالميـة)، إلا أن هذه المنظمـات تغـفل عن هذه التفاوتات الحادة لهـذه الاستفادة وهذا ما يقوله أحد الباحـثين " على السيد " فى محاضرة ألقاها فى البنك الدولى .

ولا جدال فى أن ظاهرة العـولمة أصبحت الظاهرة الاقـتصادية الأكثـر قوة فى عـصرنا ، انطلاقـاً من منجـزات التكنولوجيـا الحـديثة، ومن مـحاولات تقـريب الاتجاهـات العالميـة نحو تحـرير أسواق التـجارة ورأس المال ، ومن التـوسع على امتداد العـالم فى بنى الانتاج ، أدى هذا إلى نشوء فرص للنمو الاقـتصادى على

المستوى العـالمى ومع استمرار عمليـات تحرير وتوسيع التجارة العـالمية ، وتعاظم القوى التى تحض على النمـو الاقتصادى ، يتـوقع لهذا النمو أن يبلغ نسـبة تزيد على ٦ % فى السنة، وأصبح النمو أكثر تسارعاً من أى وقت مضى منذ ستينات القرن العـشرين .. ومثل هذا التـوجه يلقى اليوم دعـماً مسـتمراً من جـميع دول العالم ، فالمـبادرات الدولية المتعددة بـدأت منذ الآن تسعى إلى خلق المناخ الملائم للاندماج الدولى : كجولة أوروجواى التى تعـد من أوسع الاتفاقيات الموقعة فى تاريخنا المعاصر ، وهذه يتوقع لها أن تزيد من حجم التجارة العالمية .

التـرتيبـات التجـارية العالميـة المتعـاظمة ترعـاها الآن العديد من المنظـمات ، كالاتحاد الأوروبى ،ومنظمة التـجارة الحرة لأمريكا الشماليـة ، ومنظمة التعاون الاقتصادى الباسـفيكى الآسيوى .. إضافة للمبادرات الاقليـمية المحلية الأخرى والمنظمـة اللاتينيةالأمـريكية. هذه التـرتيبـات يتوقع أن تزيد مـن حجم التـجارة العالمية، ومن المحتمل ألا يتناول هذا التوسع التـجارة العادية والخدمات التقليدية فقط كـالنقل والتأمين ، وإنما سـينطلق نحو أعمـال خدمية أخـرى أوسع نشاطاً، ويمكن الاتجار بهـا دولياً ، يساعـد فى ذلك التمويل الاسـتثمـارى الذى أضحى الآن فى حـركـة دائبة عـلى امتـداد العـالم، كـذلك تحـديث التـقنيات الخـاصـة بالمعلوماتية

والاتصـــالات ، وفى تســريـع دوران رأس المال حــول العـــالم من خـــلال الاستخدام الأمـثل للعمالة المكثفة عالـية المردود وهناك مكاتب بدأت تعمل على ادخال البـرامج والاعتمـادات المالية ، وصيغ المـعالجات الضـريبية ، والكثـير من

الأعمـال الخدمية المهنيـة الحديثة مثل : الحـوسبة ، والخـدماتية التى تعتـمد على برمجـيات الحواسب وأبحاث التـصنيع وسبل تطويرها وتصـحيح المنتج وبعض أشكال خدمة الزبائن كالدعم الفنى لبرمجيات التكنولوجيا المكتبية.

ولعل هذين المثالين يلقيان بعض الضوء على ما يجرى فى العالم من حولنا :

- شركة حواسب ، تسعى الآن ، للاستفادة من دخولها إلى المجال العالمى عبر شـبكات الانتـرنت من خـلال إنـشـاء مـخـبـر عـالمى ، وذلك بتـصـمـيم دورة للمعلومـاتية مدتهـا أربع وعشرون ساعـة فى اليوم الواحد ، حـيث تختزل فيـها المعلومات الواردة من الولايات المتحدة والشرق الأوسط وشـرق آسيا إذا ما تبين أنها متمـاثلة ، وتعبر كل عملية على حدة شبكة الإنـترنت فى نهاية يوم العمل ، لتعود إلى الولايات المتحدة من جـديد ، ولتوضع فى الخدمة مع بداية يوم العمل التالى .

- شركـة خطوط جوية عـالمية ، تقـوم حاليـاً بتنفيـذ قسم كـبيـر من أعمـالها الإدارية فى الهند، لتـجنى أرباحاً مـن فارق دخـول العمـال المكتبـيين فى مـدينة بومبـاى. ومثل هذا التـحول ليس إلا موجـة أولى يشهـدها عالمنا اليـوم ، ويمثل وفورات فى التكلفـة بالنسبة للـمتعاقـدين الدوليين ، وزيادة فى الدخل بالنسـبة لمقدمى الخدمات لدى الدول النامية .

هذه الأمثلة وغيرها توضح مدى الأهمية التى تشكلها ظاهرة العولمة فى عالمنا المعاصـر ، وهى التى يتوقع لهـا أن تزداد أهمية بالنسـبة للدول النامـية . ذلك أن اندمـاج التجـارة والانتـاج مع تجارة الدول المتقـدمـة سيـزيد حـتـماً من حـجم

الاستثمارات الخارجية ومن تدفقات السيولة اللازمة إلى خزائن هذه الدول . الأمر الذى سيدفع بعجلة النمو الاقتصادى فى العالم النامى ويزيد من منافسته لتغطى حاجز الركود.. وتأمل الأرقام الحديثة للبنك الدولى لهذا النمو أن يتصاعد، يتوقع مسؤولو البنك أيضاً أن تتمكن الدول النامية من الإسهام فى الإنتاج العالمى بما يتراوح بين ٢٥ - ٣٠ ٪ ، خلال الفترة من ٢٠١٠ حتى ٢٠١٥، وأن تزداد صادراتها بتسارع أكبر مما هى عليه الآن لدى الدول المتقدمة . كما يتوقع حينها أن يضيف التوسع فى النشاطات الخدمية وحدها أكثر من (٣٠٠) مليار دولار أرباحاً لصادرات الدول النامية.

ولعمليات الاندماج فى السوق العالمية فوائد أخرى للدول النامية يصعب تعدادها ، فالمساعدات التى تقدمها صناعات الدول المتقدمة لاقتصاداتها كالأنشطة الخدمية والصناعية ذات المصدر الخارجى والتى ينفذها عادة نشطاء محليون ، يقومون بالاستفادة من العمالة المنافسة وتؤدى بالبلد النامى نفسه إلى تحسين العوامل المساعدة فيه ، مثل التفوق التكنولوجى، وزيادة الانتاج ، والتعرف على السوق ، وخلق مهارات عمالية عالية المردود. هذا الأمر الذى يساعد اقتصاديات الدول النامية على اختزال مراحل نموها الاقتصادى والتكنولوجى وبناء وتطوير عمالة كثيفة المردود. يتوقع أن يسهم الاندماج وتحسن مصادر الدخل فى تخفيف الفقر لدى الدول النامية ، وفى اقتناء أفضل التطبيقات المستخدمة للحفاظ على البيئة ، ذلك أن أنظمة التلوث المجربة لدى الدول المتقدمة يمكنها أن تسهم فى تخفيض التدهور البيئى بأقل التكاليف

الممكنة لدى الدول النامية .

هذه الفـوائد وغيـرها من النظام العـالمى الجديد تعـتـمد بشكل أسـاسى على الحفاظ على معدلات التسارع فى النمـو ، وعلى تفعيل سياسات الإصلاح ذات النظرة المتقدمة التى بدأ العديد من الدول النامية بتطبـيقها ، ويجعل مسألة العناية بالمناخ الاقتصادى المحلى من خلال تشجيع التصدير من الأهمية بمكان ، ويهيىء الفرصـة لمزيد من الاستـثمـار الخارجى ، ويسهم فى زيـادة الفعاليـة الاقتـصادية والانتاجية على حد سواء ، ويدفع بالاقتصاد القومى للسعى لتحسين ادارته على نحـو لابد منه .. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الطاقـات التصـنيعـية والخـدمات الملحقـة بها ، أصـبحت بمجمـوعها تتـحرك على مـساحة العـالم ويمكن للدول النامية أن تستفيد من الفرص المتاحـة من خلال توجيه طاقاتها نحو المجالات التى يمكنهاالمنافسة فيها ، لتحصد الرخاء الذى يسعد به النظام العالمى الجديد. وتشير الدلائل إلى أن الدول التى تمكـنت من تحرير اقـتـصادهـا ووضعـتـه فى مسـاره الصحـيح هى تلك التى اعطت القطاع الخاص الأولوية فى المنافسـة ، وقدمت له المرونة السيـاسيـة والمؤسسيـة ، وافسحت له المجـال للإستجـابة بسرعـة للفرص الجديدة المتـاحة. وهذه الدول هى التى يتـوقع لها أن تكون رابحـة ، على عكس الدول الأخـرى التى يتـوقع لها أن تجنى فـوائد أقل أو البـعض الثـالث الذى من المتوقع له أن يراوح فى مكانه عند نقطة البدء .

لكن هناك آراء أخرى ترى أن فى أسـواق السلع والخدمات والأعـمال والمال المفتوحة للتجارة الدولية إمكان تصنيع السلع بسعر منخفض فى مكان تتوافر فيه

العمالة الرخيصة مع بيعها المنتج بسعر عال فى الأسواق العالمية . إن اختلاف أسعار الشراء والبيع على المدى الطويل يعتبر مصدراً من مصادر الربح فى التجارة ، وهذا من شأنه أن يؤثر على الأنشطة الاقتصادية فى السوق المحلية، وبالتالى لا تستطيع المنافسة مع الأسواق الحرة. وهذا هو المأخذ الأساسى على ظاهرة العولمة .. وأيضا وإذا كان لا داعى للقلق وأنه من خلال العولمة يمكن أن تتاح فرص عمل عديدة للذين لديهم مهارات واستعداد للحركة فى الأسواق العالمية وأن العولمة يمكن أن تساند الدول الفقيرة كى تتخلص من فقرها . كما أنها لا تفرض قيوداً على استقلال وسيادة الدولة كما هو شائع إلا أنه من ناحيتها.. فإن العولمة يمكن أن تشكل ضغطاً على أجور العمال غير المهرة فى الدول الصناعية مما يثير الشعور بعدم الاطمئنان فى ظل الاقتصاد العالمى .

هناك خطران يمكن أن ينجما عن عواقب ظاهرة العولمة على المؤسسات الاجتماعية، أولهما احتمال ظهور نظام سياسى معاد للتجارة الحرة. على سبيل المثال فقد صرح أحد المرشحين الجمهوريين " باتريك بوكانين " فى الحملة الانتخابية للرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٦ بأنه لابد من اتخاذ إجراءات حماية ضد حرية التجارة لصالح فئات اجتماعية من الشعب الأمريكى .

أما الخطر الثانى فهو تراكم الثروة والربح الناجمين عن سياسات عولمة الاقتصادوالتجارة والتى تستفيد منها فئات اجتماعية على حساب فئات أخرى سوف تتسبب فى زيادة الفجوة والانقسام بين الطبقات الاجتماعية وفى النهاية سيحل الخراب على المجتمع ككل .

وبالرغم من هذه المحاذير فإن أنصار وأعداء العولمة على السواء ينصحون بأنه لا يجب أن يتوارى رجال السياسة وراء سياسات الحماية والرقابة لأنها سوف تكون محدودة وليست لها فاعلية كبيرة على المدى البعيد إلى جانب أن لها آثارا اجتماعية سلبية أيضا. لذلك يجب على صناع السياسة وقادة الدول أن يعيدوا توزيع واستغلال الموارد ، وبدلاً من الإنفاق على الإعانات الاجتماعية والمعاشات لكبار السن يجب الإنفاق على العمالة التى يتم توظيفها فى اقتصاد السوق . فلابد من عمل تنسيق بين السياسات الصناعية والاقتصادية حتى يمكن تخطى المخاطر التى يمكن أن تتعرض لها من جراء انتشار العولمة فى مجالات الاقتصاد والسياسة والتكنولوجيا. فالعولمة لم تنشأ من فراغ ، فهى جزء من التنمية والتحديث اللذين قد يفرضا على الحكومات أن تتحرر من سياستها الاقتصادية والاجتماعية حتى تستطيع أن تصمد أمام منافسات الأسواق العالمية وهذا الانفتاح قد يكون على حساب قيم وعادات واستقرار الدولة نفسها . ونحن فى بداية القرن الحادى والعشرين لابد من إيجاد توازن جديد يجمع بين الكوكبية العالمية والمجتمع فى منظومة تعاونية جديدة.

الفصل السادس:

أغنـياء و فقـراء

مؤامرة دولية للساسة ورجال المال لإخفاء الحقائق عن العالم الفقير

إذا كـانت العولمة توحـد البشـر فى المكان والزمان والأسـواق والمعامـلات ،فهل توحد بينهم فى الثـروات ؟ هذا هو السؤال الذى طرح على بسـاط البـحث.. والبـعض كــانت إجـاباته نظرية، والآخـر أجاب بأمـثلة وقرائن وأدلة إتخـذها مقـياسـا لتـعمـيم الظاهرة. إلا أنه منذ بـداية التسـعـينات أى منذ بداية ظهور موجـة تيار العولمة بقوة، كانت وقائعـها مريرة وفظائع أحداثـها مريعـة ، فجـرائم الإبادة الجمـاعيـة لشعب البـوسنة والهرسك المسلم فى قلب أوروبا إستـمرت أربع سنوات قبل أن تتدخل أمريكا ، وعمليات الإبادة الجماعية فى أعالى النيل ومنطقـة البـحـيرات حـيث أبيـد مـالا يقل عن نصف مليـون مواطن رواندى ، ومـثلهم من بوروندى ثم تحرك المجتـمع الدولى وقواه العظمى للتدخل .. أما جـرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين وانتهاكاتهـا للقوانين والأعراف الدولية تم التغاضى عنهـا .. وإذا كان من الظاهر والمألوف إدراك العدالة الدولية المنقـوصة التى ترعـاها أمريكا والمنـظمات الدوليـة تحت سند ما عـرف بالمعاييـر المزدوجة فى السـياسة الـدولية فإنهـا تعكس مصالح وأوضـاع متـقلبة تؤدى فى

النهاية إلى ازدواجية معيارية شاملة والتى عرفت بسياسة الكيل بمكيالين، تضع فى هامشها الدول النامية والفئات المهمشة من العاطلين والفقراء واللاجئين لأسباب سياسية تتوزع على حسب العوالم التى سوف ينشق عنها النظام ويراها البعض أربعة عوالم هى مجتمع الصفوة، مجتمع الدول المتوسطة ، مجتمع الدول النامية ومجتمع الفقر. ويضيف لها البعض مجتمعاً آخر هو المجتمع البدائى الذى يعجز عن اللحاق بأى من المجتمعات السابقة، ويظل أفراده محتفظين بتراثهم الإنتاجى والثقافى الموروث من آلاف السنين .. هل يستطيع العالم فى ظل العولمة أن يحتفظ بنظامه الجديد بدون اضطرابات أو هزات خطيرة من الداخل أو الخارج؟ إن أصحاب العولمة يبشرون بعصر جديد من السلام والرفاهية يعم البشرية جميعاً.. ولكن السنوات السابقة منذ بداية الدعوة لهذا النظام الجديد لم تؤكد إلا على عكس ذلك تماماً.. مذابح فى البوسنة ورواندا وبورندى وإنتهاكات صارمة لحقوق الإنسان وملايين المشردين واللاجئين والمهددين بالموت جوعا، وأطفال مرضى أوشكوا على الموت .. ويرد أنصار العولمة بأنها تلك بداية العولمة، وإنما العبرة بمدى إمتداداتها وسيطرتها على العالم كله ، وفى وقت قريب، دون أن تؤكد سوى على ترديد مقولات التطور الاقتصادى المتلاحق، الذى نتج عن نظام العولمة. وتشير فى ذلك إلى أنه على الصعيد العالمى إتسمت تلك السنوات بنزعة العولمة. المتسارعة بما صاحبها من زيادة التفاعل بين الدول فى مجالات التجارة العالمية ونمو الاستثمار الأجنبى المباشر وأسواق رأس المال العالمية. وحفز ذلك التقدم التكنولوجى السريع فى

مجال النقل والاتصالات وسرعة تحرير حركة التجارة وتدفقات رؤوس الأموال ورفع الضوابط التنظيمية عنهـا على الصعيدين الوطنى والدولى . كذلك أتاحت نهاية الحرب الباردة إجـراء تخفيضات شاملة فى النفقات العـسكرية كحصة من الناتج المحلى الإجمالى ، وإتجه المجتمع الدولى نحو صيـاغة استراتيجيات عالمية تسعى لتنفـيذ مبادئ جـدول أعمال القـرن الحادى والعشرين، مـثل برنامج عمل الدول النامية الصادر عن المـؤتمر العالمى المعنى بالتنمية المستدامـة للدول الصغيرة الناميـة فى مـايو ١٩٩٤ . كـمـا وضـعت خططاً وبرامـج متـكاملة أخـرى على المستويين الإقليـمى والوطنى بمساعدة من بعض الأطراف الدولية المانحـة خاصة البنك الدولى وبرنامج الأمم المتـحدة الإنمائى ولجنة المـساعدات الإنمائـية التابـعة لمنظمة التعاون والتنمية فى الميدان الاقتصادى .

وقد حدثت طفـرة تجارية بعد الخطوات الأولية لتـحرير التجارة فى إتفـاقيات منظمة التـجارة العالمية أو مـا بعد الجات، مـشيرة إلى انتظار الخيـرات الأعم بعد نهاية تحـرير التجـارة العالميـة فى غضـون ٢٠٠٧ . يؤكد تقريـر دولى صادر عن الأمم المتحدة على أنـه قد أدى كل من العولمة وتحرير التجـارة إلى زيادة إمكانية أن تصبح التجارة الدولية محركاً أساسيا للنـمو وآلية مهمةوإنسانية وتبشر العولمه ليس بمكيـالين لكن بمكايـيل عدة دخل قـارب الـ ١٠,٨ مليـون دولار فى عـام ٢٠٠٢ إلى أربعة أضعاف.

ويقع اللوم فى هذا الوضع المـؤسف على العولمة بشكـل رئيسى، حـيث يعنى توفر العمالة الرخيصة فى الاقتصادات النـاشئة، ضغطاً قاسياً على أجور العمالة

الأمريكـية، وفى الوقت نفـسه تبـقى ثمار تجـار الأمريكيين فى مـجال الخـدمات والتكنولوجيـا السريعة النمو مـتوافرة فقط لشريـحة من العمالة تتمـتع بالمهارات الضـرورية. وهناك بـعض العـوامل التى لعـبت دوراً هى الأخــرى مـثل النظام الضريبى الذى يطال الفقراء أكثر من غيرهم.

ويفسـر عدم المساواة حالة شـعور العديد من الأمريكيين بالضـعف ، حتى في حال مواصلة الاقتصاد الأمريكي للنمـو الشامل، وأصبح من المفهوم بشكل جيد الشعـور بالأسى عندما يجـبر الكثـيرون على القـيام بوظيفـة ثانية أو الاقـتراض وتحمل الديون لتحسين مستويات معيشتهم. وهناك عامل مساعد آخر على زيادة الضغـط وهو انخفـاض مستـويات الأمان بالنسـبة للدخـل نتيجـة لنقص نسـبة الأمريكيين الذين يتـمتعـون بالضمان الاجـتماعي والصـحي الذي قد يحمـيهم عندما تضعف أجورهم.

وربما أدى الضيق المرتبط بالخلل في مستويات الدخل إلى تبني سياسات إعادة التـوزيع الخانقـة والبطيـئة التـي سارت في أوروبا القـديمة. ويمكن أن نتـبع تلك النصائح ولا نفـعل شيئـاً ونأمل أن يرفع التيـار الأمريكي المتنامي الجـميع بشكل متوازن الأمر الذي لم يحصل على مـدى الثلاثين سنة الماضية أو يمكننا أن نركن إلى رأسمـالية النمو بينمـا تنتابنا مشاعـر أن الأمريكيين قد فـاتهم القطار ونحوا جانباً.

وللأسف لا يوجـد زر سـحري لحل هذه المشكـلة ، وليست الحـاجـة بحلول بطولية لنظام الضـرائب أو وضع خطط ضريبية مـثل خطط الرئيس السابق بوش

التي وسعت الـهوة بين الأغنياء والفـقراء، وجـعلت الفقراء يواجـهون سلبـيات العولمة.

وإذا أخفـقت سياسـات إصلاح خلل توازن الدخل فإنه سـيترتب عليـها آثار عكسية توسع هوة عـدم التوازن في الدخل في أمريكا أكثـر من أي دولة صناعية أخرى وقد توازي الصورة في العالم الثالث .

المصدر : (http://www.thegulfbiz.com/vb/
showthread.php?t=176419)

ويقول د. جمال الدين صادق أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة :لقد ترتب على النمو الاقتصـادى زيادة فى الرفاهية الإنسانية على مسـتوى دول العالم الثالث ، وهناك من الأسباب مـا يؤدى إلى التفاؤل فى هذا الصدد ، إذ تحـسنت المؤشرات الإجتمـاعية وانخفض متـوسط معدل الوفيات بين الأطفـال الرضع، غير أن هذا المتوسط يخفى فوارق بين الجنسين فى كل من آسـيا وإفريقيا فهى فى الأولى ٧٠ حـالة فى كل ١٠٠٠ مـولود بينمـا فى الثـانيـة ٩٠ حالة لكـل ألف مولود كـمـا انخفض عدد التلامـيذ الملتحقين بالمدارس الابتدائية فـى بعض البلدان الإفريقية، وكانت معدلات الالـتحاق أقل نسبياً فى البنات عنهـا فى البنين .. كما أن هناك تباينا فى مستويات الدخول بين دول آسيـا ودول أفريقيا، فالمتوسط فى دول آسيا لا يقل عن ٥ دولارات يوميا بينما لا يزيد عن دولار واحـد فى اليوم فى أفريقيا . إن تدويل الاقـتـصاد أو عـالميـتـه إنما يعنى القـول بـ « عالم واحـد » حـيث إن الحديث عن مثل هـذا العالم قد انطلق فى بداية عام ١٩٩٠ بواسطة الاقـتصادى

الأمريكى « روبرت ريتش» الذى شغل بعد ذلك منصب وزير العمل فى إدارة الرئيس الأسبق بيل كيلنتون .. والحقيقة أن دوافع التخلى عن إصطلاح الغنى والفقير يمكن ألا ترتبط بالإتجاهات السياسية الاقتصادية الجديدة وحدها بل يمكن أن ترتبط أيضا بوقائع مادية ثابتة انطلاقا من أن الجنوب الذى كان يشير إلى قارات بأكملها كآسيا أو إفريقيا أو أمريكا اللاتينية قد بدأ يتقلص تدريجيا فى السنوات الأخيرة ،إذ أن عدداً من بلدان الجنوب الآسيوى مع بعض بلدان أمريكا اللاتينية قد خرجت فعلاً من دائرة التخلف والفقر ، ونجحت فى احتلال خط الوسط إن لم نقل إنها قد تجاوزته، خاصة وأن بعضها قد دخل نادى الدول المصنعة بعد أن كان هذا النادى من احتكار بعض بلدان أوروبا الرأسمالية غربية أو شمالية إضافة إلى اليابان والولايات المتحدة الأمريكية وكندا .. وحيث أن الكل قد إعترف بهذه الحقيقة ،فإن نتيجتها المباشرة إنما تعنى إعادة النظر فى توزيع الثروة العالمية. هذا المبدأ طالما ألحت عليه بلدان العالم الثالث ولكن بلا نتيجة. توزيع الثروة العالمية مازال بعيدا عن العدالة إذ أن حوالى ٢٠٪ فقط من سكان العالم يحتكرون ما لا يقل عن ٨٠٪ من الثروة، وخمس سكان العالم أو أكثر يعيشون تحت حدود الفقر . إلا أن هذه الثروة قد بدأ القليل منها يعود لأصحابه .

أطروحة «العالم الواحد» لا تنظر إلى الناحية الاجتماعية بقدر ما تنظر الى الناحية الإقتصادية، بل إنها تطالب بالفصل بينهما فصلاً كاملاً. مثل هذا الفصل لا يؤرق شعوب العالم الثالث وحدها بعد أن ارتضت معظم أنظمتها السياسية

الدخول فى معركـة اقتصاد السوق ، بل يؤرق أيضا حتـى شعوب العالم المتطور التى تصـارع أزمـات تضخم وبـطالة خطيـرة . كمـا يؤرق رجـالات السـياسـة والأحزاب التى تستند غالبا فى خطبها وبرامجـها الإنتخابية على قضايا ومشاكل إقتصادية واجتماعية.. أى أن الإقـتصاد العالمى قد دخل فعلاً مرحلة عدم توازن بعـد أن ظلت كـفـة الميـزان ترجح دائمـاً لمصلحـة البلدان المتـطورة ، تلك التى اعتبرت أيضا من « أنماط » التوازن التقليدى .

هذا الإستنتاج الذى يعـتمد على رؤية عدد من المتفائلين ينطلـق من إعتقادهم بأن «حركة تنمية واضحة » قد بدأت تدب منذ سنين ضمن أكثر من بلد فى آسيا وأمريكا اللاتينيـة، وفى أوروبا الشرقيـة والشرق الأوسط ، لتبـقى معظم البلدان الأفريقيـة بعيدة كل البعـد عن هذه الحركة، وكما حـدث فى أوروبا التى عرفت إنطلاقتها مع أحـداث الثورة الصناعية فإن البلدان الجديدة فى إقـلاعها الصناعى قد أخذت تتوحـد أمام معضلة تركيـبتها الاقتصادية الاجـتماعية القديمـة بقصد إعطائهـا شيئـا من سمـات التكييف المعـاصرة خاصـة أننا أصبـحنا نلمح داخل بعـضهـا كالصـين أو البرازيل ، طبـقة بورجـوازية متـميـزة إضافـة إلى طبقـات متوسطة كثيفة.. هذا الشئ الذى يفسـره الملاحظون فى الحقيقة القائلة إن ملايين من السكان قـد خرجـوا فعـلاً من دائرة التخلف ليـدخلوا مبـاشرة ضـمن دائرة المجتمع الاستـهلاكى .. إلا أن هذه الملاحظة ليست إيجابية تمامـاً إذ أنها تتجاهل عـشرات الملايين من السكان الذين مـازلوا يعـانون من التخلف والفـقر، سـواء تعلق الأمـر بالمدن أو بالمناطق الزراعيـة أو الرعوية النائيـة وكأن كل مـجتـمع قد

أصبح ينقسم ما بين شمال وجنوب .. ويعرف فى ذات الوقت تفاوتا صارخا بين الغنى والفقر !

أتاحت ثورة المعلومات والعولمة تيسيرات للمواطن .. إضافة إلى توفيرها لفرص عمل جديدة .. إلا أن التشاؤم مازال ملازماً للناس، إذ يرون أنه لا يمكن العودة إلى سنوات الرفاهية والازدهار .. إن أوروبا وكل البلدان المتطورة التقليدية تعيش فى قلق وخوف من زوال « دولة الرفاهية»، وهو شعور يتفاقم ويتجه نحو الأسوأ بالمقارنة مع مجتمعات هى فى طريقها نحو التطور والازدهار فى كل من آسيا وأمريكا اللاتينية. أما هذا القلق وهذا التخوف فإنه يسيطر على الطبقات المتوسطة التى هى فعلاً حائرة ، حسب تعبير روبرت ديتش .

إن الفجوة بين الغنى والفقر وإن قيل إنها فى طريقها نحو التقلص بفعل التطور الذى أصبحت تعرفه بلدان عديدة فى العالم الثالث .. فإن هذا لا يعنى أبدا إمكانية القضاء عليها خاصة وأن الحقائق تؤكد على أن مثل هذه الفجوة لم تعد من احتكار سكان الجنوب إنما أصبحت أيضا من ميزات سكان الشمال.

نقائص المعونات :

الفارق بين الولايات المتحدة والهند، هو أن سكان أمريكا (٥%) من سكان العالم ونصيبهم (٢٥%) من الدخل العالمى ويستهلكون (٢٥%) من طاقة العالم ويبعثون (٢٢%) من إجمالى غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يرفع درجات الحرارة، أما الهند فسكانها (١٦%) من سكان العالم ونصيبهم (١%) من الدخل العالمى و(٣%) فقط من استهلاك الطاقة .

مليار نسمة فى العالم دخلهم أصبح ١٥٠ ضعفاً لأفقر مليار، و١١٥٦ مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر، و١٣ - ١٨ مليون نسمة يموتون من الجوع سنويا، ونسبة الأمية

تصل إلى (٧٢%) فى الجنوب، وواحد من كل عشرة من البشر لايجد عملاً بأجر مقبول، و٢٠% من سكان العالم عند القمة ويحصلون على ٨٣% من الدخل العالمى .

حجة الأغنياء هى أن عمليات استخدام المعونات المقدمة لعدد كبير من الدول النامية شابها الكثير من الإنحرافات وذهبت إلى الجيوب والحسابات الخاصة .. وحجة الأغنياء فيها بعض الحقيقة، لكن الوجه الآخر للفساد هو احتيال يمارسه الأغنياء بمعوناتهم بطرق كثيرة، ويعرضها البنك الدولى فى دراسة له يقول فيها : إن ٢٥% من المعونات الأمريكية تذهب للجيوش و٢٥% من معونات الدول الصناعية السبع توجه لشراء منتجات هذه الدول ذاتها بزيادة ١٥% عن أسعارها السارية، وأن قيمة معونات المشورات الفنية وبرامج التدريب وتصميم المشروعات تبلغ سنويا حوالى ١٢ مليار دولار ينفق ٩٠% منها لخبراء البلدان المانحة ، ودعنا من فوائد القروض التى بلغت ١٦٠ مليار دولار دفعتها شعوب العالم الثالث كفوائد لديون قيمتها ١,٣ تريليونات دولار. دعك من «إتفاقات الجات» التى تتيح لأمريكا ربحاً يصل الى ٧٣ بليون دولار سنوياً واليابان (٥٠بليون دولار) والسوق الأوروبية (٦٠ بليون دولار)، أما الدول النامية فتدفع فى المعرفة والتكنولوجيا ربما أكثر مما يربحه الآخرون .

ويقدرعدد الـفقراء فى العالم بنحـو مليون نسمة غـالبيتهم مما يسـمى بالعالم الرابع فى أفـريقيـا وآسيـا ، وإن لم تخل أمريكا ذاتهـا « شمـالها وجنوبهـا » من ظلال هذه المأساة السـوداء ! مع الفارق الشـديد، حيث يواجه مـا يقرب من ٢٨ مليون شخص داخل أمـريكا الشمالية نفسها يعـانون محنة الجوع، إلا أن الدولة هناك تمنح هؤلاء الجوعى إعانات شهرية لشراء الطعام بما يعادل ٣٧٥ دولاراً فى الشـهر ، لكل أسـرة مكونة من أربعة أفـراد ، بما يعطى لمأساة الـفقر والجـوع فى أمريكا ، بعداً مغايراً ، لما يواجهه مليار جائع وفقير فيما يسمى بالعالم

الرابع ، يعيش أفراده فى قاع الفقر ما بين أفـريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية !بل ان هناك شعبا بأكمله يتعرض للفناء جوعاً هو شعب رواندا ، البالغ تعداده ٦ , ٧ ملايين نسمة يواجهون خطر المجاعة ،بسبب ماتشهده رواندا من حروب ومذابح منذ عام ١٩٩٤ . ويضم جناح العالم الرابع ، الذى وردت أول إشارة له فى مؤتمر رومـا عـام ١٩٧٥ ، واحـداً وثلاثين دولة فـقـيـرة . وهناك ٢٢ مليـون أفـريقى يواجهون فى كل لحظة بشـاعة الموت جوعاً ، بينهم لاجئون ومـشردون من جراء الحروب الأهلية ، والاشتباكات القبلية والفوضى السياسية أو الجفاف والتصحر.

ومن بين هذه الدول - كمـا أشار فيشر- السـودان وإريتريا وجيبـوتى وكينيا والصومال ، وأوغندا ورواندا وتنزانيا ، فهم أكـثر الدول تعرضا لخطر المجاعة إذا لم يتم إسعافـهم بالمعونات الغذائية الـفورية ! أما باقى دول العالم الرابع فـتمثل افريقـيا المرتبـة الأولى منها : بنين وبوتسـوانا وبورندى والرأس الأخضـر وجزر القمـر وأثيوبيا وجـامبـيا وغينيـا بيساو وفـولتا العليـا وليسوتو ومـالاوى ومالى

والنيجر وأوغندا وجمهورية أفريقيا الوسطى وتشاد، ويليها ٨ دول آسيوية هم : أفغانستان وبنجلاديش وبوتان ولاوس والمالديف ونيبال واليمن ، وفى أمريكيا اللاتينية هاييتى وساموا، ويبلغ تعداد هذه الدول ٣٠٠ مليون نسمة يعيش سكانها تحت قاع الفقر .

أما الضلع الثانى للمثلث الرهيب فيكمن فى البطالة، وتشير الإحصائيات الرأسمالية ، إلى أن هناك ١٢٠ مليوناً من الأفراد المؤهلين للعمل كلهم فى عداد العاطلين ، بالإضافة إلى ٧٠٠ مليون يمارسون البطالة المقنعة فى أعمال موسمية متدنية الأجور .. ونأتى إلى الضلع الثالث فى المثلث الرهيب، الذى يبرز ظاهرة التكفك الإجتماعى، فى أبرز صور القهر الإجتماعى والتفرقة العنصرية ، والأمية ، وانتشار العنف واستغلال الأطفال وإرغامهم على ممارسة الأعمال الدنيئة وتحطيم كل ما يحملونه من براءة ونقاء وإنتهاك كرامتهم وإنسانيتهم بشتى صور الانتهاك البدنى النفسى وأبشع أساليب الاستغلال .

وفى أوروبا إنطلقت حملة عالمية فى ربيع عام ١٩٩٧، أشارت إلى وجود عالم جديد أشد فقراً وتخلفاً وخارج حدود الثورات الصناعية والزراعية والمعلوماتية ، وأطلقوا عليه «عبيد العولمة » الاقتصادية من أطفال وسجناء يرغمون على العمل بأجور متدنية أو من دون أجور على الإطلاق لصنع مواد إستهلاكية للدول الثرية بأسعار مخفضة . وبدأت الحملة بمبادرة من منظمات ونقابات فى ١٣ بلد أوربى، وتهدف إلى لفت أنظار المستهلكين إلى إحتمال أن تكون سراويل الجينز أو القمصان القطنية أو الأحذية الرياضية التى يرتدونها من

صنع أطفـال عاملين فى آسـيا، أو عـمـال محـرومين من حـقهم فى العـمل، أو سجناء رأى مرغمين على العمل من دون أجور . وتشارك فى الحملة ٤٣ منظمة ونقـابة فى فرنسـا ، من بينهـا حرفـيـو العالم ورابطـة حقـوق الإنسان والاتحـاد الفرنسى للعـمال وغيرها. أطلقت حـملة ضخمة لجـمع التوقيعـات تشمل دولاً أوروبية عـدة للتضـامن مع العالم الثـالث . ويهدف منـظمو الحملـة إلى إرغام الشركات الـغربية الكبرى التى تنشئ مـصانع فى دول آسيوية أو نامـية أو تصنع منتجـاتها فيـها ، سعـياً إلى خفض الـكلفة ، إلى التأكـد أولاً من إحترام حـقوق العمال الأساسية كما حددها المكتب الدولى للعمل، ومنها عدم تشغيل الأطفال، والمعامـلة التمـييزية إضـافة إلى إحـترام القـوانين وتأمين أدنـى حد من الحـماية الإجتماعية للعمـال .. وتتبع أوروبا بذلك خطة سبق أن برهنت على نجاحها فى الولايات المتحـدة، إذ دفعت بشركـات كبرى لصناعـة الثياب مـثل « غاب » و « ليـفايس » إلى القـبول بإخـضاع مـصانـعهـا فى الخارج إلى مـراقبـة للتأكـد من إحترامها لقوانين العمل وحقوق العمال .

وقـال أحـد مـسـئـولى الحـملة: إن الهـدف من هـذه الحـملة هو إرغـام هذه الشركات على اعتـماد قواعد أخلاقية فى تصنيع منتجـاتها. ويريد منظمو حملة التوعية التأكد من أن هذه

الشركات لاتغض الطرف عن انتهـاكات غير مقبولة لحقوق العـمال مدفوعة برغبـتها فى تحقـيق أكبر قـدر من الأرباح . وتأوى بورما والصين مـعسكرات لا تحصى للعـمل القسـرى بينما يقدر عـدد « الأطفال العـبيد » العـاملين فى الهند

وباكستان بالملايين. وفى منطقتى شنزهين وزهوهاى الصناعيتين الصينيتين غالباً ما يعمل العمال ساعات إضافية غيـر مدفوعة، أو يعملون ١٤ ساعة يومياً إضافة إلى تعرضهم لإنتهاكات عديدة فيمـا يتعلق بأجورهم وبشروط عملهم الصحية كتـعريضـهم لمواد سامة . أمـا الأجور فـتبقى مـتدنيـة جداً. واستنادا إلى مـنظمة "كريستيان إيد" فإن كلـفة العمل لحذاء رياضى تبقى أقل من دولارين فى تايلاند وأقل من دولار فى الصـين. وتقـدر المنظمـات المعنيـة أن ١% فـقط من مـوازنة إعلانات العملاق الأميركى لصناعـة المنتجات الرياضية « نايكى » يمكن أن ينقذ عشرة آلاف عامل أندونيسى من الفقر .

و يرى منظمو الحملة الأوروبية أن الحملات الـتى تقوم بها الشركات الكبرى بين الحـين والآخر للتـحقق من ظروف العـمل فى المصانع المحليـة التى تتعـامل معها، هى مجـرد "ضربات إعلانية " غير كافية تحـاول هذه الشركات من خلالها الظهور بمظهر إنسانى لكن الواقع فى أماكن الإنتاج مختلف تماماً .

الإبادة الجماعية :

لماذا تأخرت عـمليات إنقاذ سـكان سراييفـو وغيرها من المدن المحـاصرة فى البوسنة إلى أغـسطس عام ١٩٩٥ حتى تأتى قوات الناتو لإنقـاذها .. ولماذا تأخر السلام ؟

هل الوقوف على الحـياد مـقبول أخـلاقياً وعـملياً فى حـالة حدوث إرتكاب جـرائم إبادة على مـسـتـوى واسع ؟ لماذا لم يـكن هناك أى بلد على اسـتـعـداد للتدخل فى رواندا وعمليات

الإبادة الجماعية فى ذروتها عام ١٩٩٤؟

الإجـابة على تلك الأسـئلة تبدو واضـحـة وهى أن القـوى العظمى لم تر فى التدخل لإنقاذ أرواح تلك الآلاف مـصلحة إستراتيجـية، أو ربما لأن المصالح لم تتضارب فيمـا بينها ، بهذه الصفة نجد أن الوضع لم يختلف كثيـراً عماكان عليه أثناء الحـرب البـاردة عندمـا كـانت المصـالح السـيـاسيـة النابـعة من مـواجـهـة أيديولوجية سبباً مقنعاً ، لإبقاء عمليات القتل فى ساحات الحرب فى كمبوديا .. إذن لن تكون هناك عولمة حقيقية إذا كانت هذه العولمة إقتصادية فقط ،وإذا كانت لم تدفعنا للتحرك لوقف حالات جرائـم الإبادة الجماعية ، ففى الوقت الذى يتم فيـه احترام التـنوع الثقافى فـإن العولمة الحـقيقـية تعنى الاحتـرام العالمى لحـقوق الإنسان ، وتقبل الجانب الإيجابى من البشر ،وتحمل المسئولية لتوفير الحماية ضد الأعمال الشريرة .

واليـوم نحن بحـاجة لأن ننتـقل بهـذا الإلتـزام خطوة إلى الأمـام لنكون على استعـداد لوقف أسوأ أنواع الشرور من مصدرها وعنـد اندلاعها ، هذا هو أملى فى هذا القرن الجديد. نحن بحاجة إلى قيادة سياسية قوية الشكيمة والإرادة وإلى مـواطنين على اسـتـعداد للنـظر إلى ماوراء أفـقـهم المحلى وعلى مـقـدرة لدفع السياسيين غيـر المكترثين إلى العمل . . إذا كنا لا نريد أو لا نستطيع منع حالات الخرق الجماعى لحقوق الإنسان فهل قمنا بتوفير ملاذ آمن لأولئك الذين يهربون أمام مـرتكبيـها ويدقون بعنف عـلى أبوابنا ؟ إذا نظرنا إلى الوراء نجد أن قـضايا اللاجئـين فى الثلاثينات والأربعينات كـانت بالغة البسـاطة ..واليوم فإن قـضايا

حقوق الإنسـان تبدو أكثر تعقيـداً، فهناك مشاكل البطالة والشكوك المتنامـية تجاه الأجانب خـاصة أولئك الذين لديهم مـعتقـدات دينية أو مفـاهيم سيـاسية غـير مرغـوبة، إضافـة إلى الخوف من أن تـنفتح أبواب الفـيضـان. كمـا أن السيـاسة الخارجية فى كثير من الأحيان تعطى

الأولوية أكثر للمصالح بدلاً من إنقاذ حياة الذين يتعرضون للإبادة .

الثورة القادمة :

وعلى الجانب الآخـر السوداوى هناك من ينظر لحقائق الماضى والحـاضر على أنهاالطريق الذى صاحب نمو الرأسمالية وتوحشـها، فكانت إستنتاجاته وتوقعاته قاتمة سوداوية سواء بالـنسبة للوضع فى الدول المتقدمة نفـسها أو فى دول العالم الثالث الموعـودة برخاء قـادم فى جعبـة العولمة ، وكانت بدايـة الثورة فى باريس أطلقـتها أديـبة عجـوز فى السبـعين من عـمرها .. ومن المـعروف أن فرنسـا هى الدولة التى إحـتضنت منذ القـرن الثامن عـشر كـتابات الثـوريين والفوضـويين والاشـتراكـيين الذين قلبـوا العـالم بنظرياتهم وأفكارهم أولاً، ثم بداية الظهـور لأول دولة تطبق التعـاليم الماركسـية ولمدة ٧٠ عامـاً قبل أن تنهار وتتـفكك عام ١٩٩١ . فهل تكون العـولمة بداية لموجة ثورية جديدة ، عـالمية أيضا لكنهـا تستند على العولمة ، وأكـثر تطرفاً من الثورات السـابقة التى فشلت سواء فى فـرنسا أو ألمانيا أو النمسا وإيطاليا واليونان ؟ ، أو التى نجحت ولكنها فشلت فى الاستمرار (الإتحاد السـوفيتى وأوروبا الشـرقية)؟ لقـد مهدت فظائع الرأسـمالية الصناعـية الطريق لقيـام ديكتاتورية شـيوعيـة قاسيـة ومؤلمة فى التاريخ، فـهل تعيـد العولمة

الحالية بـجشعها وضـيق أفقها ولا إنسـانيتها عـجلة التاريخ لثورة عالمـية جديدة تنطلق من أوروبا أيضـا ، وتسـتند على الإنجـازات الرهيـبـة لعصـر المعلومـات، وخاصة جانبها شديد المركزية والسيطرة وتوجيه المجتمع البشرى اليها؟ .

أثار كتـاب جديد نشرته مكتبـة فايادر الفرنسيـة فى باريس ، وترجم إلى عدة لغات عالميـة وأوروبية منها اللغة الألمانية ، ضـجة كبيرة فى الأوساط الاقـتصادية والإعلامية، وقد وضعته الفرنسية فيفيان فورستر ويقع فى حوالى مائتى صفحة ، بعنوان «الإرهاب الاقـتـصـادى». هذا الكتـاب حـمل اتهـاماً عنـيفـاً للأوسـاط الاقتـصادية والقطاعـات الصناعية والمـالية الأوروبية والعـالمية معـبرا عن أشـياء خطيرة يعرفـها الكثرون ويفكر بها العالـم منذ وقت طويل ، دون أن يجرؤ أحد على تدوينها ونشرها .. فيفيان فورستر البالغة من العمر ٧٠ عاماً وجهت أصابع الاتهام ، وعـبرت بكلمات أدبيـة ولغة بسيطة عن سـيطرة الاقتصـاد على العالم وعلى حـياة الناس ونقـدت منطق الحسـابات البارد الذى يقـوم عليـه الاقتـصاد العالمى فى حـساب الأرباح والخسائر رغم نتـائجه الخطرة . طرحت فيفـيان عدة أسئلة فى هذا المعنى ومنها سؤال « مازال فى نظامنا الديمقراطى ما يشبه الإجماع بأن من حق العـاطلين عن العـمل والمشـردين فى مـجتـمـعنا أن يحـصلوا على مـساعـدات ، ولكن من يضمن مـا إذا كـان هؤلاء الأشخـاص غيـر المنتجـين ، يستطيعون البقاء فى إطار ديكتاتورى فردى أو أنهم سوف يحشرون فى معسكر للإعتقال ؟ !وتتابع الأديبـة الفرنسية التى تحمل عدة جوائز أدبية فرنسـية هجومها على القطاع الاقـتصادى فى كـتابها الذى بيع منه وخـلال شهور قـليلة ، حوالى

نصف مليون نسخة واحتل قمة قائمة أكثر الكتب مبيعا فى فرنسا. وتحول كتابها إلى موضـوع الساعـة، كما تحـول إلى ما يشـبه الحجـج والبراهين القاطـعة التى يحملها دعاة التغيير الاقتصـادى والاجتماعى فى أوروبا، مشيرين فى مناقشاتهم إلى «الإرهاب الاقتصادى». بل إن مجلة « نيوزويك » الأمريكية قد علقت على كتاب فيفيان فورستر ووصفته بأنه « أداة إشتعال لثورة فرنسية جديدة » .

ولعل الكثيرين يرون فى هذا الكتاب ما يشـبه الشرارة التى انطلقت من فرنسا عام ١٧٨٩ ونقلت الثورة الفرنسية إلى معظم أنحاء العالم. ولا يعود نجاح كتاب « الإرهاب الاقتـصادى» الجـديد إلى أسلوب فورستـر الأدبى البسـيط أو إلى ما حمله من تهم خطـيرة موجهـة إلى الاقتصـاد فحسب ، بل شـارك فى ذلك عدد كبـير من المقـابلات الصحافـية والإعـلامية وكـذلك الندوات والأمسـيات التى شاركت فيـها الكاتبة الفرنسـية بشخصيـتها الطبيعـية المتواضعة، ومـا طرحته من أفكار تدور فى الواقع فى أذهان المواطنين فى مختلـف دول العالم ، وخاصة فى الدول الصناعـية الغنيـة كفرنـسا والولايات المتـحدة ودول أوروبا الغربـية. هذه الدول يتزايد فـيها عدد العـاطلين عن العمل يوما بـعد يوم تماما كعـدد المشردين والبـائسين من الحـياة والمجـتمع ، كل ذلك دون أن تتـحول الأديبـة إلى نوع من ادعاء الخبرة الاقتصادية أو تتصـدى إلى طرح حلول مستقبلية ، إذا أن هدفها من هذا الكتاب هـو رفع صوت الاحتـجاج ضد نـظام يمتص الناس حتـى النخاع ، وكل ما يبقى منهم من إنسانية .. لذلك لم يكن من المستـغرب أن تستعير الكاتبة عنوان كـتابهـا وأسلوبه من الشـاعـر الفرنسـى المتحـدى رامبـو . وترى الكاتبـة

الفرنسية فيـفيان فورستر فى كتابها الذى هو مزيج من النقـد المر ضد الرأسمالية ومن فكرة وجود مؤامرة اقتصادية شاملة فى العالم ، أن « الإرهاب الاقتصادى » هو نتيـجة للجـشع المادى الذى يهدف إلى الربح فـقط، كمـا أنه نتيـجة لتـقنية « الأوتوماتية » و « العولمة » الإقتصادية التى تقوم على فكرة إنتاج المزيد من السلع والمنتـجات بأقل عـدد ممكن من اليد العـاملة البـشرية ، الأمـر الذى يخلق خطر البطالة الرهيب الذى يهدد العالم اليوم .

وتتـابع فورسـتـر ، بأن هناك مـؤامرة دولية عـالمية يحاول رجـال السـياسـة والإقتـصاد والمال والمنـظمات الدوليـة فيهـا إخفـاء الحقـائق عن الناس ، وإثارة مـخـاوف أرباب العمـل ، وإحبـاط العـاطلين عن العـمل. إنهـا تقـول : «على البورصة أن تسجل هذه المخاوف على شكل أرقـام تلعب دوراً حاسما فى نشوء الأرباح وزيادتها، فى نفس الوقت الذى تـزيد فيه أرقام العـاطلين عن العمل من شعور الخـجل والإحباط لدى هؤلاء الأشخاص" . كـما تثير مـخاوف العاملين والموظفين من البطالة والتشرد ، ومن المطالبـة بزيادة الأجور والرواتب أو تحسين شـروط العمل ، مـشيـرة الى « أن الناس لا يملكون حق الحـياة والوجـود إلا إذا كانوا أداة منتجة ومربحة» .

وتوجه الكاتبة الفرنسية أصابع الإتهام إلى الهيئات والمنظمات الدولية كالبنك الدولى وصندوق النقد الدولى والمنظمة الأوروبية للتنمية والتعاون الدولى التى تدعو إلى مزيد من المرونة الاقتصادية وتقليص الضـمانات الاجتماعية ، وترفض شطب ديون دول العـالم الثـالث التى تراكـمت لصـالح الدول الصناعـية . أمـا

النتيجـة المنطقية لهذا التفكيـر فهى وقوع ما يمكن وصفه بأنه "إبادة إقـتصادية "، ترمى الى التخلص من أعـباء الملايين من العاطلين والمشـردين وهى بذلك تذكر بالنظام الألمانى النازى ونظام « فيـشى » الفرنسى ، خلال الحرب العالميـة الثانية ، وتضيف: « فى ذلك الوقت لم يفهم إلا قليلون ما كان يدور حولهم ».

وقـد أحدث كـتاب « الإرهاب الاقـتـصادى» ضـجـة كبـيرة فى الأوسـاط السيـاسية والإقتـصادية الفرنسيـة، ورفض كثيـر من خبراء الاقتـصاد والمال ومن ممثلى المؤسسات والشركات الفـرنسية الرد على كتاب فيفيان فـورستر خوفاً من أن يتحول ذلك إلى مناقشة شاملة للأوضاع الاقتـصادية والاجتماعية السائدة فى فرنسـا ، وإلى إعتراف فعلى بما جـاء فى هذا الكتاب «الإرهابى » - كمـا وصفه البعض .

وفى بون عاصمة ألمانيا الاقتصادية علـقت إحدى الصحف الألمانية الأسبوعية الرصينة عـلى كتاب « الإرهاب الاقـتصادى » بأن هذا الـكتاب قد تحـول خلال الشهور الأخيرة إلى رمز للمقاومة ضد النظام فى فـرنسا ، كما يعتبر رقم مبيعاته القياسى صورة من صور الاحتجاج . تمامـا كما جرى فى الإضراب الكبير الذى جرى فى فـرنسا عـام ١٩٩٥، فضح كـتاب فيـفيان الـبطالة التى هى سمـة مميزة لعصـر العولمة الذى يتجـه أكثر فأكـثر إلى الاعتمـاد على الآلة والإستغناء أكـثر فـأكـثر عن العـمـالة. أصـبـحت الآلة تقوم بـكل وظائف الانسـان بل تلبى كل إحـتيـاجاته عن طريق الريمـوت " أو الروبوت "، فكلاهمـا يعبـران عن تلاشى الإنسان وإحـساسه بـالضآلة أمام تلك العـوالم، خاصـة إذا كان عاطلاً ومـشرداً

وجائعاً .. لقـد نشرت صحيفة النيـويورك تايمز مؤخراً تقريراً موثقـاً عن انتشار مصـانع وتجار الحـلوى فى مانهـاتن وبروكلين ، وتضمن صـوراً لأبواب مغلـقة بسـلاسل وأقـفـال لمنع العـمـال من الخـروج .. قـد نسـمع من أحـد الوزراء أو المسؤولين أنه لايوجد شئ كهذا فى أمريكا ، ولن يستطـيع أحد إخفاء حقيقة أن الانصراف عن النقـابات العماليـة ، وعدم التنظيم فى سـوق العمل يسيـر بمعدل أعلى من نظيره فى أوروبا التى أصـبح سوق العمل فيها يتـسم بإرتفاع التكاليف الاجتماعية وتطور سريع فى حقوق العمال وزيادة فى معدلات الأجور .. ورغم أن هناك حقيقـة مفادها أن الولايات المتحدة الأمريكيـة قد خلقت وظائف خلال العقد ونصف العـقد الماضى، تفوق وظائف أى من بلدان أوروبا والباسـيفيكى ، حيث بلـغت تلك الوظائف نحو ١٩مليـون وظيفة بـين عامى ١٩٧٩ و١٩٩٢ ، إلا أن المؤشر الصـحيح يتمـثل فى المقارنة بين معـدل زيادة الوظائف الجديدة فى تلك الفترة معدلها عام ١٩٧٩ ، وبذلك تصبح أمريكا فى مرتبة أقل من أستراليا وكندا .. وحتى هذه المقارنة تعد مضللة نوعاً ما لأنهـا لا تأخذ فى الإعتبار معدل النمو السكانى الذى تنامى فى أمـريكا بصورة أكبر من أى مكان آخـر فى العالم المتقدم، ففى البلاد ذات معدل النمـو المتزايد ، ربما تخطو دائما قفزات واسعة فى مجال التوظيف ، بينما تعتمد البـلاد ذات المعدل الراكد والمستقر فى السكان مثل ألمانيا على رفع نسبة الوظائف بالنسبة للسكان ..

عولمة الدمار :

شكل أخـرى يكشف عنه البـاحث العـربى إبراهيم زعـرور ، وهو أن البطالة

التى تزحف من أمريكا إلى أوروبـا وآسيا وكندا، وتعجـز إفريقيـا عن مواجهتـها الآن وفى المستقبل. ليست البطالة هى النقيصة الـوحيدة لمجتمع عولمة الإقتصاد ، بل الأهم هو الدمـار الشـامل الـذى يلحق الحـيـاة الإنسـانيـة والكرة الأرضـيـة والبـشرية بسـبب هذا النمط الإقـتـصادى الذى غـايته هـى الربح فقط. ويقـول زعـرور: ونستـفيق من الحلم لـنجد أنفـسنا أمام مـفـارقة فى الدخل لا يسـتطيع طيلسان الكـاهن اخفاءها، فـفى حين لا يزيد متـوسط الدخل علي ١٥٠ دولاراً شـهـرياً لدى بـعض البـلاد ، نجـده يقـفـز الـى ١٥ ألف دولار فى بلاد أخـرى. ويفسـرون لك ذلك التفـاوت بحرية الإنتـاج وعدالتـه ، تلك العدالة التـى تحقق للبعض مـا هو أكثر بكثيـر من المساواة! !لنتجـاوز سياسة الفـصل « الماكرة » بين عناصر التنمية ومستلزمات العيش الأولية ونتوقف أمام إنتاج المحاصيل تحديداً ، لنتأمل فى أراضى السودان والعراق والكونغـو والأرجنتين والبرازيل وأورغواى كمساحات هائلة ذات سهول فيضية بالغة الخصب ونرى

ما إذا كـان مسمـوحاً لهذه الدول ، وسـواها باستـغلال أراضيـها الاستـغلال الأمثل لتوفير رغيف الخبز للعالم . أعنى مساعدة هذه الدول لتسهيل مواصلاتها ونقل منتجاتها وإشـاعة الأمن فيها لتنصرف كليا إلى الإنتاج والنمـاء ومضاعفة المحاصيل من جـهة أخرى . لماذا يتم الضغط بشتـى الوسائل - حتى على الدول الصديقـة - لتبويـر نسبة من أراضـيها الخـصبة ؟ ولماذا يتم الضـغط لرفع الدعم المقدم للمزارعين فى كثير من الدول ذات الإنتـاجية العالية ؟ إن الإهمال وإساءة استـغـلال الأراضى الخـصبـة ، وإتلاف فـوائض المحاصـيل التى تزيد عن الحـد

الأعلى المسموح به ، هى إجراءات عادية لايجد دعاة العولمة غضاضة فى ممارستها رغم موت الملايين جوعا ، ومع ذلك يجرى غض الطرف عن هذا التدمير البيئى لأن أصحاب الامبراطوريات الصناعية لا يريدون لنا أن نرى غير « إنتاج العالم من المحاصيل التى تفى بحاجات سكان العالم » .. وتظل عملية التبوير وإتلاف الفوائض قائمة على قدم وساق مدعمة بنظريات الخبراء المسعورين بحجج المحافظة على الأسعار. إنهم يبررون هذا التدمير « الأنانى» بحجج تثبيت السعر ، وكأن الأسعار هى الهدف المقدس الوحيد لوجود الإنسان على الأرض التى إستخلفه الله عليها لتحقيقه، فالأسعار عندهم هى المحور والمحيط والقطب .. أما العذاب الإنسانى الجماعى وموت الملايين جوعاً، و الدمار البيئى ، فهى كلها أشياء خارج هذه الدائرة . خارج إهتمامات دورات تنشيط التجارة والمنافسة وثوابت الأسعار .. «يتعين علينا حماية مصالحنا »، هكذا يقول الأمريكيون فى تبرير قهر الإنسان وقهر البيئة . الأنكى من ذلك أن نجد أن ما يسمونها « مصالح » ليست موجهة لعموم الأميريكيين ، فالأرباح تؤدى إلى زيادة الرأسمالية وهذه بدورها تكرس التمايز الداخلى القائم بين الفقراء والمتخمين .. وهكذا يصبح نظام السيطرة جزءاً لا يتجزأ من نظام التدمير العام .. ومع كل هذه المفارقات ، نجد المتفاوضين من أشد البلاد فقرا وأفحشها غنى يجلسون متقابلين حول مائدة واحدة لترتيب تفاصيل شراكتهما ودخولهما سواسية ، وعلى قدم المساواة فى نظام السوق ، يتكلمون فى تفاصيل التفاصيل متجاهلين حقيقة أنهم يمارسون أكثر أنواع المساواة جوراً .

سكان الأكواخ ، من الأفارقة أنصاف العراة ، تحولوا على هامش هذه السياسة من خبـز الذرة إلى الخبـز الأبيض .. وهكذا يقـولون لك أين الخطأ فى أن يرتقى الناس بمعاشهم مـن رغيف الذرة الخشن الكئيب إلى الرغـيف الأبيض الجميل ؟ سؤال بات مـضللا لأنه يتجـاهل فداحة الـثمن الذى دفعـه الأفارقـة. لقد اضطر هؤلاء إلى استـبدال زراعة الذرة بزراعـة الفول السـودانى أو القطن كمحـاصيل نقدية مـطلوبة فى السوق العـالمى لتوفـر لهم ثمن القمح المسـتورد .. أما الـثمن الحقـيقى فتـدفعه التـربة المقهورة إنهـاكاً وتصحـراً .. فالفـول السودانى والقطن محاصيل مجدية تنهك الأرض خلال سنوات معدودة ، وتصحرها حتى لا تعود قادرة على إنتـاج ما يقيم أود أصـحابها لا من القـمح ولا من الذرة .. ولهذا بدأ الناس فى غرب إفريقيا يتساءلون عـن فداحة الثمن الذى دفعوه جراء هذا النوع من الترقى الذى أتاحه لهم نظام حرية السوق وعولمة الإقتصاد .

أما الدمـار الاجتمـاعى فقـد تمزقت سلسلة العلاقـات الاجتمـاعية وخـبرات الناس التى تراكـمت عبـر مئـات السنين وتوارثوها جيـلاً عن جيـل .. لقد فـقد العامل الإفريقى المنـهك كل ارتباطاته وعلاقاته وخبـرات آبائه كاملة ، تلك التى كانت تعطيه لونه وهويته ، وأصبح حائراً فى مواجهـة مستقبل لم يعد حتى أمهر العرافين بقادر على التنبؤ بما قد يجىء به فى الغد .

الفصل السابع:

تقزيم الدولـة

البشر يندفعون إلى و لاءات قبلية وعشائرية وجهوية

إن اللاعب والفاعل الرئيسى فى المنظومة الدولية منذ القدم هو الدول أو " الأمم " .. وقد أسهم بفاعلية فى وضع آليات الضبط والتنظيم للعلاقات فيما بينها .. ومن هنا فإن مصطلح " العلاقات الدولية " يرمز بطريق غير مباشر إلى أن العلاقات الأساسية هى القائمة بين الدول ، وليس بين أى وحدات أخرى ، حتى وإن وجدت إلى جانبها.. وقد مثلت المدرسة الواقعية هذه الفرضية فى المقام الأول، فتركز المدرسة الواقعية (سواء المدرسة الواقعية الكلاسيكية أو الواقعية البنيوية) على الدولة كالفاعل الرئيسى فى العلاقات فيما بينها. لقد عانت المدرسة الواقعية من نقد واسع مع تطور المنظومة الدولية ، وخاصة من جانب مفكرى الاعتماد المتبادل الذين يرون ضرورة عدم إغفال الفاعلين الدوليين الآخرين .. لقد احتكرت الدول فى عصر العلاقات الدولية إبان العصر الصناعى السياسة الدولية، ونبعت قوة الدولة فى الخارج من قوتها فى الداخل ،أى أن قوة الدولة على الساحة الدولية ما كانت إلا انعكاسا لقوتها فى مواجهة مجتمعها ، ولذا فإنه من الأهمية بمكان أن نستكشف تأثير الثورة المعلواتصالاتية على قوة الدولة فى الداخل. تكاد معظم الكتابات فى هذا المجال تجمع على أن ثورة الاتصالات ، وما ينتج عنها من مجتمع المعرفة سيؤديان إلى

(تقزيم الدولة) .

وبدأت الدول والحكومات تشعر بالضعف أمام تكنولوجيات جديدة لا تعترف بقيود .. ولا تحترم أية حدود .. وهذه التكنولوچيا الجديدة تخصم من سلطة ونفوذ الدولة التقليدية .. لتضيف لنفوذ وسلطة الفرد أو الجماعات والمؤسسات، أى أنها تخصم من سلطة الدولة لصالح اللاعبين الجدد على مسرح السياسة الدولية .. وقد انفردت الدول والحكومات بالسيطرة على العالم طوال الحرب الباردة بين ١٩٥٠ و ١٩٩٠، فقد كانت العقول الإلكترونية نادرة وكبيرة الحجم ، لكنها اليوم أصبحت صغيرة الحجم وفى متناول أى فرد فى أى مكان .. وأصبح من المعتاد أن ترى الحاسب الآلى الصغير موجوداً فى أصغر مقهى فى باريس أو واشنطن .. أو فى أدنى محلات البتزا فى روما. وانتقلت أجهزة الكمبيوتر إلى بيوت الأفراد .. كما أتيحت للجماعات، بكل ما فيها من إمكانات تساعد على الاتصال المباشر بعيداً عن سلطة ورقابة الدولة .. وطوال الحرب الباردة لم يكن للفاكس وجود تقريبا، ولم يكن ممكناً استخدام التليفون الدولى بدون سنترالات كبرى .. وكانت شبكات التليفزيون – قومية ومحلية – خاضعة لسلطة ورقابة الدولة ، ولكن اختلف الوضع تماماً فى الوقت الحالى ، وانحازت تكنولوچيا الاتصال والمعلومات إلى جانب الفرد أكثر من انحيازها للدولة .. وربما لن تستطيع إلا دول قليلة جداً أن تحرز النصر فى الحرب الجديدة ضد أجهزة الكمبيوتر الصغيرة ، وضد المكالمات التليفونية الدولية المباشرة ، وضد أجهزة الفاكس وأطباق الأقمار الصناعية ، وضد شبكة الإنترنت. وتبدو

الولايات المتحدة ذاتها ضعيفة فى مواجهة التكنولوچيات الجديدة وتأثيرها الرهيب رغم ما وصلت إليه من تقدم وثراء .

وبالتأكيد فإن كل ذلك يسهم فى انعدام النظام الدولى ، بعد أن اجتازت تكنولوچيا الاتصال والمعلومات الجديدة، جميع الحدود والقيود القائمة بين الدول والحكومات ، وأصبح من الصعب على أية دولة أن تتحكم فيما يمكن أن يعرفه مواطنوها، ولا يمكنها أيضا السيطرة على ما يمكن أن يعرفة الآخرون عن مواطنيها . وامتدت عوامل التعرية لتشمل مفهوم سيادة الدول ووحدة أراضيها . كما جاء فى نصوص ميثاق الأمم المتحدة فقد قام نظام الدولة القومية، وكل نظام دولى على مدى مئات السنين على أساس حق الدول فى احتكار السلطة داخل حدودها .. ونص ميثاق الأمم المتحدة على أن قيام أية دولة بالتدخل فى الشئون الداخلية لدولة أخرى بدون دعوة وطلب رسمى يعتبر من أعمال العدوان .. لكن هذا النص من ميثاق الامم المتحدة تعرض للتعرية والانتهاك، فى نفس الفترة التى كانت تجرى فيه صياغته على الورق، مع ظهور حركات حقوق الإنسان وحدود التصرف المشروع من جانب الدولة تجاه مواطنيها .

لكن الجانب الخطير فى هذه القضية هو انتشار فكرة حق الدول الأجنبية فى التدخل فى شؤون الدول الأخرى تحت دعاوى حماية الأقليات .. ومن المؤكد أن مثل هذا المبدأ قد يبدو من العوامل المساعدة على تنظيم العالم بعد الحرب الباردة ، لكنه أيضا يمكن أن يكون من أسباب الصراع والحرب .. ومع تعاظم فرص الاتصال بدون تكلفة تذكر عن طريق شبكة المعلومات " الإنترنت " وما

يشابهـا من تكنولوجيـا المعلومات والاتصـالات فقـد أصبح من شبـه المستـحيل السيطرة التامة على نوع وكم المعلومات التى تصل إلى عقول المواطنين .

إن الدولة طبـقاً للقانـون الدولى تتكون من إقليم وشعب وحكومـة فى أبسط التعريفات ونجد أن تأثير ثورة المعلواتصالات سلبى على العناصر الثلاثة المذكورة ، فالإقليم لـم يعد محـدداً كما كان من قبل نظراً لاختراع طرق متـعددة لاختراق هذا الإقليم ، وهى الأساليب التى لـم تكن موجودة من قبل. فى العصر الصناعى كانت الوسـيلة الوحيدة لاختـراق الاقليم هى الاختراق المادى وبالتـالى كان من السهل معرفة هذا الاختراق ووقفـه إذا ما توافرت القدرات .. وكان من الطبيعى فى العـصـر الصناعى الذى مـجـد المادة أن يكون الاهتـمـام الرئيـسى هو وقف اختـراق المادة وحمايـتها .. أمـا الآن فلم تعد للمـادة مكانتها المرمـوقة التـقليدية فمعظم الموارد التى تعتمد عليها هذه الحضارة هى موارد غير ملموسة وغير مرئية ومنها المعرفـة نفسها وهى عماد تكوين وحـجر زاوية الثورة المعلوماتية وبطبـيعة هذه العناصر غير المرئيـة ، يسهل تنقلها ويسهل اختراقها لأى إقليـم مهما كانت نوعية ودرجة الحماية المتوافرة.

أمـا بالـنسبـة للـعنصـر الثـانى وهو الشـعب ، فـنجـد أن تأثيــرات الثـورة المعلواتصالاتية هى أيضاً سلبية بالنسبـة له فالمهم فى الشعب ليس كونه مجموعة من البشـر كما قـد يوحى التفـسير القـانونى للمصطلح ، ولكن المهـم فى عنصر الشـعب وما له من تأثيـر مـباشـر على قوة الدولـة هو مدى تماسك هذا الشـعب ،وإيمانه وولائه للدولة التى يقطنهـا وينتمى نظرياً إليها .. وهذا ما يسمـيه علماء

السياسة بالشعور القومى ، وهو أحد أهم العوامل التى أدت إلى ظهور القومية .. أما عن الثورة المعلوماتية الحالية فإن أهم تأثير لها هو التأثير على إدراك المرء للزمان والمكان ، فمن نتائج ذلك تقليص التباعد الجغرافى فقد أصبح من المتاح الاتصال بأشخاص يقعون على مسافة كبيرة ، كان يصعب فى السابق قطعها ، متيحاً القيام بمهمات اتصالية عديدة كان يستحيل القيام بها إلا إذا كان الشخصان على مقربة، بعضهما من بعض. وقد أسهم هذا التحكم فى المسافات والقفز على الفواصل الجغرافية فى خلق نوع من الاحساس بالولاء والمشاركة وهو ما يطلق عليه المجتمعات الإلكترونية أو الجماعات المتخيلة ، ومن شأن ذلك أن يضعف من ولاء الشعوب للدولة التى توجد داخل حدودها فالتلاصق الجغرافى لم يعد الفيصل فى توفير امكانية الاتصال والتواصل .

و بالنسبة للعنصر الثالث من عناصر الدولة طبقاً للتعريف القانونى ، وهو وجود حكومة فاعلة تحكم الشعب المقيم فى إقليم محدد ، فلقد كان للثورة المعلواتصالية أثر كبير على تغيير طبيعة وظائفها أيضاً. إن المتتبع لمعظم الكتابات عن ثورة المعلومات يجد أن الفرضية الأساسية هى قلة الحاجة إلى الحكومة ومحاولة ترشيد دورها فى الحياة العامة إلى درجة التخلى عنها فى بعض الأحيان ، إن محاولة الإقلال من دور الحكومة فى الحياة الاقتصادية يعود إلى النظرية الليبرالية الاقتصادية التى تعول على قوى السوق للاضطلاع بالدور الرئيسى فى تنظيم الاقتصاد وكان ذلك فى العصر الصناعى. إلا أنه مع قدوم عصر المعلومات أخذت الآراء المنادية بتقليل دور الحكومة فى التزايد، مما يهدد وجود

الدولةبصفة أساسية، خاصة أن الحكومة هى أحد الأركان الأساسية فى التعريف السياسى للدولة والذى يحفظ للدولة احتكار الحق الـشرعى فى استخدام القوة، بالطبع لا يمكن إلا للحكومة فى الدولة أن تقوم بهذا الدور .

وهناك آراء لمفكرين يرون أن الدولة ما هى الا تجسيد للفساد وتشجيع عليه ، ذلك لأن أجهزة الدولة لا قوة لها على مجاراة السرعة التى تفرضها ثورة المعلومات، ويرجع ذلك إلى أن أجهزة الدولة مبنية فى الأساس على النظام البيروقراطى الهرمى الذى توافق أساساً مع العصر الصناعى ، ولكنه يعجز عن البقاء حياً فى العصر المعلوماتى. لقد تخلفت أجهزة الدولة عن موكب التطور الإدارى الذى صاحب ثورة المعلومات والاتصالات فى حين سارت الشركات الخاصة ، وقطعت شوطاً طويلاً يصعب على الأجهزة البيروقراطية فى الحكومة أن تلحق به، ولا عجب بعد هذا أن نسمع عن مسؤولين فى الحكومات وعن خططهم لإلغاء بعض الوزارات أو عن برامجهم لتخفيض شامل فى العمالة الحكومية.

وفى حين تفقد الدولة العديد من عناصر القوة التى تمتعت بها لأزمنة طويلة ، يظهر على الشاشة دور متنام لفاعلين آخرين اعتبروا فى الماضى ثانويين بل حرمت عليهم عضوية المنظوم الدولى لفترة طويلة حيث اعتبرت حكراً على الدولة. ولعل من أبرز الفاعلين الدوليين الشركات متعددة الجنسية الآخذة فى النمو والكبر والتى تجد لها مساحة متزايدة للعب دور كان يستحيل عليها لعبه فى الماضى .. وبالرغم من أن مصدر قوة هذه الشركات كان ولا يزال القوة

الاقتـصادية ، وليـس العسكرية أو السـياسـية، فـإن التغـيير الذى حـدث والذى أضاف إلى القـوة النسبـية لهـذه الشركـات هو أن طبيعـة العلاقـات العالميـة قد تغيرت لصالح الاقـتصاد وعلى حساب السياسة والاسـتـراتيچية. ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أن السياسة والقوة العسكـرية قد أصبحتا بلا أهمية ،ولكن لا يمكن لأحـد أن ينكرالدور المتنامى فى الأهمـية للاقـتصـاد فى العلاقـات بين المجتمعـات. وقد أدى ذلك منطقياً لزيادة أهميـة الشركات العملاقة الاقـتصادية التى قـادت حملـة تطوير هائلة من أجل تطوير هيـاكلهـا للتواؤم مـع متطلبـات الثورة المعلواتصـالاتية ولتعظم الاستفـادة من قدراتها وإمكاناتها، كـما أن حجم المعلومات المتاح يزداد بشـدة مما يصعب من عملية التنسـيق فى الإدارة خاصة فى المستويـات الوسطى ويؤدى ذلك فى النهاية إلى زيادة التعـقد واستحالة الـتعامل معها مـركزياً ، ولذا يصبح من الحتمى تفكيك الشـركة إلى شركات متـخصصة صـغيـرة قادرة على الـتكيف مع التغـيـرات السريعـة فى البـيئـة على عكس من الشركات الديـناصورات التى يستحيـل أن تساير سرعة الإيقاع فـى عالم الموجة الثالثة .

وبالإضافة إلى الشـركات متعـددة الجنسية ، نجد أنه أصبـح للأفراد دور متنام فى العلاقـات المجتمـعيـة، فلم تعد الدول هى قنوات الاتصـال الوحيدة المتـاحة للأفـراد والشـعـوب المـوجـودة فى دول مـختـلفـة حيث أتاحت تـكنولوجـيـا المعلواتصـالات الفـرصة أمـام الفـرد لكى يتواصل ويتـصل مع آخـرين فى دول أخرى دون الحاجة إلى المرور عبر القـنوات التقليدية التى كانت تحتكرها الدولة،

وفى هذا تعظيم لقدرة الأفـراد على التصرف والفـعل وإن كانت محـدودة حتى الآن ومازالت تخضع لقيود عديدة .

ولا يقتصر الاهتمام فقط على تغير طبيعة العضوية فى المنظوم الدولى ، بل إن عدد وحدات المنظـوم من المتوقع أن يتغيـر. لقد حذر الأمين العام لـلأمم المتحدة عدة مرات من إمكانية تضاعف عـدد الدول فى العالـم ، نظراً لموجة التفكك التى تصـيب الدول المصطنعـة وأبرزها الاتحـاد السـوفـيـتى السـابق ويوغـوسلافـيـا وتشكيوسلوفاكـيا وغيرها. وهناك من يتوقع أن تستمـر هذه الموجة لكى تتفكك دول كثـيرة أخـرى ، وتتكون دول أخرى مـحلها، والغريب أن ذلـك يحدث فى تزامن مع قوى العولمة أو الكونية بل ومع حركـات الاندماج الاقتصادى والتكتل والأسواق العـملاقة القارية. ويبـدو هذا متناقضاً للوهلة الأولى ،حـيث أن قوى الإندماج وقوى التشرذم والتفكك تتـواجدان جنباً إلى جنب، وهذا ما يطلق عليه « المحلية ». إن نفس العـوامل التى تدفع الدول إلى التفكك هى فى حقيـقة الأمر العوامل الـتى تدفع العالم إلى الإندمـاج، ولكن الفرق هو أن وحـدات الإندماج لم تعد الدول فـقط بل تشمل المناطق والمدن أيضـاً، ولذا نجد هناك من يعتـقد أن المستقبل يحمل فى طياته ما يطلق عليه " الدولة المنطقة ".

وإذا كان المنظوم المسـتقبلى للعلاقـات الأممية يحوى فاعلين دوليـين جدداً لم يتمرسوا من قـبل فى قواعد اللعبة ، فإنه من البديهى أن تسـود العالم فترات من عدم الاستقرار حتى يتعلم الفـاعلون الجدد القواعد والقوانين السائدة. والأغلب أن كل فـاعل جديد سـيحـاول أن يحسن من مـوقعـه مما يؤدى إلى تصارعـه مع

منافسيه، ويجعل فترات العنف تحتدم أكـثر والمنطقى أن هذه كلها فترات انتقالية حتى يتم التـعرف والتعود على الـقواعد القديمـة أو حتى إرساء قواعـد جديدة. لكن الجديد هنا هى النقطة المتـعلقة بمدى مسئولية كل فـاعل ، فالدول من خلال خبرتها التراكمية وطبيعـة تكوينها ، وكونها تمثل شعوباً لها حضارة ومعنويات ، طورت نوعا من المسئولية وهو ما يسميه البعض (مسئولية اجتماعية) .

يقول الكاتب الفرنسى أولـيفر دولف فى كتابه "العـولمة " إنها لم تولد إلا بعد أن توزعت الأرض بين دول معروفة المعالم والحدود ، تركز على قدسية السيادة. هذا التوزيع وبشكل رمزى ، يمكن أن نعيـد انطلاقته إلى مؤتمر برلين الذى أنهى قضـية تقـسيم القارة الإفـريقيـة بين عامى ١٨٨٥ - ١٨٨٧ .. وخـلال قرن من الزمن تبدلت معطيـات «الدولة» فى كل مكان باستثناء أمريكا، فـفى نهاية القرن التاسـع عشر لم يـكن هناك سوى عـشرات الدول التى أصـبحت اليـوم حوالى ٢٠٠ دولة، منهـا ١٨٤ دولة اعـضاء فى منـظمة الأمم المتـحـدة فى الوقت الذى شارك فى ألعـاب أطلانطا الاولمبيـة عام ١٩٩٦ ما لا يقـل عن ١٩٧ دولة .. لقد مضى الوقت الذى قـيل فيه إن للدولة اخـتصاصـاتها الكلاسيكيـة، أو بالأحرى عهد الدولة اللاتدخلية ، ومضى أيضا عهـد الدولة التدخلية ،لتصبح فيه الدولة ، مـسـتغـرقـة بـ « ثورة » رأس المال الرافـضـة للخـضوع لأى قـيـود ، و« ثورة » المعلومات الرافضة لأى رقابة ، و«ثورة» الشركـات الكبرى المتعددة الجنسية التى انقلبت فعلاً إلى دول فوق الدول ، وكأن الـصراعات الحدودية لم تعد تشكل إلا نموذجاً تقلـيدياً قديمـاً فى تاريخ نشأة الدولة أو رسم حـدود سيـادتها. ومن هذا

المنطلق يطرح منظرو الفكر الدستورى سؤالهم: هل بدأنا ندخل مرحلة نهاية « الإقليم» الذى طالما شكل أهم عنصر من عناصر تركيب الدولة، حيث إن هذه النهاية قد أخذت تمهد لها عناصر جديدة وقواعد مغايرة جعلت الدولة فى موقف الدفاع . وهكذا أصبحت الدولة فى تراجع وكل الأيديولوچيات أو شعارات الحرية والازدهار أيضاً، والأمن والاستقرار ، لتفسح المجال لشعارات اقتصادية مهمتها تفتيت كل المفاهيم الوطنية .

منافسة داخلية وخارجية :

وهكذا فإن الدولة كتجمع داخلى قد أصبحت تخضع إلى منافسة داخلية من قبل تجمعات « مالية » فى طور التوسع ، أى أن القاعدة القائلة بأن كل ما عدا الدولة من تجمعات يجب أن يخضع للدولة لم يعد لها مكانها فى ظل البحث عن الغد. وكل قاعدة أو قانون كان ينص على « قطاعات » تدخل ضمن اختصاصات الدولة ولا مجال لدخولها ضمن اختصاصات تجمعات هى أدنى من الدولة، قد طمست، وهى في طريقها إلى العدم. فلا غرابة أن نتحدث عن أفول الدولة لاعلى المستوى الوطنى فحسب بل حتى على المستوى العالمى، وكأن المجتمع الدولى مطالب بالاستعداد للاحتضار، إذ إنه ملزم بالخضوع من الآن فصاعداً إلى «سلطات » لا علاقة ولا رابطة لها بسلطة الدولة ، سلطات متشابكة متداخلة، هرمية التكوين حتى وإن لم تتضح تماما بالنسبة للبعض .

فى ظل العولمة انقلبت منظمات غير حكومية إلى منظمات متعددة الجنسية تبعا لأهدافها، كمنظمة العفو الدولية أو الصليب الأحمر أو منظمات الخضر

وحماية البيئة ، أو منظمات الـدفاع عن حقوق الانسان .. إلا أن منظمات أخرى « خارجة عن القانون » قد ولدت أيضا إلى جانبها ، مما يعنى ضرورة التطرق إلى مشكلة الأمن والاستقراربجدية أكثر فى ظل العولمة .. هناك مؤسسات تؤثر على الدولة القومـية ، وربما كانت توجه ضرباتـها إليها من أعلى .. ومنهـا المؤسسات العالمية .. مثل الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولى والبنك

الدولى ومنظمة التجـارة العالمية .. والمنظمات الإقليمـية مثل حلف الأطلنطى والاتحاد الأوروبى .. وهناك كيـانات أخرى توجه ضرباتها للدولة القـومية تحت مسميات تضفى عليها شرعية ظاهرية مثل المنظمات غير الحكومية، ومنها منظمة العفـو الدولية وحـركة السـلام الأخضر وأطـباء بلا حدود ، تسـاندها فى ذلك، والجماعات العرقـية التى تسعى للاستقلال ووسائل الإعلام والشـركات متعددة الجنسيـات. وقد تزايد دور مـعظم هذه المؤسسـات والهيئـات والجمـاعات على حساب الدولة القومية بشكلها التقليدى .. ويبدو أنها تسعى لملء الفراغ أو لأداء وظائف .. وتنفيذ جداول أعمال لا تقوم بها الدولة .

ويضـاف إلى ذلك نوع من الجـماعـات غـيـر المشروعـة التى تعـادى الدولة، وتحاول اسـتغـلال مالا تقـوم به الدولة لصالحـها .. وكل هذه الجـماعـات توجه ضرباتها للدولة ومؤسساتها من أسفل .. كما قلنا ، ولكن المثير حقا أن المنظمات الدولية والإقليمية توجه ضرباتها للدولة التقليدية من أعلى .. رغم أنها منظمات اشتركت الدول كلها فى تأسيسـها! !ومن الطبيعى أن يؤدى كل ذلك إلى انعدام النظام فى العـالم والمسألة قـضية اعـداد وارقام ..فـمن الصعب تنظيم الكـيانات

كثيرة العدد مقارنة بالكيانات قليلة العدد. وتفتقر كل هذه المنظمات والشركات الكبرى للمقدرة على ممارسة نشاطها ، وأداء أدوارها كأنها قوة كبرى تقوم بتنظيم العالم كما تريد، وتجد المنظمات الدولية بالذات أنها ليست مطلقة اليد، فهى دائما محكومة بما يتفق عليه أعضاؤها .. ويؤكد كل ذلك أن الدولة القومية مازالت اقوى وحدة فى العلاقات الدولية، رغم انها لا تحتكر السلطة أو لا يبدو أنها تحتكر السلطة والنفوذ . والنتيجة الطبيعية لكل هذه التغييرات التى طرأت على العالم بعد الحرب الباردة ، هى ظهور المزيد من مراكز صنع القرار فى العالم، وظهور لاعبين جدد يتحملون مسئولية أنفسهم على مسرح السياسة الدولية، ويتحملون مسئولية تنفيذ جدول الأعمال الخاصة بهم. وقد تزايدت سلطة المنظمات الدولية فى حالات عديدة أكثر مما كان يحدث فى الماضى، لكنها ليست قوية بما يكفى للردع ونزع فتيل الأزمات وتسوية الصراعات . وبعد سقوط الشيوعية حدثت

ثورة ليبرالية فى العالم كله .. واتجهت كل الدول تقريبا إلى سياسات التحرر الاقتصادى التجارى، أو ما يسمى أحيانا التحول إلى اقتصاد السوق الحر . ونشأت ترتيبات ومنظمات إقليمية جديدة واتفقت الولايات المتحدة وكندا والمكسيك على إقامة منطقة للتجارة الحرة فى أمريكا الشمالية (نافتا) . وسارعت دول غرب أوروبا إلى تحويل السوق الأوروبية المشتركة إلى الاتحاد الأوروبى .. الذى يفتح أبوابه أمام القادمين الجدد من شرق ووسط أوروبا . واتفقت الولايات المتحدة والصين واليابان على اقامة منطقة التجارة الحرة لدول

آسيـا والباسيفـيكى (أبيك)، وبعد توقيع اتفـاقية الجـات أقيمت منظمة التـجارة العالمية .

وتمثل الخصـخصة التى تعـد أحد النقـاط المهمة التى لا يتـهاون فيـها صندوق النقـد الدولى ، والبنك الدولـى ، الأساس الجـوهرى الذى يؤدى إلى إضـعـاف الدولة فى البلاد التى ترضخ لهذه البـرامج ، فالخصخصة - كـما يقول د. رمزى زكى - هى فى التحليل الأخيـر ليست إلا اعادة توزيع الثروة لصالح الرأسـمالية المحلية والأجنبية حيث يتسنى بمقتضاها نزع ملكية الدولة ونقل أصولها الإنتاجية للقطاع الخـاص ، بغض النظر عن هوية جنسـيـته .. ومن الغـريب بعـد كل هذه التطورات أن يتـصور البـعض أن سقـوط الاتحاد السـوفييـتى السابق مـن أسرار العالم الكبـرى فى أواخر القرن العـشرين .. وبالفعـل .. ربما كانت هناك بعض الأسرار التى مازالت مجهولة .. لا يعرفها الكثيرون فى قصة السقوط السوفييتى ، لكن ذلك لا ينفى أن سقـوط الاتحاد السوفييـتى كان حتمية سياسيـة وتاريخية وجغرافية لابد منها، فلم تكن القوة السوفيـيتية كافية للقيام بالدور العالمى الذى تمناه قادة الكريملين، كما أنها لم تكن كافيـة للامتداد الجغرافى الهائل من أقصى شرق آسيا إلى وسط أوروبا. والحقـيقة أنه لا توجد مفاجأة اقتصـادية أو سياسية فى السـقوط السـوفـييـتى . والمفـاجأة الوحـيـدة التى حدثت كـانت فى توقـيت السقوط، بعد سياسات جوربا تشوف ومـواقفه التى عجلت بالسقوط والاختفاء من خريطة العالم .

وفوق حطام الامبراطورية السوفييتيـة .. لم تتعرض الدولة القومية فى روسيا

للضعف

وحدها، بل ظهـرت أعراض الضعف على الدولة القـومية فى قـارات العالم الخـمس بلا اسـتثناء ، وأسـهـمت التطورات الاقـتـصادية والمـنجزات العلـميـة والتكنولوچية الجديدة فى سـرعة ظهور أعراض الضعف النسبى للدولـة القومية .. وربما كانت عـولمة العلاقات الاقتصـادية من الأسباب المباشـرة للضعف الذى تتعرض له الدولة القـومية بشكلها التقليدى فى أواخر الـقرن العشرين ، في ظل تزايد حـجم التجـارة الدولية وتزايد تدفق الاسـتثـمارات ورؤوس الأمـوال بين الدول . كما تضـاعف الاعتماد على مصـادر خارجية للمواد الخـام .. وكشفت الشركات العالمية مـتعددة الجنسيات عن قدراتها وإمكاناتها الـكبيرة على مسرح السياسة الدوليـة . ويمكن أن ندرك مدى تأثير هذه الشركات العمـلاقة فى حياة رعـايا دولة ما إذا عـرفنا أن هذه الشركـات تسـبح فوق بحـار هائلة من رؤوس الأمـوال والاستـثمـارات التى تبحث لهـا عن وطن يأويهـا ، ويوفر لهـا فرصـة الاستـثمـار والإنتاج والربح. وحـين تقرر أيـة شركة من هـذه الشركات إنـشاء مـصنع لها فى دولة مـا، فإن هـذا يعنى ببسـاطة توفـير فـرصة العـمل والكسب للآلاف من الأيدى العاملة .

وقد انتـشرت فى أسواق العالم منتـجات وسلع تحمل أسمـاء دول وجزر فى جنوب شـرق آسيـا ، لم يتصـور أحـد أبداً ذات يوم أن يكون لها دور فى إنتـاج سلع التكنولوجيـا الجديدة ، وتحدث العـالم طويلاً عن أساطير النمور الآسـيوية الجديـدة .. ولا يوجد سـر وراء القفـزة الاقتـصادية والتكنولوچيـة الهائلة لـهذه

الدول سوى أنها وفرت المأوى لرؤوس الاموال العالمية، الباحثة لنفسها عن وطن يأويها، ويوفر لها فرصة الاستقرار والإنتاج والتصدير والربح .

أحد أبرز الخبراء الأمريكيين فى الشئون الاستراتيچية والدولية مايكل كليرز له رؤية قد تكون مغايرة للرؤية الرسمية حول أسباب تفجر الصراعات المتنوعة اقتصادية واجتماعية وبيئية ، ويتعلق إجمالها فى الضغوط المتصاعدة على بيئة محدودة الموارد، وتزايد الهوة بين الفقر والغنى ، وارتفاع معدلات الزيادة السكانية وزيادة عدد السكان الذين يعيشون فى مستوى الفقر وفى مدن الصفيح ، وازدياد معدلات البطالة والتهميش .. وكل هذه العوامل

تكتسب قوة دفع كبيرة بسبب تآكل بنى الدولة مما يدفع البشر فى هذه البلدان الى التحول عن الولاءات الوطنية إلى ولاءات قبلية وعشائرية وجهوية للتعويض عن انعدام الموارد والخدمات المقدمة من قبل الدولة .. ويعكس هذا الواقع من بين أشياء أخرى ، ضعف مستويات الاندماج الوطنى فى هذه البلدان ،وهو أمر ضاعف من حدته فشل برامج التنمية .. هذه الصورة العامة والسريعة لبعض مسببات الصراع فى الفترة الراهنة لا يمكن استيعابها كاملة دون الخوض فى نقاش للعولمة وتناقضاتها ، وهو نقاش نظرى بالضرورة رغم أننا سنقدم إشارات هنا وهناك إلى بعض الجوانب السياسية والاقتصادية الملموسة بهدف ايضاح الصورة كاملة .

إعادة تشكيل الدولة

وتشير ساسكيا ساسن الأستاذة بجامعة كولومبيا إلى بعدين مهمين فى مسار

العولمة ، البعد الأول هو البعد التراكمى لتدفق الأحداث التاريخية والسياسية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانيـة وهو ما يعطى العولمة أساسها المادى والسياسى، والبعـد الثانى وتصـفه بالانقطاعـات البنيوية بين المرحلـتين السابقـة والراهنة .. وأهم سـمات هذه الانقـطاعات البنيـوية هي حـقيـقـة أن العولمة تعـيـد تشكيل الخصائص الرئيسـية للدولة فى البلدان النامية مما يؤثر فى ممارسـتها للسيادة على أراضيها. ويعود ذلك إلى أمور عدة من أهمها أن الدولة لم تعد الموضوع الوحيد للقـانون الدولى إذ أن هناك اهتـمامـاً متـزايداً بطبـيعـة ودور الشـركات العـابرة للقومية ومطالبها وما تمارسه من ضغوط على الدول، وبما تلعبه من دور كشريك فى صياغة القوانين والتشريعات التى تحمى مصالح رأس المال. الأمر الثانى الذى تشير اليه ساسكياسـاسن هو أن نتائج العولمة بوصفها مساراً معقـداً غير متساوية من حـيث المدى والآثار .. فـالعـولمة تعنى التـحـول من الاخـتراق الرأسـمـالى السيـاسى الذى يستهـدف التأثير على الدولة فى بيـئة دولية حكمـتها تناقـضات الحـرب البـاردة، إلى مـا هو أبعـد من ذلك ،أى الاخـتـراق الفـعـلى للحـدود الجغرافيـة، بحيث لا تصبح هذه الحدود تشكل أى عائق أمـام حركة رأس المال ، وإن ذلك يتم عبر عمليتين : تحييد المكان ونظم السيطرة. فالمكان بحد ذاتهلم يعد مهما لإتمام عـمليات الانتاج متى توافرت شروط أخرى، لكن هذا التـحييد يظل محكوماً ببنيـة تتمتع بقدر كبـير من المركزية على صعيـد الأطر الإدارية. العملية الثانية هى نظم السيطرة التى تحكم عمل وعمليات الشركات العابرة للقوميات .

وتضـيـف "سـاسن " ملاحـظات ثلاث حول هذا الـواقع الآخذ فى الانـبثـاق

والتجسد :

أولا : هناك ميل موضوعى لتجاوز ثنائية الوطنى - الدولى فى بلدان الجنوب بحيث يصبح البعد الوطنى شديد الضعف وبحيث يتم تكييفه وتشكيله من خلال شبكة علاقات اجتماعية واسعة ودولية المدى .

ثانيا : بروز المدينة العالمية إلى الواجهة أكثر من أى وقت مضى بحيث أصبحت هذه المدن بمثابة مراكز العصب للتدفقات المالية والعمليات التجارية ، مثل نيويورك ولندن وطوكيو وهونج كونج وغيرها .

ثالثا : رغم الدعاوى المتكررة حول حقوق الانسان ، فإن هذا الشعار ينطوى على بعدين متناقضين فى الممارسة العملية فى ظل العولمة : التحول من مبدأ حق الشعوب فى الاستقلال الوطنى وحقها فى تقرير المصير إلى حق الفرد المتضرر المعزول عن سياقاته البيئوية والثقافية ، وازدواجية المعايير بحكم اعتبارات چيواستراتيچية عند التعامل مع شعار حقوق الإنسان. وبموجب ذلك تصبح بعض الدول مسئولة عن مسلكها داخل حدودها أمام المجتمع الدولى فى حين يتم التغاضى عن سلوك دول أخرى حتى ولو كان خارج حدودها..

وتختتم ساسن ملاحظاتها بالقول بأن ما تسعى إليه العولمة فى بلدان الجنوب هو حكم بدون حكومة أو بحكومات ضعيفة ومحدودة الصلاحيات، لأن الشركات العابرة للقوميات أصبحت شريكاً فاعلاً للدولة فى ممارسة السلطات ومهام الحكم والسيادة .

ومن منطلق مختلف (من حيث فرضياته) يشير "جوردون ووكر وماركس

فـوكس" إلى أن العـولمة أصبـحت تعنى ، بفـضل التـقـدم فى ثقافـة المعلومـات والاتصـالات ، نهـاية الجغـرافـيا بمـفهـومـها التـقليـدى، ويظهـر ذلك فى زيادة التدفقات المالية عبـر الحدود ، وفى السعيلتعميم أنماط ثقافيـة مستمرة من الغرب على صعيد عالمى ، وفى نزع الصبغة الوطنية - القومية عن العمليات الاقتصادية ، لأن الحدود الجـغرافيـة تميل إلى فقـدان أهميتـها كفـواصل بين نظم اقتـصادية مخـتلفة وستتـعزز هذه الاتجاهات كلمـا تزايد الدمج بين تكنولوجيـا المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات .

ويقول الكاتب السياسى العربى جميل مطر : إن مسـيرة العولمة تتقدم مخترقة ، وأحيانا مهتكة ،كل الأستار التى احتمت بها الدولة العصرية منذ نشأتها ، وربما كانت الحقـوق السيادية هى أهم وأخطر ما فـقدته الدولة. ويرى بعض المفكرين وفقهاء القانون أن قضـية فقدان الحقوق السيادية قضيـة مهمة، بينما يراها منظور العولمة مسألة شكلية تافهة لا يستـحق التوقف كثيراً عندها. ويحذر الكثيرون من خلط شائع بين الدولة والسـيادة ، فالسيـادة - كما يقولون - سـابقة على الدولة ولم تكن بالضـرورة لصيـقة بالدولة أو مـرتبطة بها. الـسيـادة كمفـهوم نشـأ مع أرسطو منذ قرون ما قـبل الميلاد ، ومر المفهوم بتحولات مـهمة عند هوبز وبودان وخلال الثورتين الأمريكية والفـرنسية ، ولكنه يدخل الآن أهم مراحل تحوله. بدأ مفهوم السيادة مرتبطا بالحاكم، أى مشتـقاً من شرعيته، سواء كانت هذه الشرعية تاريخية أم سماوية ، وجاء مستنداً إلى قطعة أرض ، أى إلى إقليم. ومرت قرون مـتـعددة لم تـتوقف جـهـود الحكام خـلالهـا لوضع حـدود لهـذا الاقليم الذى

سيمارسون عليه هذه السيادة ، وانتهت هذه المحاولات بنشأة الدولة وبرزت قيم وعلت مكانة قيم ، بينها السيادة والقانون الدولى العام وغيرهما ، واستمرت هذه القيم مجتمعة تمثل أسس نظام الدول .. لقد خطت مسيرة العولمة خطوات واسعة نحو هدفها الأعظم ، أى نحو عالم واحد مكتمل الاندماج، ولعل أهم هذه الخطوات - كما يراها منظور العولمة - هى هذه الزيادة الكبيرة فى مساحة الأراضى والقضايا والسياسات والحقوق التى تم نزع «وطنيتها " أو «قوميتها » فى دول كثيرة . بمعنى آخر هذه الأمور التى نجحت مسيرة العولمة فى تحريرها من سلطة الدولة ومن قيود السيادة الوطنية، وليست الأرض التى تتحول إلى مناطق حرة ، هى الموضوع الوحيد فى الفقه السيادى المتزايد، ففى عدد كبير من الدول تأسست بنوك « خارج الإقليم ». بل إن

مفهوم المواطنة والمواطنين يتعرض الآن لإعادة نظر واجتهادات فى التعريف. فبفضل تقدم مسيرة العولمة واحتماء أفراد متزايدى العدد والنفوذ برموزها الخارجية ، أو اعتماداً على غموض بعض ممارساتها ، صارت لهم سلوكيات متميزة ، وهؤلاء يمكن أن يطلق عليهم تعبير أشخاص أو أفراد « فوق السيادة». لذلك لم تعد حركة رؤوس الأموال فى معظم بقاع العالم تخضع لأى قيد حقيقى ، سوى قيود السوق ولم تبق سوى نسبة قليلة من المال - ولكن أرقامها كبيرة - هى التى تسكن أو تتحرك فى سرية ، أو فى أطر غير إطار العولمة السائد، ولذلك فإن الحملتين الشرستين الناشبتين ضد سويسرا (الدولة والشعب والنظام المصرفى) وضد البنوك الإسلامية يندرجان تحت عنوان"ضبط

القوى المتمردة "على قواعد مسيرة العولمة أو المعرقلة لها .

القـضيـة هى الزيادة المطردة فى الـتحـرر من سلطة دسـتور الدولـة ونظامهـا القضائى . يـحدث الآن مثلا أن الشركـات المتعددة الجنسيـة تسعى إلى توزيع أو بكلمة أدق « بـعثرة » أنشطتـها الإنتاجـية وأجـهزتها الإدارية والماليـة على نطاق واسع، وأتوقع أن يأتـى يوم سـيكون من الصـعب فـيـه عـلى دولة من الدول أن تعرف بدقة عنوان المقر الرئيسى لشركة تمارس نشاطاً على أراضيها. فالملاحظ أن معـظم الشركـات تتجـه نحو تحـقيق درجـة قصـوى من اللامركـزية فى تخطيط وتنفيـذ أعمـالها ، إذ قد تـختار الشـركة بروكـسل مثلا مـقراً لإدارة الحـسابات ونيويورك مـقراً لإدارة الاستثمـارات ولندن مقراً للإدارة القانونيـة وأكابولكو أو سانت تروبيز مقراً لاجتمـاع مجلس الإدارة . إلا أن هذا الانتشار الواسع لأقسام أو أنشطة الشركـة العملاقة عـابرة الحدود ، يثيـر أحتمالاً بل واقـعاً تتعرض فـيه الشركـة لقوانين محلية مـتعددة وفى الغالب مـتضاربة أو متناقـضة ،ويؤدى هذا التطور إلى أن تبحث الدول والشـركات عن شكل قضـائى غير تقليدى لتـسوية النزاعات الناشئة بين الطرفين أى بين الدول والشركات ، وبين الشركات بعضها مع بعض. لذلك انتشـرت ظاهرة التحكيم التجارى الدولى ووصل عـدد مراكز التحكيم الدولية حتى عام ١٩٩٣ إلى أكثر من ١٢٠ مركز، وبلغ عدد المحكمين أكثر من ٢٠٠٠ محكم دولى. من ناحية أخرى يتوقع أن يتوالى

يتوالى انحسـار القانون الدولى العام بسبب انحسـار أهمية الدولة ، فى نفس الوقت الذى تصعد فيه اهمية الشركـات المتعددة الجنسية وما يتبع ذلك من زيادة

النزاعـات بين الدول والشركـات وانخفاض النـزاعات الدولية . ولكـن يبدو أن بعض المتمسكين بالدولـة والمتفائلين بمستقبلـها يردد أنه برغم وجاهة بعض هذه التوقعات المتعلقـة بمستقبل الدولة - وربما حتميتهـا - فان الدولة كأى كائن آخر يمكنهـا أن تتطور لتـتـأقلم وتكون ذات فـائدة ، إذ سـتظل الدولة هى المؤسـسـة الوحيدة الممنوحـة حق توقيع الاتفاقات الدولية المتـعلقة بتسريع وتعميق مـسيرة العولمة الاقـتصادية. وبالتـالى فإنها - أى الدولة - هى الأمل الوحـيد لتخـفيف بعض أهم وأخطر سلبيات العولمة مثل اللامساواة بين الشعوب وداخل الشعوب من خـلال المفـاوضـات التى تشـتـرك فيـهـا مع دول أخـرى وممثلى الشـركـات والمؤسـسـات الاقتـصـادية الدوليـة مثل صـندوق النقد الـدولى والبنك الدولى ومنظمة التجـارة العالمية ، وكلهم شركـاء فى قيادة مسيرة الـعولمة. ولذلك تتوقع تحليلات بعض مفكرى العـولمة أن يزداد اعتماد «الدولة» فى دعم شرعيـتها على مصادر وبيئات خارجية - وأن يقل جداً اعتمادها على المصادر الداخلية - بل إنه يتردد فـى بعض الكتابات أن السـيادة الوطنيـة قد تجـد لنفسـها ، أو يجـدون لها مضمـوناً جديداً ، خصوصا بعـد أن يقل اعتمادها على مصـادرها التقليدية وفى مقدمـتها الشرعية المسـتمدة من الحاكم أو الشرعـية المستمدة من الأمة باعـتبارها كانت - قبل تقدم مسيرة العولمة - مصدراً لسلطاتها .

لم أتحدث هنا عن تـطورات أخرى فى مسـيرة العولمة تحـققت على حـساب السيادة الوطنية. لم أتحـدث عن القنوات الفضائية العابرة للثقافـات والسياسات والأديان وصحافة المهـجر وصحافة المناطق الحرة ، ولا عن إنشـاء بعثات « فوق

دبلوماسية » لأجهزة الشرطة المحلية فى دول أخرى ، مثل بعثات مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى ، ولا عن ممثلات العولمة الاجتماعية كمنظمات حقوق الانسان ، وتمكين المرأة ، وتحديد النسل ،وتجريم عمالة الأطفال ، فهذه أيضا كالشركات عابرة الجنسية لامقار رئيسية لها ولكنها تخترق حدود الدولة وأحيانا تهدد سيادتها الوطنية بقوة هائلة وممارسات جديدة كانت توقفت معانفضاض نظم الوصاية مثل ظاهرة الاشراف « الدولى » على الانتخابات السياسية فى دولة أو أخرى. ويتحدثون فى الغرب عن أن أسواق المال العالمية والمؤسسات الاقتصادية الدولية قدحلت كلياً أو جزئياً محل المجالس البرلمانية والشعبية الوطنية فى التدقيق فى ماليات وحسابات واقتصاديات كثير من الحكومات ، بل يتأكد أن هذه الحكومات تقضى وقتاً أطول فى محاولة إقناع المؤسسات الدولية وأسواق المال وإرضائها أكثر مما تقضى فى شرح ومناقشة خططها وميزانياتها أمام ناخبيها ومؤسساتها الوطنية .

تبعية الصفوة :

الباحث المصرى د .أحمد عبدالله يرى أن السيادة الوطنية كلمة كبيرة بالدلالة اللغوية أما دلالاتها الاستعمالية فتشير إلى قدر من التناقض الوجدانى .. إن التساوى فى السيادة بين الدول سواء فى عضوية الجمعية العامة للأمم المتحدة أم فى بروتوكولات التعامل فيما بينها هو مسألة تتعلق بالشكل والمظهر أكثر مما تتعلق بجوهر العلاقات الدولية القائمة على موازين القوى . ومن هنا تختلف سيادة دولة عن أخرى من الناحية العملية فى المضمار الدولى . والدول الضعيفة

فى هذا المضمار ليس شرطاً أن تكون ضعيفة بنفس الدرجة داخل حدودها الإقليمية ومع مواطنيها .. بل الأرجح أن ينطبق عليها المثل القائل : "أسد عليّ وفى الحروب نعامة "!

إن مجرد وجود الدولة الوطنية فى الإطار المعاصر للحياة الدولية إنما يؤثر فى سيادتها بالنقصان منذ البداية ، وحتى الدول التى ارتأت العزلة عن بقية العالم .. مثل نموذج ألبانيا الفريد حتى زمن قريب بقيت فى اللاشعور راغبة فى التواصل مع الآخرين ، وهى تدافع عن سيادتها المطلقة. ومن الطريف أن معتزلي ألبانيا كانوا يسكبون كل يوم فى آذان البشرية مفردات خطابهم الستالينى عبر موجات الأثير ! ، ثم انتهى الأمر بالمشهد الدرامى لركاب القوارب الألبان الباحثين عن الملاذ فى إيطاليا القريبة !.

ويقول د. أحمد عبد الله إن السيادة الوطنية لا تتأثر فقط بالبيئة الدولية وانما تؤثر فيها. بالنظر الى ما أحدثته التغيرات التى عرفتها كل من بولندا وأفغانستان منذ مطلع الثمانينات،

وتمهيدها لعملية تفكيك الإمبراطورية السوفيتية ، ومادشنته الحالتان الإيرانية والجزائرية من توتر فى العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى، وعبر الحقبة الممتدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وإلى ما يقرب من نصف قرن من الزمان احتفظ النظام الدولى بنوع من "التوازن الحقبى " الذى دارت الصراعات البشرية فى حدوده . لقد حمل ثور التوازن الكرة الأرضية على قرنيه وإن بقى الحمل ثقيلاً والتوازن حرجاً ، وإذ تضعضع القرن الروسى بدت الكرة محمولة على القرن

الأمريكى وحده ليصبح الوضع أكثـر حرجا ، وهو الوضع الذى يتصوره البعض فى سذاجة نظامـاً عالمياً أحادى القطبية ، بـينما هو بطبائع الأشياء حالة مـؤقتة لا نظاماً مـستقراً . وحـتى تأتى الموازين المتأرجحـة بتوازن حقبى جـديد ، ستستـمر حالة الاضطرب والتغيرات السريعة التى يشـهدها العالم اليوم. لقد سقط العالم القديم، أما العالم الجديد فمازال قيد التشكل .

ويشيـر الباحث إلى اتجاه الصـفوة السيـاسية فى البـلاد نحو التـعلق الطفولى بأهداب الغرب، بدرجة جـعلت السيادة الوطنية فكراً وممارسة أمـراً مشكوكاً فى وجـوده من الأصل داخل منظومـتـهـا العـقـائدية والسلوكـيـة. وعلى أرضـيـة سيكولـوجيا التـسليم الطوعى ، راحت هذه الصفـوة تبرر وتفلسف خـضوعـها للهيمنة الأمريكية بخطاب - تنظيرى أو غـوغائى - فحواه أن " الأمريكان أسياد العالم " .. وأضاف أن التكنولوجيا التى استخدمت فى تدمير " بغداد " مثلت فى نفس الوقت طلقة إنذار لعالم بغداد ، أى عالم المتـمردين على الهيمنة الأمريكية ، ومن هنا أصبـحت كلمة " التكنولوجـيا " عفـريتاً يتم به تخويف دول السـيادة الهشـة التى تعودت تمـرير الأمر لمواطنيـها صراحـة أو مواربة بالحـديث عن نقل التكنولوجـيـا . ولقـد أصبـحت السـيـادة الوطنيـة هدفا هـشا فى مـرمى نيـران التكنولوجيا ، وصارت بذلك مفرغة من أى محتوى معنوى أو قيمة راسخة .

ويشيـر الباحث إلى مـسألة بروز قـضيـة الهوية فـيقـول : تعد حدود الـهوية متطابقـة مع حدود الدولة الوطنية ، إذ تفـرض مسألة الهـوية نفسهـا من زاويتين مختلفتـين ، زاوية "تكبيرية" تجعل للهوية أبعادا أممية أو عـابرة للحدود مثلما هو

الحال بـالنسبـة للهوية الإسـلاميـة ، وزاوية "تصغـيرية " تربط الهـوية بالانتـماء لجمـاعة عـرقيـة قد تكون مـتناهية فى الصـغر ، كـما هو الحال بـالنسبة لـبعض الانتماءات القبلية فى القارة الأفريقية. وفى هذا السياق يتعرض الانتماء الوطنى – ومعـه السيادة الوطنية – لـتحديات حقـيقة. ويبلغ الأمـر مستوى المأسـاة حين تنتشر الحـروب الأهلية والإقليمية حـول مشكلة أو ذريعة الهوية، فالهـوية تتخذ شكل الحركات السياسية التى تختلط لديها الدعوة بالادعاء ، والثقافى بالسياسى ، والدينى بالدنيوى ، والسلمى بالعنيف ، وما إلى ذلك من أبعاد تفرض تحديات على السلطات المحليـة وتطرح إشكالية نوعيـة وشرعيـة النظم السياسـية للدول الوطنيـة على بساط الـبحث. وحـين تكون لهـذه الحركـات وشائج أو عـواطف خارج الحـدود .. فإن مسـالة السيادة الوطنيـة نفسـها تكون محـلاً للبحث ، ولا يقتـصر التحدى بالـطبع على الحركات السيـاسية ذات الأبعـاد الأممية ، وإنما هو يشمل كـذلك كل التكوينات العابرة للحدود والـقارات مثل عصـابات الإجرام وتجارة المخـدرات. ولننظر مثـلاً إلى التحـدى الذى تتعـرض له السيادة الـوطنية لدولة مثل كولومـبيا ، سواء من عصـابات المخدرات ذات المناطق المحررة داخل الحدودأم من التدخل الأمريكى من خارج الحدود لمواجهة المخدرات المصدرة إلى الولايات المتحدة من منبعها الكولومبى .

والحـدود التى هى – قـدس أقداس الوطنيـة والسـيـادة الوطنيـة – أصبـحت موضعا للتـحدى فى العالم المعاصر ، حتى أنهـا تكاد أن تصبح حقيقة جـغرافية أكثـر منها حقيـقة سيـاسية وإنسانيـة . ففى كثـير من الحالات أصبـحت الحدود

مناطق اتصال لا مناطق انفصال ، وذلك بسبب الحقائق الإنسانية التى تجعل صلة القربى - العرقية أو الثقافية - جامعة للناس على الجانبين وإذ تفرض الاستحكامات العسكرية والسياسية ضد الحقائق الإنسانية ، يصبح الأمر مسخاً كاريكاتورياً على النحو الذى صوره الفنان دريد لحام فى فيلم " الحدود ". على أن التحدى الأكبر الذى يجعل الحدود " ملغاة " تقريباً هو تحدى وسائل الإعلام الدولية المتنقلة عبر موجات الهواء أو الهابطة من سماء الأقمار الصناعية . وهو التحدى الذى تلتقى عنده شبكة إشكاليات التكنولوجيا والأيديولوجيا ، العالمية والخصوصية ، الثقافية والسياسية ...إلخ. ولا يتعلق الأمر هنا بالنخبة الحاكمة أو المعارضة فى الدول الوطنية المستقلة ، وإنما هو يتعلق بعموم الناس. إن التغيرات العالمية - الهوائية والأرضية - إنما تفرض نفسها بالفعل على السيادة الوطنية للدولة المفترض أنها مستقلة وكاملة السيادة .. ومفهوم السيادة الوطنية - الذى ولد نسبياً من الأصل - يجب الحفاظ عليه، مع اجتهاد فكرى كافٍ لحسن صياغة التعريفات والمقاصد وبالتالى الواجبات والمسئوليات - بل والتضحيات - اللازمة للحفاظ على السيادة الوطنية القادرة فى نفس الوقت على التعامل ، بل والتأثير فى التغيرات العالمية .

ولكن أكثر مايثير التساول والتعجب لدى كل المصلحين هو ما يراه البعض بأن العولمة ليست مجرد "انفتاحات " إنما هى أيضا أشكال من "الانغلاقات " على أساس أن المناطق الأفضل ، أو بالأحرى تلك الدول المتطورة التى تتمتع بكل الامتيازات ، لا تود أن تتحمل أعباء " بؤس الآخرين ".. وعلى نطاق حتى

البلدان المتطورة ، فإن البؤس قـد حول بعض فئات شعوبهـا الى "فئات خطرة "، فما الذى يجـب أن نقدمه إلى هؤلاء؟ ما الذى تسـتطيع أن تفعله " الدولة "التى صدرت الأحكام بـ " غيابها "، وهى التى غـالبا ما عجزت عن الإحاطة بمثل هذه القضـايا وهى فى أوج عظمتهـا وسيادتهـا ؟ فى كل مجتمـع أناس يطلق عليهم اسم "المهمشين " أو غير المرغوب فيـهم .. الموضوعين تحت رقابة صارمة. إذا ما شـئنا أن نسـمح لإجراءات العـولمة بغـزو الحدود الـوطنية بكل حـرية، فـإنه من الأفضل ، ومن أجل حـماية الثروات أن تسـعى الدولة إلى وضع هؤلاء " خارج الدولة "، علماً بأن المجتمع الدولى المعاصرلم يعد فيه ما يسمى " خارج الدولة "!

الفصل الثامن:

حروب العولمة

عولمة بدون حروب .. شعار المثاليين

هل تبشر العولمة بما فيـها من ترابط فى الزمان والمكان واتصال البـشر جـميـعاً بعـصر خـالٍ من الحروب ؟ هذا مـا يبشـر به الحـالمون والمثـاليون ، الذيـن يرون أن الحروب كـانت بسـبب افـتقـاد الشعـوب إلى المعلومـات عن بعـضهـا ، ولم يروا أن الحـروب كـانت من أجل المصـالح الأنانيـة لبـعض الفـئـات والطبـقات. وعلى الـعكس فإن الواقع يؤكـد على أن العـولمة تبـشر بحـروب من نوع جديـد فى الشكل وفى المجال ، فـهى حـروب أكـثر إصـابة وتدمـيـراً للبـشـر دون الماديات ، وهى حـروب تسـتهـدف غـرف القـيادة المركـزية أولا وأيضـا هى حـروب اقـتـصـادية على الأسـواق .. أمـا فى الجنوب فـقـد اشـتعلت حـروب الإبادة ضد الأجناس الأقـل تطوراً أو استـعداداً للدخـول فى سـياق العـولمة .. وعلى بعـد آخر فـإن العـولمة قد يأتى مـعـها نوع من الثـورات والانقلابات مستنداً إلى تطورات وانجازات تكنولوجيا الاتصال.

فالصـراعات والتناقضات التى هـى أساس الحروب مازالت قـائمة فى صلب النظام الجديـد، بل تصبح أكثـر تعقيـداً أو تشابكاً مما يحـتم علينا دراستـها. ومع قدوم عصر المعلومات وأفول العصرالصناعى ، لابد من دراسة أثر ذلك على نمط الصراعـات المستقـبلية ، فمن غـير المتوقع أن يعم سـلام وتعاون أبدى ودائم بين

الدول ، فتلك كانت بعض مجادلات المدرسة المثـالية فى العلاقات الدولية ، وقد ثبت صعـوبة التسليم بـها كلها .. ولا يعنـى ذلك أنالصراع المسلح والمواجـهات العسكـرية الدامية قـدر ، وعلى الدول أن تتعـامل معـه . فهناك دراسـات عديدة حول أثر الثورة المعلوماتية على طبـيعة ونمط الصراع بين الدول . ولعل الزوجان توفلر همـا أول من قدم هـذه الفكرة فى كتـابهـما « الحـرب ونقيض الحـرب »، وذلك فى شرح مـبسط وواضح للقـراء بناء على مقابلات عـديدة مع مسـئولين أمنيـين أمريكيـين. ومفـاد الكتاب أن هناك عـلاقة ارتبـاطية مـباشرة بيـن الموجة الحضارية ونمط الصـراع. ففى حين تتجه الدول التى تنتـمى إلى العصر الصناعى إلى حـيازة أسلحـة الدمار الشـامل ، تقوم الحـرب الجديدة باسـتخدام الأسلـحة الذكيـة التى يمكنهـا تحديد الدمار والإصـابة المباشـرة .. كمـا أن من أساسـيات حرب المعلومات شل حركة ودائرة معالجة المعلومات فى أجهزة القيادة والتحكم فى القوات المسلحة .

وكما يدعم عـصر المعلومات القوة العسكرية ، ويوفـر لها من الأدوات ما لم يتوافر من قبل لأى قوات مسلحة ، فهناك من يرى فى هذا العصر بذرة لعلاقات تعاونية وسلامية بين الدول. وكانت هناك بالفعل خطوات ، بعضها بدأ منذ فترة نحو تقنين وتـنظيم المعلومات فى الساحـة الدولية .. إن أهم نقطة يعـتمد عليـها المتـفائـلون هى أنهم يفـسرون أسـبـاب الحروب على أنـها تنبع مـن عدم توافـر معلومـات صحيـحة كافـية عن الطرف الآخر . ولـذا عندما تتاح للمـجتمـعات فرصـة عبـور الجهل المتـبادل من خـلال تطبيق مـبدأ التدفـق الحر للمعـلومات ،

يستتب السلام . وعادة ما تقرن هذه المدرسة من التفكير التدفق الحر للمعلومات بالتبادل الحر للسلع ، والتجارة الدولية الحرة ، من منطلق ليبرالى .

ويرى الباحثان أن أى مؤسسة عسكرية يجب عليها القيام بأربع مهام أساسية بالنسبة للمعلومات وهى : حيازة ، ومعالجة ، وتوزيع ، وحماية تلك المعلومات عن طريق استخدام تكنولوجيا المعلومات المتقدمة . ولذا تصبح السياسات المحددة لتنمية وإستخدام تلك المعلومات أهم مكون من مكونات الاستراتيجية المعرفية. ومن ضمن هذه السياسات يذكر الكتاب نظرية الاتصالات التكنولوجية المتقدمة ، ويحدد لها بعدين: الأول هو بعد داخلي يتمثل فى القدرة على ربط كل الأجهزة المعنية ، والثانى ، بعد خارجى ، يتمثل فى إمكانيات التنسيق والإرتباط بشبكات إتصال دولية وإقليمية. ولكن الكتاب يحذر من خطورة تلك الإمكانيات المتطورة رغم ضرورتها ، حيث أنها تجعل النظام العسكرى أكثر حساسية وضعفاً تجاه الحرب التكنولوجية، ولذا يتحتم تحصين تلك النظم إلى أقصى مدى. ويدعو المؤلفان كل دولة إلى الإتجاه نحو تصميم الاستراتيجيات المعرفية المناسبة لها حيث إنهما يريان أن النظام المدنى السائد والنظام العسكرى يتلاحمان فى إمكانية استخدام الموارد التكنولوجية المتقدمة .

ويناقش المؤلفان بعد ذلك دور الجاسوس المستقبلى ،حيث يرون أن أجهزة المخابرات تتطور تطوراً يعكس أساليب الحرب المستحدثة ، وذلك من خلال القيام بدور جديد فى سياق التعامل مع المعلومات والاتصالات والمعرفة . حيث تصبح تلك المهام أكثر تحديداً وأدق مثلها مثل الأسلحة الحربية . أما عن المفارقة

الكبرى فى هذا المجال بالنسبة لما يحدث من تطور فى المجال العسكرى ، فهى أنه على العكس من الآخر يتطلب الزيادة فى استخدام العامل البشرى بالإضافة إلى استخدام الأدوات التكنولوجية المتطورة .

وجدير بالذكر أن الإشكالية الكبرى التى تواجه أجهزة المخابرات الحديثة هى أزمة "الشلل التـحليلى " حيث تفشل أحيـاناً التحليلات المهمـة فى الوصول إلى الشخص المناسب فى الوقت المنـاسب ، من أجل اتخاذ القرارات المصيـرية. وقد أدى هذا إلى إعادة النظر فى مـفهوم سـرية المعلومات، والتوجـه إلى التقليل من الضـوابط الخانقـة على سريان المعلومـات وتبادلهـا. وقد أدى ذلك إلى إمكانـية الحـصول على المعلومـات المهـمة من مـصـادر مفـتوحـة للجـميع، وبذا أصـبح الاعتماد على المصادر السرية فـقط أمراً يقود إلى أخطاء تحليلية. ويرى الكثيرون أن أجهزة المخـابرات يجب أن توضع على قمة البنية الأسـاسية المعرفيـة لحضارة الموجة الثالثة.

و يستعرض المؤلفان الأوجه القبيحـة والمخيفة لأساليب حرب الموجه الثالثة ، فيحـذران مما يسمى بـ "التحول المدنى للحرب " حـيث يخشى المؤلفان أن تنقل المصنوعات العسكرية من المصانع الحربية إلى المصانع المدنية وبذلك تنتشر المعرفة التكنولوجـية وتقع فى أيديـالجمـاعات الإرهابيـة، وتعطى قدرة عـسكرية لدول صغـيرة وفقـيرة وذات حكومات ضـعيفـة ،فيتفـشى اللانظام العالمى.. ثم يشـير الكتاب إلى ما أسماه " الإزدواجية القاتلة "، حيث تتجه جيوش الموجة الثالثة إلى إستخدام أسلـحة شديدة الدقة ، من أجل التقليل من آثار الدمار الشـامل وتحقيق

الأهداف العسكرية دون الاشتباك فى حرب ميدانية. فحين تتجه جيوش الموجه الثانية إلى حيازة أكبرعدد ممكن من أسلحة الدمار الشامل، الأمرالذى يشكل خطر الاشتباك المزدوج عن طريق إستخدام أسلوبين حربيين مختلفين مما يزيد من احتمالات الدمار الشامل والدموى لإحدى تلك الحضارات، خاصة عندما تتدخل عوامل أخرى فى المعادلة الحربية كدور سماسرة الحرب أو المنظمات المتطرفة .

ويقترح المؤلفان إنشاء شركة للسلام تقوم بمهام حفظ السلام فى أنحاء مختلفة من العالم، كما تقوم بمهمة تطوير تكنولوجيا تتبع أعمال العنف وأساليب الحرب الجديدة من أجل وقاية العالم من الحروب المستقبلية. ويدعو المؤلفان إلى أهمية التفكير فى كيفية بداية الحروب بدلاً من التركيز على كيفية إيقاف الحروب ، وذلك لأنه فى السلام ، كما فى الحرب ، تلعب كل من المعرفة والمعلومات دوراً مهماً .. وبالنسبة للنظام العالمى للقرن الواحد والعشرين ، يقدم المؤلفان فكرة نهاية الاتزان العالمى بدلا عن نظرية نهاية تاريخ العالم ، كما اقترحها الكثير من المفكرين أمثال فرانسيس فوكوياما. ويقوم المؤلفان بإعادة تقييم الافتراضات التى قامت عليها نظريات الأمن القومى المنتمية لحضارة الموجة الثانية تحت ضوء التغيرات المستعرضة خلال الكتاب .. وفى هذا السياق يرى المؤلفان أن قيم النظام والسلام والعقلانية هى الوضع الطبيعى للحياة ، وقد قامت نظرية ميزان القوة عليها ، لم تعد ذات مصداقية ، لأن تاريخ الحروب أثبت الخلل التى تتضمنه تلك الافتراضات وأن عوامل الحظ ، والمؤثرات

الخارجية ، والتعصب الدينى ، بالإضافة إلى عوامل أخرى ، قد أثبتت عكس الإفتراضات القائمة. وبناءً على ذلك يدعو المؤلفان إلى مبدأ " إفتقاد الاتزان "، حيث أن الأحداث الدولية تتسم بصفات متنوعة وبعيدة تمام البعد عن العقلانية الإنسانية المفترضة. ولكن رغم كل تلك المخاطر المذكورة لأساليب الحرب المستحدثة، يرحب

المؤلفان بالنظام العالمى الجديد ، الذى يحتوى على الكثير من الاختلاف والتطور ، وليس النظام العالمى المستقر الذى إقترحه الرئيس الأمريكى الأسبق جورج بوش، أو الذى توقعه المفكرون والباحثون إبان انتهاء الحرب الباردة. ولكن هناك نوعا آخر من الحروب فى عصر العولمة يتفق مع طبيعة هذه المرحلة، إنها الحروب الاقتصادية الضارية بين دول الشمال فى الأساس وبين القوى العولمية المختلفة فى أمريكا وأوروبا الغربية واليابان، والتى تتخذ شكلاً جديداً من أشكال الحروب .

أشكال جديدة للحروب :

وبنظرة سريعة إلى وقائع أحداث العقود الماضية وخطورتها، نجد أن الحروب والصراعات مستمرة وإن اتخذت أشكالاً جديدة. وإذا كانت الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين قد تميزت بالتكتلات العسكرية خصوصاً بين القوى التى اشتركت ثم انتصرت فى الحرب العالمية الثانية ، وعلى قاعدة النتائج التى انتهت إليها هذه الحرب، وبدء ما وصف بمرحلة الحروب الباردة التى شملت بتأثيراتها خريطة العالم كله، فإن الميزة الأولى والأساسية لعقدى

الثمانينات والتسعينات وما يشهده العالم حتى الآن هى السعى الحثيث لإقامة تكتلات من نوع آخر مختلف عن العقود الأربعة الماضية تماما ، هى التكتلات الاقتصادية الواسعة والكبيرة. ومع أنه فى تكتلات هذا النوع الأخير شيئاً من القوة العسكرية ، ولكن من دون أن تكون عسكرية تماما وشيئا من القوة السياسية من دون أن تكون كلها سياسية بدورها أيضا ، إلا أن سمتها المهمة هى أنها تتجاوز كل ما كان سائدا فى السياسات الدولية على مر التاريخ " التكتلات على أساس وحدة العرق أو اللون أو القومية أو الدين .. إلخ " لتضع وحدة المصالح الاقتصادية والمالية ، أو حتى مجرد تماثلها أو تشابهها ، هدفا وحيدا لها وفى رأس سلم أولوياتها السياسية .

فى سياق هذه المراحل كان " حلف شمالى الأطلنطى " بين ما وصف يومها بدول العالم الغربى هو الكتلة العسكرية للغرب بمعناه السياسى ، وحلف وارسو ، بين ما وصف بدولالعالم الشرقى أو العالم الاشتراكى هو الكتلة العسكرية للشرق بمعناه السياسى. وعلى مدى سنوات الأربعينات والخمسينات ، وتحت مظلتى هذين الحلفين الكبيرين ، بقوتهما التقليدية والنووية، تم عملياً تكريس تقسيم ألمانيا وكوريا على امتداد الفترة الزمنية اللاحقة كلها ، كما تم تقاسم المصالح والنفوذ فى أنحاء العالم الأخرى بما فى ذلك العالم العربى .. أما فى الثمانينات والتسعينات ، فقد بدأت مرحلة جديدة تماماً أنشئت فيها تكتلات اقتصادية بالغة الاهمية ، أولاً: فى حد ذاتها وثانيا لأن من شأنها أن تغير الكثير من معالم صورة العالم فى القرن الحادى والعشرين .. وأبرز هذه التكتلات حتى

الآن هو الاتحـاد الأوروبى الذى بلغ فى السنوات الأخيـرة مرحلـة متـقدمـة جداً على طريق الاعتـراف به ككيان واحد متكامل ، وإن كـانت دول أوروبية عدة لم تدخله بعـد ، فضلاً عـن وجود بعض العقـبات التى تعـترضـه من داخله. ويأتى بعده مـا يوصف بأنه منظمة دول البـاسيـفيك " اليابان والصـين وأستـراليا " فى الإطار نفسه. وكـذلك الطرح الاسرائيلى الذى بدأ فى التسعـينات وتحدث على لسان الحكومـتين الإسرائيليـتين السابقتـين عن " الشرق الأوسط الجديد "، كـما نشر رئيس الوزراء الاسـرائيلى السابق شمعـون بيريز كتاباً بالعنوان نـفسه. وفى المقابل هناك الطرح العربى الذى رفض الفكرة وعـمد إلى تسفيهها من أساسها مبرزاً كبديل عنها الحقيقة التـاريخية فى المنطقة " العالم العربى الجديد "، باعتباره السوق العربية الطبـيعية الموحدة ، وليس فى الجغرافياأو في المـصلحة الاقتصادية وحدهما ، وإنما أيضا وإضافة إلى ذلك كله فى التاريخ الواحد والمستقبل الواحد والثروات الطبيعية واللغة الواحدة .

أما الـغاية الأساسـية المعـلنة من هذه التكتلات، فـهى السعى لحل مـشكلات الإنسان، الغذائية أولا وقبل كل شىء، "، بعـد أن ضاقت الأرض بسكانها " كما تقـول المنظمـات التى تعنى بقـضـايا الزراعـة والأغـذية فى العـالم ، على طريق محاولة حل مشكلاته الأخرى ، المعيشية والصحية والسكنية والتعليمية ..إلخ .

وهناك غـاية أساسيـة أخرى ، وإن تكن غـير مـعلنة إلا فى كتـابات المفكرين والمحللين الاسـتراتيجـيين وحـدهم ، فهى الجـواب على السؤال الأكـبر والأهم الذى ساد منذ بداية القرن، والذى طرحته بشكل خـاص المرحلتان السابقتان كل

منهما على حدة وكلـتاهما معا ، مرحلة التكتلات العـسكرية ومرحلة التكتلات السـياسـية. وقـد أكد هذا السـؤال بما لا يدع مـجالاً للشك أن من يملك القـوة الاقتصادية فى العالم هو من يملك عملياً وموضوعيا القوة العسكرية والسياسية فيـه ، وبالتالى السيطرة ومـد النفوذ إلى خارج الحـدود ، وليس العكس .. وبهذا المعنى فمرحلة إنشـاء التكتلات الاقتصادية ، أو السعى لإنشـائها ، مؤهلة لتكون مرحلة " حرب باردة " كاملة ، من نوع جديد ، يستخدم كل طرف فيها ما يملكه من أسلحـة ونفوذ وهيـمنة هنا وهناك ، إن لم يكن لتـعزيز وتقـوية التكتل الذى ينتمى إليه ويرى فيـه مصلحته المباشرة ، فأقله العمل بكل وسـيلة ممكنة أو متاحة لمنع الآخرين من إقامة تكتلات منافسة .. وفى هذا المجال لم يعد خافيا على أحد فى أوروبا نفـسـها ، وبرغم ظـواهر الود الطافـية على السـطح من واشنطن إلى باريس وبون ولندن وغـيرها ، أن السيـاسة الفعليـة للولايات المتحـدة تقوم على العمل بجـهد وبكل وسيلة لعرقلة تطور الاتحـاد الأوروبى إلى قوة موحـدة فعلاً وبشكل كامل ، بالـقدر نفسـه الذى تحاول فيـه وضع العقبـات فى طريق الاتحاد الباسيفـيكى ، فضلا عن احتمال تطور جامـعة الدول العربية إلى جامعة حقـيقية للتكامل الاقتصادى بين الدول العربية .

ولم يكن التـدخل الأمريكى المبـاشر فى البوسنـة إلا النموذج الحى للمـسعى الأمريكى الموجه ضد أوروبا، وضـد اتحادها بشكل خاص. أدى هذا التدخل إلى الحيلولة دون الوصول إلى حل أوروبى للمشكلة، بل أنه فرض حلاً أمريكيا تمثل بـ " اتفـاق دايتون " الذى يشكل تقـسيـما للبـوسنة تحت شعـار إعادة توحـيدها

.كذلك ليس التحريض الأمريكى الدائم على الصين ، مرة تحت ستار الدفاع عن حقوق الانسان ، ومرة تحت ستار الخوف من محاولة تطوير القوة النووية الصينية ، إلا النموذج الآخر على سياسة زرع الأسافين الأمريكية ، فى سكة التقارب بين الصين واليابان وأستراليا لعرقلة أو تأخير أو حتى ضرب

احتمال وصول هذه الدول إلى إقامة تكتلها الاقتصادى فى شرق الكرة الأرضية .

أما فى المنطقة العربية ، فنماذج زرع العراقيل والعقبات لمنع قيام السوق العربية المشتركة والوحدة الاقتصادية العربية كثيرة ومتنوعة .. فضلاً عن أن دولاً أخرى كثيرة تشترك فى عملية الزرع هذه إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، والسبب الأهم فى ذلك من وجهة نظر هذه الدول ، يعود أولا وقبل كل شىء إلى الخوف من مثل هذه السوق العربية على اقتصادات العالم كله فى المستقبل ، انطلاقا من حقيقة تمركز عناصر الطاقة باعتبارها عصب الحياة والصناعة فى العالم فى هذه المنطقة بالذات ، إضافة إلى وجود هذه الكمية من الثروات المالية والنقدية الضخمة فيها .. وهكذا فقد عكست الحروب الاقتصادية بين تكتلات الشمال لغة جديدة لعصر جديد. صحيح أن هذه اللغة ليست واحدة فى كل بقاع العالم بل وليست واحدة بين دول الشمال نفسها، حيث سنجد لمعانى الصراع الاقتصادى بينها تجليات مختلفة تبعا لطبيعة كل تكتل اقتصادى وظروفه. فالصراع بين اليابان وأوروبا ليس هو نفسه بين الأخيرة والولايات المتحدة ولا هو نفسه بين الأخيرة والصين .. وهكذا .

بل إن الدور الذى لعبته الأوضاع الاقتصادية فى فترة ما عرف باسم الحرب الباردة ، أدى فى نهايتها إلى نتائج أخطر ، فأعيد تخطيط الحدود واندثرت امبراطوريات قديمة وقامت دول جديدة بلغ عددها أكثر من ١٧ دولة هى الجمهوريات التى كانت تكون ما يسمى بالاتحاد السوفييتى، وأيضا الجمهوريات التى كانت تكون ما كان يسمى بالاتحاد اليوغوسلافى .. وأعيد تقسيم خريطة المنتصرين والمهزومين ، فالاتحاد السوفييتى الذى دخل بجيشه الأحمر إلى برلين منذ نصف قرن ورفع العلم الأحمر على مقر المستشارية الألمانية الهتلرية يتلاشى تماماً من الوجود، وتعانى روسيا أكبر جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق أزمات اقتصادية وسياسية حادة. وألمانيا المهزومة منذ نصف قرن انقسمت إلى جمهوريتين تتصارعان فيما بينهما، وهى تقف الآن بعد توحيدها بإحساس قوى بالانتصار وهى تملك اقتصاداً قوياً يعتبر ثانى أقوى اقتصاد فى العالم، وتلعب دورا رئيسيا فى توحيد أوروبا، ليس

فقط من خلال دول ماستريخت والاتحاد الأوروبى، بل أيضا بضم بلدان شرق أوروبا إلى هذا الاتحاد.

كذلك فان اليابان التى رفعت رايات الاستسلام البيضاء بعد أن أدت القنبلة الذرية الأمريكية التى ألقيت على مدينتى هيروشيما ونجازاكى اليابانيتين منذ نصف قرن إلى تدمير وحشى للناس والمدن، فهى التى تحتل الآن فى الواقع مركز المنتصر، وقد أصبحت تملك أكبر قوة تصديرية فى العالم، وهى صاحبة اليد العليا فى الديون فى العالم من خلال موازينها التجارية مع الدول الأخرى التى

تعانى من عجز تجارى مع اليابان.

أما روسيا التى احتلت فى يوم من الأيام بعض الجـزر اليابانية ثمناً لانتصارها منذ نصف قـرن، فـهى تدق الأبـواب اليـابانيـة منذ سنوات طمـعـاً فى قـروض ومساعدات وتكنولوجيا حديثة ، بينما تملى اليابان شروطها التى وصفها الرئيس الروسى بوريس يلتسـين بأنها شروط قاسـية ومذلة .. إن ثمة صـراعات وحروبا تجرى بالفعل، كمـا أن بعضها يمكن أن يحدث أيضا فى المستـقبل دون أن يتخذ الشكل التقليـدى الذى عرفناه وخـبرناه فى الحربين العـالميتين الأولى والثـانية .. لقـد تصـور البعـض أنه خرج منتـصـرا وإلى الأبد من مـعـركة الحـرب البـاردة وترددت مقـولات ونظريات تحاول تـأكيد ذلك ، لعل مـن أهمها الكـتاب الذى خرج به الكاتب الأمريكى الجنسية فوكـوياما " نهاية التاريخ والرجل الأخير " .. وهناك كاتب أمريكى آخرطور نظريات فوكوياما عن الجيوب المعاكسة للانتصار الأمريكى والغـربى ووضعـها فى إطار صراع أو حـروب الثقافـات، فصـموئيل هنتجـتون يخرج بنظريـته التى تقول أن صـراع الغد سيكون فى الأسـاس حروباً ثقافيـة أو مواجهات حضـارية بين سبع تجمعـات أساسية بالإضافـة إلى التجمع الحضارى الأساسى من وجهة نظره والذى يقوم على القـيم الثقافية المستمدة من الحضـارة المسيـحية الـيهودية ، وهناك التـجمع الثـقافى الإسـلامى ، ثمالتـجمع الثقافـى الهندوكى ، ثم التجمع الثقـافى البوذى " اليابان "، والكونفـوشيوسى " الصينى " ، ثم التجـمع السلافى " الروسى " .. وفى كل الأحوال فإن مـا تبشر به هذه النظريات المشبوهة هو محاولة تعميد وتدشين فكرة التفوق والتفرد الشمالى

الغربى ، وحتمـية سيادة وهيمنة هذا الشمال بكل قيـمه وتراثه وعاداته حتى ولو أدى الأمر إلى حروب ثقافية .

ولكن رياح التغـيير التى عصفت بمعـادلة الحرب الباردة فى أشكالهـا القديمة واصلت انطلاقـها ، لتـقصف فى وتيـرة أسرع المقـومات الأسـاسية التـى حاول منظروها تأكيـد الانتصار الحـتمى للقيم الأمـريكية والغربيـة ، فالمؤرخ والكاتب الأمـريكى العالمـى بول كنيدى هو الـذى تولى تفنيـد وتمحيص هذه الادعـاءات حين قرر فى كتابه " على مشارف القرن الواحد والعشرين " أنه ليس صحيحاً أن أمريكا قـد كسبت الحرب البـاردة، ولكن الأصح أن كلا من روسيا وأمـريكا قد خسـرت هذه الحرب ، وأن المنتـصر الوحـيد هو قـوى الأطراف التى استـفادت طوال نصف قـرن بعد إنتـهاء الحـرب العـالمية الثـانية مـن وجود مظلة عـسكرية وتوازن نسبى فى القوى العسكرية لكل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة، وركـزت على الجانب الاقـتـصادى وتفـوقت فيـه. ومن هذه الزاوية اعـتبـر بول كيندى أن المنتـصر الحـقيقى هو المنتـصر فى حـروب اقتصـادية فى الأساس وأن عوامل الـنصر والهـزيمة لن تحـددها قوى الجيـوش أو القدرات التـدميـرية التى تملكها الدول ولكن القوة والثقل الاقتصادى، ويذهب كنيدى إلى ان أدوات هذه الحرب الجديدة منحصرة فى التعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا .

لقد جاء الاتجاه إلى اقامة التجمـعات الاقتصادية الكبيرة : الاتحاد الأوروبى ، السوق الأمريكية، النافتا ، التجـمع الآسيوى " أتيك"، ليؤكد مرة أخرى الصراع الاقتصـادى المباشر كبديل عن الصراع الأيـديولوجى والفكرى .. وأدى انفجار

المناوشات التجارية وما يمكن أن تسفر عنه مضاعفاتها من حروب تجارية طاحنة بين هذه التجمعـات الاقتصادية والسكانيةالكبيرة إلى هدم الأسس غـير المقدسة للمـبشرين الجـدد ، التى كانـت تقوم على هارمـونية الانتـصار الأبدى والقـيادة الواحدة المنفردة .. فالحروب والصراعات تاريخياً قامت - وتقوم - نتيجة تباين المصالح وتضـاربها ، فالصراع حـول الأسواق الذى تفجر يومـاً فى شكل حرب الحاصلات الزراعية بين دول الاتحاد الأوروبى وأمريكا قابل للانفجار دائما وفى قضايا أخرى .. كما تمثل مـشاكل الخلل فى الموازين التجارية الأمريكية مع دولة مثل اليابان والمعركة التى تسعى من خلالها إلى التقليل من السيطرة اليابانية على الأسواق العالمية مـشاكل مرشحة لمسارات معقـدة وخطرة. فالذى لا شك فيه أن العـالم مقـبل على اشكال جـديدة وخطرة من الصـراع ، فـالحرب البـاردة بكل موبقاتها كانت حرباً محكومة فى ظل وجود كتلتين لكل منهما ثقلها الاقتصادى وردعها العـسكرى المتوازن .. ولكن الحرب التجارية وفـتح الأسواق سواء بين دول الشمـال الغنى نفسـها أو بينهـا وبين دول الجنوب والتى مازالـت حتى الآن المصـدر الأساسى لأكثـر من ٧٠ % من المواد الخـام وخاصـة فى مـجال الطاقـة يمكن أن تتحـول مع تداعيـات المنافسات التـجارية المحتـومة إلى حـرب ساخنة ومدمرة.

ولا يهم بعد ذلك الشعارات والمبررات ، سياسية كانت أو دينيـة أو ثقافية أو حتى شـعارات إنسـانية مـثل حقوق الانسـان، فقـد عرفنا تماما أن هـذه المصالح الاقتصادية غالبا ما ترتدى مسوحا قومية أو ادعاءات عنصرية وعرقية وطائفية .

والأمثلة كثيرة سواء فى الصراعات التاريخية أو فى النيران المشتعلة فى الوقت الحاضر. إن "الحرب الاقتصادية " الدائرة الآن بين معظم الأقطاب الشمالية كثيراً ما غلفت بشعارات سياسية وثقافية متنوعة فى نفس الوقت الذى بدأ فيه كثير من هذه التكتلات فى الصراع على أسواق بعينها، ومعظمها فى دول الجنوب وبعضها فى دول العالم الثانى الآسيوى ، فالصراع الضارى بين الاتحاد الأوروبى والقطب الأمريكى حول المنطقة العربيةبشكل عام ومصر ودول الخليج العربى بشكل خاص قد انتهى لصالح القطب الأمريكى ولو مؤقتا ، فى نفس الوقت الذى حاولت فيه الولايات المتحدة أن تدعم نشاطها الاقتصادى فى العالم بالانفتاح على عدد من الدول الآسيوية ، فشكلت منظمة التعاون الاقتصادى لمنطقة آسيا ، وذلك لمحاولة حصار الصين اقتصادياً ومواجهة النشاط الأوروبى داخل بلدان النمور الآسيوية. بالمقابل فقد عانت دول الاتحاد الأوروبى فى حروبها الاقتصادية، ليس فقط مع القطب الأمريكى إنما أيضا مع كل من الصين واليابان وهو ما يتضح غالباً فى هذا الارتباط "الأنجلوسكسونى " بين بريطانيا والولايات المتحدة، التى جعلت الأولى فى أعين بعض الدول الأوروبية، وكأنها " صوت أمريكا " فى داخل الاتحاد الأوروبى. فى نفس الوقت فقد أثر توسيع الانضمام إلى دول الاتحاد الأوروبى من قدرته الاقتصادية وفاعليته الدولية . ولعل المساعدات والاستثمارات المتعددة التى تقوم بها دول الاتحاد الأوروبى ،وخاصة المانيا فى بلدان أوروبا الشرقية تمهيدا لضم ثلاثة منها على الأرجح بولندا والتشيك والمجر قريباً، لهو دليل آخر على خصوصية البناء

الأوروبى والصعوبات التى تواجه تحركه الاقتصادى والسياسى على مستوى العالم كله .. ومن هنا فان النقاط التى ربحها القطب الأمريكى طوال هذا العقد فى مواجهة دول الاتحاد الأوروبى بدت واضحة وذات دلالة على الرغم من كل المتاعب الاقتصادية التى يعانى منها النموذج الأمريكى بل وكل عوامل الضعف الكامنة فيه، إلا أنه لكونه يستند على دولة (قارة) ونموذج سياسى يتميز بالديناميكية الشديدة وسرعة الحركة بجانب امتلاكه آلة اعلامية هائلة القوة والتأثير وأيضا قوة عسكرية رادعة، كل ذلك قد عظم من دوره السياسى وبالتالى الاقتصادى فى العالم كله.

وكان من دواعى القلق لدى الكثيرين أن العولمة لم تبشر بتغير التقسيمات فى العالم، بل يمكن أن تسهم فى اتساع الهوة وبالتالى فى مخاطر قيام الحروب سواء بين الشمال والشمال اقتصاديا أو بين الشمال والجنوب ، والجنوب والجنوب عسكريا. وإذا كان يحلولبعض السياسيين أن يتحدث عن الكثافة السكانية المطردة كمبرر لعدم القدرة على توحيد العالم تقنياً وصناعياً ، إلا أن مثل هذا التبرير يصبح بلا معنى إذا ما قلنا إن ٢٠ % من السكان فى العالم يحتكرون ما لا يقل عن ٨٠ % من الدخل العالمى حالياً. بل إن هذا الاحتكار قد كان موجوداً حتى فى عهد الكتلتين، إذ ان ١٥ % من السكان فى العالم غير الماركسى كانوا يحتكرون ما لا يقل عن ٦٢ % من الدخل العالمى. وبديهى أن مثل هذا الاحتكار بوجهيه إنما يتعلق بالغرب ، ولأسباب سياسية خالصة ترفض الالتفات إلى قضية العدالة فى العلاقات الدولية ، كما ترفض الاستماع إلى

التحذيرات العملية التى تطلقها مجتمعات مختلف القارات، والمتمثلة فى قائمة طويلة من أعمال العنف والإرهاب ، والنزاعات الحدودية والداخلية العرقية التى قد تنذر بمرحلة من الانحطاط الاجتماعى الدولى، ارتسمت ملامحها على الأخص فى أوروبا بمناسبة الحرب البوسنية .

وإذا قبلنا المثل القائل بأن خير حقل للحرية هو السلم فإن خير حقل للسلم إنما هو الحياة الأفضل التى أفرزها التقدم التكنولوجى ، والتى لم تتوزع توزيعا عادلا بين شعوب الأرض ، الأمر الذى يعزز الأزمة التى تعيشها الديموقراطية السياسية . فلم تعد قادرة على احتواء مفهومها للحرية أو للسلم . يحثنا هذا على التأكيد بلا تردد ، على أن كل أسباب الحرب والتنافس وتفجر الصراعات وبؤر التوتر عبر العالم إنما هى أسس جوهرية دعمت فى التقدم العلمى والتكنولوجى منذ بداية القرن العشرين.

صراع السلطة:

هل تبشر العولمة بثورتها التكنولوجية بأشكال وأساليب جديدة فى الثورات والحروب الأهلية ،وممارسة الصراع على السلطة ؟ إن هذا ، تكشفه المقدمات ، فنحن نجد أنه كما لعبت تكنولوجيا الاتصال الحديثة أدواراً سياسية مهمة خلال الثمانينات .. ومن تلك الأدوار دورها فى تهيئة ودعم الانتفاضة نحو الديمقراطية فى شرق أوروبا والاتحاد السوفيتى ثم تسريع إيقاع حدوثها ، ثم فى التأثير على اتجاهات الرأى العام العالمى نحوها،

كما سبق أن لعبت أدواراً متشابهة بالنسبة لإيران والانتفاضة الفلسطينية.

وقبل ذلك كان لها دورها بالنسبة لعملية السلام فى الشرق الأوسط بدءاً من معاهدة كامب ديفيد فى نهاية السبعينات حتى الاتفاق الأردنى الفلسطينى فى التسعينات .. كما كان لتكنولوجيا الاتصال الحديثة دورها فى تعريف الرأى العام الدولى ببعض الأحداث السياسية فى دول العالم الثالث مثل : مذبحة صابرا و شاتيلا والانتفاضة الفلسطينية (انتفاضة الحجارة) فى الأرض المحتلة، من خلال تهريب الأفلام التى صورها الفلسطينيون بكاميرات الفيديو المحمولة إلى الخارج، وتسريبها إلى وكالات الأنباء العالمية التى قامت ببثها تليفزيونيا ، فاخترقت الحصار الإسرائيلى الإعلامى على أنباء الانتفاضة خلال التسعينات .

وخلال جهود المعارضة الاسلامية الشيعية لتدمير حكم الشاه فى ايران خلال نهاية السبعينات ، والتى قادها الإمام الخمينى من باريس، استخدمت التسجيلات الصوتية استخداما سرياً متسعاً سواء أعدت داخل ايران أم هربت اليها من الخارج .. وفى تدليله على الآثار السياسية والإجتماعية لتكنولوجيا الاتصال الحديثة، يعرض محمد حسنين هيكل لتجربة الرئيس الراحل محمد أنور السادات كواحد من قادة العالم الثالث الذين فهموا إمكانية ثورة وسائل الاتصال سواء على المستوى المحلى أو المستوى العالمى . ويصف هيكل تأثير الإعلام الدولى بتكنولوجياته العديدة على أنور السادات بقوله : إن السادات كان نجماً لامعاً يبدو قادراً على القفز فوق حدود الزمان والمكان ، ويمد يده مباشرة إلى أيدى وآذان ملايين من الناس لا يعرفهم، ومقياس النجاح والفشل بالنسبة له لا يقاس بعدد الأصوات التى حصل عليها فى انتخابات أو بحجم

أغلبيــة تقف وراءه فى برلمان ولكن بعــدد المرات التى ظهرت فــيها صــورته على أغلفــة مجــلات مثل " تايم " و"نيــوزويك "، وعــدد المرات التى ظهر فــيهــا على الشاشــة فى أحاديث مع أمــثال "والتركــرونكايت " و" باربارا والترز " و" دافــيد فروست"، وبالرحلة إلى القدس ليصنع لنفسه دائرة انتخابية عالمية. ولكنه ـ على حد تعبير محمد حسنين هيكل ـ قد خسر القاعدة الطبيعية التى كانت له باعتباره رئيساً لمصر وهى العالم العربى .

الفصل التاسع:

العولمة و العالم العربى

إسرائيل هى المنتفع الرئيسى فى مواجهة العرب

عندمـا هبت العولمة عـلى العالم العـربى .. كـانت بالنسبـة له أكثـر اختلافـا ، لعدة اعتـبارات منها مـا هو خاص بالظروف العربيـة ، وآخر خاص بـالأهمية التى يشـغلها العـالم العربى جيبولتـيكيا واقتصاديا فى النظام الجديد ، ومـنها ما هو خاص بالخصوصيـة الثقافية العربية الإسلامـية ، التى إن كانت عامل قوة وتماسك للكيـان العربى ،فهى عـامل تحد وتدميـر من قبل قوى العولمـة .

ومن الملاحظ أن السنوات العشرين الأخيرة من القرن المنصرم شهدت عدة ظواهر غريبة، مفاجـئة ومفجعة، اصطدمت بقيم الانسـان العربى الذى أفـقـده تلاحق الأحداث ومـفـاجآتهـا المدمرة الكثـير من توازنه ، وخـضع فيـها الكثيـر من المثقـفين لآليات القـدم الحديدية التى تسحق وتدمـر أمامهـا كل ما هو مـغاير أو ضـد أو مخـتلف ، وأدخلت المثـقف المطيع المتـعاون نحـو آلة تدويرها الجبارة ، ليـتحول إلى مجرد ترس فى جـزئيات قضاياها الغـريبة والمشوهة والتى أصبحت قضايا كبرى، فالختان مازال مستمراً لاغتصاب وانتهاك الإناث وسحق آدمى بشع لهن!! ، أمـا الحجـاب فكان عـودة للوراء وعصـر الحرملك وتحـويل المرأة إلى مستوى أقل من إنسانيتها، وهكذا إنها ليست « مشروعا ينتظر التحقيق

» ولا هى مجرد عملية « تسريع وتقوية للمنافسة والتبادل الدولى » بل إنها واقع فرض نفسه بواسطة « إمبراطوية الرأسمال النقدى» المستقل عن « الرأسمال الصناعى »، وإمبراطورية دفعت

« الليبرالية المتوحشة » الى أقصى مدى. وهكذا عملت العولمة على الإطاحة بالمؤسسات التى كانت قد قامت فى النصف الثانى من القرن الحالى بحماية التوازن الاجتماعى، الذى كانت تتولاه الدولة ، والذى تشمل عناصره الأساسية العامل المأجور بوصفه وسيلة للاندماج الاجتماعى ، فضلا عن كونه طريقا للمكسب الفردى ، والنظام النقدى الدولى المؤسس على قيم ثابتة للتبادل ، ووجود مؤسسات دولية قوية تفرض الانضباط والامتثال على الرأسمال الحر.

إن تقويض هذه العناصر الثلاثة أدى إلى البطالة والتهميش والإقصاء لدور ملايين الشباب، وإدخال المجتمعات حتى المتقدمة منها نسبياً فى بطالة هيكلية .. ومما يستدل به فى هذا الصدد مقالة نشرها أحد المسؤولين الكبار السابقين فى وزارة الدفاع الأمريكية فى مجلة « شؤون خارجية» الأمريكية (مارس / أبريل ١٩٩٦)، يشرح فيها كيف أن أمريكا ستتمكن فى المستقبل القريب من تعزيز سيطرتها السياسية على العالم، بفضل ما تتمتع به من قدرة لا مثيل لها فى دمج منظومات الإعلام المعقدة ، ويرى أن « الجيوبوليتيك » أو السياسة منظورا إليها من زاوية الجغرافيا (وبالتالى الهيمنة العالمية) أصبحت تعنى مراقبة سلطة تكنولوچيا الاعلام التى ترسم اليوم فى حدود المجال الاقتصادى السياسى التى ترسمها وسائل الاتصال الاليكترونية المتطورة .

وتطرح أيديولوچيا العولمة حدوداً أخرى ، وهى حدود امبراطورية غير مرئية ترسمها شبكات الهيمنة العالمية على الاقتصاد والأذواق والثقافة فى العالم العربى، كما فى الدول التى تطمح الى إرساء دعائم التنمية فى إطار وطنى قومى ينظر إلى العولمة كظاهرة يكون كل نمو أو تقدم فيها على حساب الدولة والأمة. و « العولمة » بهذا المعنى تعنى نقل اختصاصات الدولة وسلطتها فى المجال الاقتصادى والإعلامى أيضا إلى مؤسسات عالمية ، تماما مثلما أن الخصخصة يمثل نزع ملكية الدولة ونقلها الى أفراد ، وهم فى عصر العولمةليسوا بالضرورة من أبناء الوطن، بل هم « ينبغى أن يكونوا » من أصحاب رأس المال الذى لا وطن له. ومن هنا ينظر إلى العولمة على أنها تستهدف ثلاثة كيانات، الدولة والأمة والوطن. وإذا سحبنا هذه الكيانات الثلاثة فماذا يمكن أن يبقى على الساحة المحلية والدولية ؟يبقى ما يحل محلها جميعاً، الإمبراطورية العالمية والإمبراطورية الجديدة فى عصر العولمة وقوامها:

- الشركات والمؤسسات المتعددة الجنسية .

- القادرون على الاستهلاك والذين يوحد بينهم ويجمعهم ما تلقيه اليهم العولمة من سلع وبضائع ومنتجات إلكترونية تزرع فيهم ميولاً وأذواقاً ورغبات مشتركة .. إنها (الأممية) الاستهلاكية فى عصر العولمة .

- أما من لا تتوفر لديهم القدرة المالية على الاستهلاك، فهم معرضون للتهميش والإقصاء، وينتظر أن يتم التخلص منهم عن طريق (الاصطفاء الطبيعى) الذى يتوج المنافسة التى أصبحت تعنى أكثر من أى وقت مضى أكثرما

يمكن من الربح وأقل ما يمكن من العمال.

يقـول الكاتب المغـربى محـمدعـابد الجـابرى : هكذا يبـدو عالم العـولمة من منظور هذه التصـورات كعالم بدون دولة ، وبدون أمـة وبدون وطن، إنه عالم « المؤسسـات والشبكات ، عـالم الفاعلين » وهم المسـيرون ، و « المفـعول فـيهم » وهم المستـهلكون للمـأكولات والمعلبات والمـشروبات والصور و« المعـلومات » والحـركات والسكنات الـتى تفرض عليـهم فى الفـضاء الذى تـصنعه شـبكات الاتصال، ويحتـوى احتواءً كلاً من الاقتصـاد والسياسة والثقافـة الذى هو عبارة عن « وطن » جديد لا ينتمى لا إلى الجغـرافيا ولا إلى التاريخ ، أى « وطن » بلا «حـدود » وبدون ذاكـرة وبدون « تراث ». إذا كـانت العـولمة نظامـاً يقـفـز على الدولة والأمـة والوطن فـهو يعـمل على الأقل كنتـيجـة لذلك، على التـفتـيت والتشتيت .

إن إضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حـضورها لصالح العولمة يؤدى حتما إلى استـيقاظ أطـر للانتماء سـابقة على الدولة أو منافـسة لها مـتصـادمة معـها، كالقبيلة والطائفة والجهة والمذهب. والنتيـجة هى تفتيت المجتمع وتشتيت شمله، مما يجعل الـدولة أو ماسيـتبقى منهـا منهمكة فى شـأن واحد هو الحـفاظ على « الأمن » و « النظام » .. بالـفعل فـى نظام العـولمة يتـقلص دور الدولة كـمـراقب وموجه للمجال الاقتـصادى إلى درجة الصفر أو على الأقل يراد منه ذلك .. أما فى مجال الاتصـال والإعلام والثقافـة، فالمراقبة أصبـحت مستحيلـة عملياً إذ لم يعد للدولة فى هذا المجال سوى خيار واحد هو تسهيل الاتصال وسريان الإعلام

لفائدة الشبكات العالمية .. أما السياسة الخارجية فى نظام العولمة فتتولاها بصورة مباشرة أو غير مباشرة مؤسسات ما يسمى بـ « المجتمع الدولى » فضلاً عن التأثير الذى تمارسه المؤسسات الاقتصادية « العالمية » مثل صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ... وجميع الشئون التى ينتزعها طوفان العولمة من الدولة الوطنية ينتزعها أيضا من السياسة فيتركها بدون موضوع. لقد كانت السياسة تمارس إلى عهد قريب من خلال الاختلاف والاتفاق حول شئون الدولة اذ كانت الأحزاب مثلاً تتمايز بتنوع برامجها واختلافها وتناقضها ، وكان هناك فى الجملة اختياران اقتصاديان اجتماعيان تمارس فيهما ومن خلالهما السياسة، أحدهما يوصف بـ « اليسار » والآخر ينعت بـ « اليمين»، مع ما فى كل منهما من درجات وتعدد وتنوع، مما يفسح للممارسة السياسية مجالاً أوسع وأرحب ..أما اليوم فالعولمة تفرض طريقاً واحدا وهو « الدولة » وفكراً واحداً هو « الليبرالية » التى تعنى اليوم التخصيص والعولمة .

ووفقا لما قاله مؤلفو كتاب « ضد عولمة الاقتصاد » إشراف جرى ماندر وإدوارد جولد سميث، فإن زعماء العالم السياسيين والاقتصاديين يقومون الآن بإعاة هيكلة جذريةلاقتصاديات وسياسات العالم بما يؤثر جذرياً على حياة الانسان والطبيعة أكثر من أى تأثير حدث منذ الثورة الصناعية. وأمثلة ذلك هذه المؤسسات الدولية النشطة أمثال منظمة الجات، ومنظمة النافتا لدول شمال امريكا، ومعاهدة ماستريخت للوحدة الأوروبية، والبنك الدولى، وصندوق النقد الدولى. ومادامت العولمة قدراً لابد من التسليم به فليس أقل من أن يحاول

العرب تفادى ما يمكن تفاديه من أخطار .

وفى هذا السياق شدد الباحث الأردنى« واصف عازر » على ضرورة أن يعيد العرب النظر جذرياً فى علاقاتهم الاقتصادية، فما دامت السوق العالمية ستهدمهم فإن عليهم أن يتصرفوا بجدية من أجل قيام سوق عربية مشتركة ، وضرورة ربط الصناعة العربية بعضها ببعض وتطويرها ، وتشجيع البحث العلمى والابتكار والتفاعل مع العلم والتكنولوچيا الحديثة ، وتطوير المنتجات السلعية والخدمية العربية ، ليكونوا قادرين على دخول الأسواق العالمية على قدم المساواة . هكذا سيتحول العالم إلى سوق واحدة يأكل فيها القوى الضعيف، ويبيع فيها المنتج الجيد بضاعته إلى المستهلك العالمى .. أما المنتج الردئ فليس أمامه إلا الموت، فالهيمنة لن تخدم الضعفاء والمتخلفين. ولا تقتصر أخطار العولمة على العبودية الاقتصادية التى ستحل بشعوب العالم الضعيفة والفقيرة والمتخلفة ،فهى فى هذا الجانب لا تعنى تقسيم العالم إلى أغنياء وفقراء أو إلى منتجين ومستهلكين ، ولكنها تتعدى ذلك إلى إعادة صياغة العلاقات البشرية على نحو جديد ، لا يعود فيه للقومية أو الدين أو العرق أو الحدود السياسية أية قيمة تذكر .. ولن تقف دولة لمحاربة دولة أخرى لأن العالم سيكون محكوما لحفنة من الشركات المتعددة الجنسيات التى لا تتقيد بالحدود أو الجنسيات أو اللغات أو حدود العرق والقومية ، فما يجمعها معا هو المال والربح والهيمنة على السوق العالمى .

إن أخطر ما فى هذه الهيمنة أو «وحدانية السوق» هذه هو الانعكاسات

المدمرة، التى تلحق بالحياة الروحية للإنسان المعاصر ، فالسوق والاستهلاك وديماجوجية الإعلان ليست هى المقومات الوحيدة للحياة الإنسانية السوية. وقديما قال المسيح مقولته المأثورة «ليس بالخبز وحده يحيا الانسان»، أما الآن فيمكن القول إن وحدانية السوق سوف تقضى تدريجياً على الاستقرار الروحى للإنسان من جراء الركض المتواصل وراء الحاجات الاستهلاكية اليومية. وحدانية السوق أو العولمة تعنى عبادة وثن واحد هو المال.. تعنى أن تفقد الحياة معناها حين لا يقدم لها سوى منظور واحد ، وهو النمو الكمى للانتاج والاستهلاك. هذا ما يقوله المفكر الإسلامى الفرنسى روجيه جارودى ، ففى اقتصاد السوق، أى فى مجتمع كل ما فيه سلعة تباع وتشترى بما فى ذلك العمل البشرى ، تقوم شريعة الغاب المجردة من أية غاية إنسانية خالصة ، على أن اقتصاد السوق هو شكل من أشكال الاقتصاد الحيوانية. ولكن هل تعنى وحدانية السوق إمكانية التوصل يوما ما إلى وحدانية الثقافة ؟ ذلك هو ما تحاول الولايات المتحدة الأمريكية أن تفعله، فالرأسمالية الأمريكية التى أصبحت القوة الوحيدة المسيطرة على العالم ، تعتقد أنها قادرة على فرض نموذجها اللاانسانى على العالم .. نموذج سانت بربارة ودالاس ورامبو ومادونا ومايكل جاكسون، نموذج المسدس والدولار والجنس المنحل والجريمة ذات المكياج .. ومن هنا فليس غريباً أن يطلق أحد المفكرين صفة برميل القمامة على جهاز التليفزيون الذى ينقل إلى بيوتنا كل هذه الأوبئة. النموذج الثقافى الأمريكى و ثقافة النمط الواحد الأمريكى هى الخطر الذي حاولت أوروبا أن تضع حداً لانتشاره من خلال فرض رقابة صارمة

على سيل الانتـاج التليفزيونى والسيـنمائى الأمريكى، ولكنها تقف الآن عـاجزة عن التصدى لهذا التدفق الأكثر خطورة عـبر أجهزة الإنترنت ، أما الدول العربية فـحـتى لو أنهـا حاولـت إغلاق نوافـذها أو أبوابهـا فى وجـه طوفـان النمـوذج الأمريكى فهى لن تسـتطع إلى ذلك سبيلا لأن أنظمة الاتصالات العـالمية جعلت من الانعـزال الثقـافى مسـألة مسـتحـيلة. وإذا كانت العـولمة تنطوى ، فى بعض جوانبـها على إمكانيـة التبـادل الثقـافى بين الشعـوب ، فإن هذا التبـادل يقع فى المحظور نفـسـه الذى ما يـزال يعانى منـه إعلام عـالم الجنوب حـيث يتـدفق نمو الإعلام وفى اتجاه واحـد وهو إعلام دول الشمال، دون أن تتاح للإعـلام القاصر فى الجنوب فـرصة الوصـول إلى دول الشمـال. وكـما يسـيطر الإعلام الغـربى المقـروء والمرئى والمسمـوع على نوافذ عـقولنا، فـإن العولمة الثـقافـية والنـموذج الأقوى فـيهـا ، والأكبـر شراسة وشـروراً وهو النموذج الأمـريكى سيظـل يهدد حياتنا الروحية وحياة أجيالنا القادمة .

إن ما نشاهده فى تيـار العولمة ، أو زوابعها وعواصـفها بالنسبـة للعالم العربى هو أنهـا تحمل فى طيـاتها الكثـير من التـهديدات والمخـاطر ليس على المسـتوى الاقتصادى ، حيث إن المنافسة

والتجارة الحرة غير المتكافئة تعنى تدمـير كافة أشكال الإنتاج غير القادرة على المنافسة واخراجها من سوق الانتاج. أما القوى البشرية غير المؤهلة والمدربة ، فلا مكان لها فى عالم الاختيار الطبيعى ، الذى يعنى عزلها فى بؤر الجريمة أو الفاقة أو الموت خارج التاريخ. تعانى المجتمـعات العربية من حالة ضعف ووهن الدولة

السـيـاسى والأيديولـوچى ، وهو الضـعف الذى تـولدت عنه ظواهر الـعنف والتطرف لجمـاعات واسعة خـارجة على النظام والدولة. تفتقـد الدولة أيضاً فى ظل هذا النظام إعـلامهـا الذى اسـتبـاحتـه القنوات الفـضائـية، وأسـواقهـا التى استبـاحتها الشـركات متعـددة الجنسيات، ونظامهـا السياسى الذى أصبح مـقيداً بقرارات الهيئات الدولية. غيرأن الأخطر فى ذلك هو تأثير العولمة على مجريات إدارة الصـراع مع إسرائيل ، التى تحـاول الدفع بحل الصـراع فى إطار بعيـد عن الشرعيـة القانونية والدولية ، حـيث تشغل إسرائيل موقعـاً هاماً واستراتيـچياً فى إطار نظام العـولمة ، وهذا يقود إلى أن حل الصـراع يعنى إضفـاء القوة والنـفوذ على الوضع الإسـرائيلى، وبروزها كتـجمع ليـهود العـالم الذين يشغلون مـوقع الصدارة فى الاقتـصاد العالمى والإعلام العـالمى والمنظمات والهيئـات الدولية .. فإذا انتـقلنا إلى الجانب الثقـافى الذى تبرز فيـه الهوية العربيـة الاسلامية كـعامل جذب وقوة لايستهان بها فى مقاومة ثقافة العولمة ، فلنا أن نتخيل ضراوة المعركة ضد الإسلام والثقافة العربية والتقاليد.

وحدة التكتل - الانشطار

يقول الكاتب الموريتانى السيد ولد اباه : إن ضـبط حركية العولمة فى الأدبيات العربية السـيارة لم يسلم فى الغالب من المسلك التبسـيطى ، الذى يكتفى بتكرير المستنسـخات الرائجة فى الغـرب ، مثل التـبشير بـالقرية الإليكترونيـة، والسوق العالميـة المتجانسة الموحـدة ، والقيم الكوكبـية التى تقضى على الحـواجز الثقافـية وأنماط التمايز الحضارى. ولذا فإنه لابد

هنا من التـميـيز داخل ظاهرة الـعولمة بين مـقومـات تقارب ثقـافات العـالـم، ومحـاولة فرض نموذج مـعين على كل العالـم. إن الثورة الاتصالـية المعلومـاتية يجب أن تكون هى البنية التحتية للتقـارب، وليست توظيفاً "أيديولوجيا" لتمرير وفرض نموذج ثقافى مجتمعى بعينه : النمـوذج الغربى فى صيغته الأمريكية. إننا نسـتشف من بعض الكتـابات المستـقبـلية الأخـيرة (الفـين توفلر مثـلاً) النزوع الواضح نحـو تحميل أدوات العـولمة برؤية كوكـبية مـرتبطة بها ، مما يـطرح بقوة سؤال الحد الفاصل بين القيم الشمولية الجامعة والمعايير الخصوصية المفروضة .

والواقع أن الخطابيـن كلاهـما يـترجـم اتجاهـين بارزين فى الخـارطة الدوليـة الجديدة ، المنبـثقة عن نهـايةالحرب الباردة ، وهمـا : مسار التكتل وإنهـاء الحدود والفوارق ومسار التفكك والتجزؤ والانكفاء على الخصوصيات العرقية والثقافية . ولا نحتـاج هنا إلى تبـيين ملامح الاتجـاهين المذكوريـن ، وحسبنا الإحـالة الى مـؤشرات الاندمـاج الاقـتصـادى والتقنـى على المستـويين الإقليـمى والدولى ، وتوجيه النظر إلى السـاحات الدولية الملتهبة بشـتى الكيانات القطرية فى البلدان الجنوبيـة ، بل وفى الـقـارة الأوروبيـة .. من هنا نصل إلى مكانـة ومـوقع الفكر القومى العربى فى عـالم تطبعه ديناميكيـة ، ويتنكر لأيديولوچيا التميـز الثقافى ، وتكتسب فيه الكيـانات القطرية الصغيرة فى الوقت نفسه حق البـقاء والانفصال عن الدول المتنوعة علـى مستوى التـركيبـة العرقيـة والدينية. لا نعدم فى مـجالنا العـربى من يسـتنتج انهيـار الفكرة العـروبيـة ذاتها، وأن اصـلاح النظام العـربى وعلاج مظاهر خلله ، مشروطان بإلغاء التصور الاندماجى التوحيدى ، وتكريس

المعادلة القطرية على المستوى السياسى مع الاقرار بالمظلة الثقافية الجامعة للعرب ، التى لا تختلف من هذا المنظور عن عوامل التقارب اللغوى والبشرى بين أقطار أمريكا الجنوبية .. إنما السؤال المطروح يظل : ما البديل عن النموذج القومى فى ضوء المتغيرات الدولية الجديدة ، التى هى الاتجاه الى العولمة ، والاتجاه المضاد إلى التفكك والتصادم الثقافى والعرقى؟

إن المنطقة العربية بحكم موقعها الاستراتيچى والاقتصادى ، تشكل هدفاً حيوياً لديناميكية طوفان العولمة ، حتى ولو كانت إحدى المناطق الأكثر تمنعاً على الاختراق الثقافى، كما انها تعرف نفس الأزمة المستحكمة التى تطبع الدول القطرية ، مما يزكى نوازع التفكك والانفصال، خصوصاً إذا راعينا الطابع المتنوع للتركيبة الديمغرافية فى أغلب الأقطار العربية.

لقد عجزت النخبة السياسية العربية عن قراءة المتغيرات الدولية الجديدة التى تفرض على البلدان الصغيرة الاحتماء بالتكتلات الإقليمية الواسعة لمواجهة الإشكالات الداخلية ، التى لم يعد بالإمكان حلها على المستوى الوطنى الضيق ، حتى فى الأقطار الأوروبية الأكثر نمواً. صحيح أن النظام الإقليمى العربى ، لا يمكنه أن يماثل فى الوقت الحاضر النموذج الأوروبى ، الذى نجح فى خلق آليات الثقة المتبادلة بين عناصره ودفعها إلى التكافؤ فيما بينها. ومن أبرز هذه الآليات النظام الديمقراطى ، وذلك ما يجعل المطلب الديمقراطى مكوناً مركزياً من مكونات الدعوة القومية كما يطرحها الفكر السياسى العربى فى أيامنا، إلا أن الوعى بعوائق الاندماج الاقليمى العربى ، لا ينبغى أن يكون مبررا للتنصل

من المرجعية القـومية نفسها ، التى ليس لها محـتوى أيديولوچى بعينه، حتى ولو رأت بعض الأنظمة احتكارها والاسـتئثار بها. فـلا يزال المطلب الوحدوى مطلباً مشروعاً وضرروياً ، بل ملحاً أكثر من أى وقت مضى. ذلك أن البديل عنه ، هو إما تكريس التفكـك القطرى والانكفاء العرقى والطائفى الذى يتهـدد الكثير من الساحـات العربيـة ، أو الانجراف فى معـادلات إقليميـة ودولية هجيـنة ليس لها مقومات موضوعية للقيام والاسـتمرار (الشراكة الشرق أوسطية أو المتوسطية أو الأطلنطية). بقى أن الفكرة القـومية تقتضى تجديد الطرح والمضـمون وإعادة بناء المقومات والأسس المنهجية ،لاستيعاب حقائق المرحلة ومتغيراتها .

تمر معظم الدول العربية بمرحلة مخاض اجتمـاعى وسياسى ـ كما يرى الخبير الاقتصادى د. حازم الببلاوى ـ فمعظم الدول العربية تأخذ بإصلاحات اقتصادية للانتقـال إلى اقتـصاد السوق ،مما ترتب علـيه ظهور توترات اجـتماعـية مـتصلة بارتفاع مـعدلات البطالة وقـسوة تكاليف الحـياة على الطبقـات الفقـيرة .. وفى نفس الوقت فـإن التحـول التدريجـى إلى مزيد من المشـاركةالسـياسـية وظهـور الأحزاب لا يتم دائـما فى سهـولة حيث تتـزايد الدعوات الأصـولية المصطحـبة أحيانا بأشكال العنف فى بعض الدول . فى ظل عولمة الاقتصاد لامكان لاقتصاد غيـر تنافسى، فالدول - وخـاصة الدول الصغيـرة- ليس أمامهـا خيار كبـير فى اختـيار النظـام الاقتصـادى ، بل عليهـا أن تتبع الـسياسـات وتنشئ المؤسـسات الكفـيلة بتوفـير إمكانات الـكفاءة والإشـادة. ومن هنا فإن دول المنطقـة مدعـوة للأخـذ بنظم صـارمة للانـضبـاط المالى والنقـدى ، وتوفـير مـقـومات المـنافسـة

الاقتصادية السليمة .

ولا يتطلب الأمر مجرد الأخذ "بالتخصيصية" وتحويل القطاع العام إلى القطاع الخاص ، بل يتطلب ذلك حزمة من السياسات المناسبة فى وجود نظام قانونى واضح وسليم ، ومكاشفة كاملة وتوفير البيانات والمعلومات السليمة، والرقابة على الأسواق وسلامة المواصفات ومنع الاحتكار، وغير ذلك مما هو مطلوب لسلامة النظام الاقتصادى. على أن اختيار النظام الاقتصادى السليم لإمكان المنافسة العالمية لن يقدر له النجاح ما لم يصطحب بتوفير قدر من العدالة الاجتماعية ومحاربة الفساد. وهذا وذاك يتطلبان قدرا من الحرية والمساواة وتثبيت أركان دولة القانون. ولابد أن يكون لذلك انعكاساته على النظام السياسى والنخب الحاكمة.

إن التعاون الاقتصادى العربى ليس مجرد اتفاقات تعقد ، فاذا لم تتوافر المقومات الحقيقية لذلك التعاون ، ظلت هذه الاتفاقات حبراً على ورق. لقد عرفت المنطقة

العربية خلال الحقب الماضية القريبة العشرات من اتفاقات التعاون الاقتصادى والمشروعات المشتركة، ولم يترتب عليها أية نتائج عملية. ،بل لعل توقيع مثل هذه الاتفاقات وهزال النتائج المترتبة عليها كان وبالاً على فكرة التعاون الاقتصادى العربى ، لأنها ساعدت على ايجاد أزمة ثقة فى فكرة التعاون الاقتصادى العربى ذاتها. ولذلك فإنه من الأحرى الدراسة والتريث بدلاً من الاندفاع فى توقيع وثائق نعرف مقدماً أنه لن يكون لها أى حظ من التطبيق.

وقد أفاد تجـربتنا العربية فى هذا المجال أن انعـدام الإرادة السياسيـة كان دائماً الصخرة التى تحطمـت عليها محاولات التـقارب والتعاون الاقتـصادى العربى ، فالدول الـعربية – ورغم مـا تطلقه من شـعارات للتـعاون الاقـتصـادى – كانت مهـووسة بالدرجـة الأولى بقضـية أمن النظام. فـاتفاقيـات انتقـال المواطنين بين الدول العـربية دون عقـبات وقـفت أمامـها اعـتبارات الأمـن التى كان لهـادائما الغلبة. وبالمثل فكثيراً ماكانت تغلق الحـدود أمام البضائع والأفراد لتقلبات أهواء السياسـة فيما بين الدول العربيـة. إن نجاح التعاون الاقتـصادى هو رهن إلى حد بعيـد بتوافـر نظم ديمقـراطية سيـاسيـة فى الدول العربيـة، فإذاكـانت أوروبا قد نجحت فى تحـقيق تقـارب اقتـصادى ناجح خـلال السنوات الماضيـة ، فإن ذلك يرجع إلى أن الانضمام إلى تلك الوحدة الأوروبية قد سمح به فقط لتلك الدول التى تشترك فى قيم الديمـقراطية واحترام حقوق الانسان. فالتـعاون الاقتصادى يأتى لاحقاً للإصلاح الـسياسى. الخطوة الأولى للتعاون الاقتـصادى العربى تبدأ بعد تمكن الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وسيادة القانون.

إن العديد من الالتزامـات والاتفاقات الدولية التى تعقـدها دول المنطقة سواء فى إطار اتفاقـيةالجات ومنظمة التـجارة العالميـة، أو فى اطار اتفاقيات المشـاركة الأوروبية .. هذه

الالتزامات سوف توحـد إلى حد بعيد أوضاع النشاط الاقـتصادى فى الدول العربية وفقًا للمـعايير التى تفرضها المنظمات الدوليـة أو الاقليمية (الأوروبية)، وبحيث ينتهى الأمر وتتقارب شروط مـباشرة النشاط الاقتصادى فى هذه الدول.

وفى هذه الحالة يتم توحيد المفاهيم وتنسيق السياسات ،كنتيجة لالتزام هذه الدول بفتح أسواقها وتحديد شروط وأوضاع النشاط الاقتصادى بمقتضى اعتبارات تحرير التجارة العالمية، وبذلك فقد يتحقق من التعاون العربى - عبر تحرير تجارة الدول العربية مع العالم الخارجى - ما فشلت فيه جهود التعاون بين هذه الدول العربية ، وبذا يتحقق نوع من التعاون الاقتصادى العربى نتيجة للتحرير الاقتصادى العالمى. وأخيرا فانه إذا كانت الظروف غير مواتية لتحقيق تكامل اقتصادى كامل بين جميع الدول العربية فى الوقت الحالى ، فلا أقل من الاتفاق على مجالات محددة للتعاون فى مشروعات معينة أو فى مجالات محددة . بالنسبة للدول العربية لا خيار عن تعاونها ووحدتها الاقتصادية ، فذلك هو السبيل للشروع فى اتفاقها جميعا بشكل أفضل مع التكتلات العملاقة ، وإلا فان هذه التكتلات سوف تكتسح بمنتجاتها وسلعها الأسواق العربية بلداً .. بلداً ، مدمرة صناعاته ومؤسساته المالية والخدمية ومكتفية بتحويل البلدان العربية إلى مجرد سوق للاستهلاك. فى التكتل الاقتصادى العربى حماية لكل الأجزاء وشروط أفضل للاتفاق مع التكتلات وتنمية للقدرات الإنتاجية فى كل بلد عربى على حدة .

إن موقفاً عربياً مشتركاً فى قضايا السياسة الخارجية يشكل حجر الزاوية للتعامل الحقيقى والمتكافئ بين العرب وهذه الدول، حيث يستطيع العرب بمقدراتهم الاقتصادية والبشرية والثقافية الهائلة أن يدفعوا القوى الكبرى لاحترام وجهات نظرهم ومواقفهم بالنسبة لقضاياهم المصيرية.. كذلك فإن التحذير من

التعامل مع النظام العالمى الجديد بمواقف عربيةمتفرقة ليس مجدياً إذ لا يكفى أن يبقى الموقف العربى يتسم برد الفعل والترقب ،ومن الضرورى أن يتسلح بروح المبادرة ،وأن تكون له بصمات واضحة فى القرارات السياسية والمحافل الدولية .. لكن كيف يكون ذلك ؟ ان الوطن العربى الذى أتيح له جو التناقضات القائمة بين الدول الصناعية العتية يمكن أن يتعامل بكفاءة عالية جداً من خلال استخدام سلعته الاستراتيچية الكبرى ، وهى النفط، التى كانت من أهم الأسلحة فى حرب عام ١٩٧٣ عندما اتخذ العرب قرارا بوقف تصدير النفط .. كذلك أيضا ألا يبقى العالم العربى سوقا استهلاكياً للصادرات الغربية مضافا اليها اليابان، وهذه قضية طويلة وسلاح ذو حدين فى الواقع، اذ ليس المقصود إغلاق الأسواق العربية فى وجه الصادرات الأجنبية التى تغزو العالم أجمع ، ولكن أن تكون الاتفاقات التجارية الدولية التى يعقدها العرب متوائمة مع مصالحهم ومواقف الأطراف الأخرى من قضاياهم . لكن الذى يحدث هو فى غير مستوى الآمال إطلاقا إذ أن الدول الصناعية تسعى دائماً إلى إغراق أسواق العالم الثالث بمنتجاتها ، حيث تبقى هذه الدول تئن تحت وطأة الديون المتراكمة وقرارات صندوق النقد الدولى. إن الشعار الذى تطرحه هذه الدول الغنية دائما فى إحداث التوازن بين العالم الثالث والعالم الصناعى ما هو إلا شعار براق ، فلقد قال الرئيس الفرنسى السابق ميتران عن الدول النامية فى أحد قمم الأغنياء أنها تأخذ من هذا العالم أكثر مما تعطيه

ما الذى يمكن أن يتخذه العرب إزاء العجز فى الموازنة الأمريكية مثلا ؟

وكيف يتم التعـامل مع الفائض فى الميزان التجارى اليابانى ؟ومـا موقف العرب من ارتفاع الفـائض فى الأسواق المالية الأوروبيـة ، وسعى التحـالف الفرنسى - الألمانى لاستـقلاليـة القارة الأوروبية بعـيداً عن واشنطن ؟ ليس المـطلوب اتخاذ مواقف غـير واقعـية أو غـير مدروسـة ، ولكن ألا يكون الوطن العربى هو أكـبر مسـتورد للسـلاح فى العالم، والذى لا يسـتخـدم فى إطاره الصحـيح فى اغلب الحالات، أى أن يكدس العرب السلاح خشية من بعضهم بعضاً .. لقد توحدت الدول الصناعـيـة الغنـية الـسبـع ازاء الأزمـة النفطيـة، لذلك لابد من صـيـاغـة موقفعربى أيضا حيال هذه القضية المشتركة .

ويمكن القول: إن من تأثيرات العولمة المباشرة فتح عهد جديد للمنافسة ، فقد غيرت العولمة جوهر النشاطات الاقتصادية ، فحولت الاقتصاديات المرتكزة على الحدود الوطنية إلى اقتصاديات مفتـوحة على الفضاء الكوكبى ،وجعلت المنافسة على المستـوى الدولى تضخم نتـائج الصراع من أجل غـزو الأسواق وتؤدى إلى ظواهر الهـيمنة العـالمية. وعليـه ستـصبح الاقـتصادات الـوطنية أقل اسـتقلالـية وأكثـرحساسـية للعلاقـات غير المتـكافئة التى تربطهـا فى الوقت نفسـه. ستلغى العـولمة الاقـتصـادات العـاجزة عن الصـمـود أمـام القوى المهـيـمنة ومـواجهـة الاقـتصـادات الأخرى التى تبـدو أقوى منـها .. إنهـا ستـؤدى إلى توسع ظواهر التهـميش الاجتـماعى فالأفراد ، والمؤسـسات ، والمدن والأمم غيـر القادرة على المنافسة ستبقى متروكة وشأنهـا ، معزولة من السباق. وحسب « فريق لشبونة » (فريق اقتصادى له تصوره الخاص عرف فى الأوسـاط الاقتصادية بتلك التسمية)

فإن السيناريو الأكثر احتمالا بالنسبة للسنوات الخمس عشرة أو العشرين القادمة هو « سيناريو الاستمرار الاقتصادى المستميت». إن شروط المنافسة «وأوامرها » ستحكم السلوكيات الفردية والاستراتيجيات الجماعية ، فكل مؤسسة ، أو مدينة، أو جهة أو بلد أو تجمع اقتصادى سيسعى إلى الدفاع عن خياراته وموقعه فى السوق العالمية. وسيكون العامل المحرك فى ذلك الدفاع هو الرغبة الذاتية فى الاستمرار ، والتى تمر قبل كل شيء عبر هزيمة الآخرين. إننا نعيش فى عصر العولمة المؤسس على مبدأ المنافسة وعلى آليات السوق ، الذى يفرز « تخلى » المناطق الضعيفة اقتصاديا (البلدان الفقيرة ، وبعض الجهات من البلدان الغنية) عن المنافسة العالمية، ويعنى أن الفارق بين الأقاليم القادرة على المنافسة التى تشارك بقوة فى مسار العولمة وبين تلك التى « تخلت » ـ من ناحية أخرى ـ سيتسع ويكبر وستكون المنطقة المتوسطية أيضامسرحاً لمسار من هذا النوع ، ما بين بلدان الشمال وبلدان الجنوب فى المنطقة من جهة ، وبين شمال أوروبا وجنوبها من جهةأخرى .

وإذا انتقلنا من دائرة التكتلات الاقتصادية إلى مجال السياسة « المجتمع » فإن المجتمع العربى انقسم على نفسه إزاء هذه الظاهرة إلى قسمين رئيسيين ما بين مبشر بالعولمة ، ورافض لها. المبشر بالعولمة يعتبر إياها قدراً لا مفر منه ونعمة من السماء جاءت لتنتشل المجتمعات العربية من واقع التخلف والتأخر والمحافظة والأنماط التقليدية للفكر والسلوك، إلى مجتمع متطور راقٍ يخضع لآلية علمية منضبطة بذاتها ، مجتمع الحرية المثلى فى الاستهلاك والاستمتاع. الرافض للعولمة

المقاوم لها يرى فيها امتداداً للظاهرة الاستعمارية وأنها موجة جديدة من موجات محاولات الغرب استرقاق العالم فى صورة وسائل غير مباشرة عبر آليات السوق ونظم المعلومات وأجهزة الاتصالات .. وفى قلب هذين التيارين هناك التيار الأوسط الذى حافظ على قيادة المسيرة العربية منذ عصر النهضة وجنبها مخاطر تطرف الرفض أو تطرف الخضوع والتبعية، ويرى أن العولمة وإن كانت اتجاها يحمل فى طياته الهيمنة الاستعمارية إلا أنها اتجاه فى التطور الاقتصادى والتكنولوچى لا يمكن الوقوف عنده، وأننا إذا انفتحنا على العالم تكنولوچياً واتصالياً فلا يعنى هذا التسليم بأفكار وأيديولوچيات العولمة ومحاولتها إلغاء الشخصية القومية والهوية الذاتية .

مناهضة العولمة :

الكاتب السياسى محمد سيد أحمد يقول : إن فئات بعينها وفى مقدمتها المثقفون فضلاً عن القوى التقليدية ، وربما أيضا بعض شرائح بيروقراطية فى الدولة قد تحرص ولأسباب مختلفة على مناهضة العولمة . بينما المتوقع من فئات أخرى أن تكون أكثر ميلاً للتأثر بها والانجذاب نحوها ، ومحاولة استثمارها لصالحها، ونذكر بالذات دائرة رجال الأعمال ، وكثيرون ممن ينتمون إلى الجيل الجديد ، وربما أيضا بعض الأقليات .. فمن المؤكد أن القوى التى سوف تناهض العولمة فى المجتمعات العربية ليست هى القوى المحافظة التقليدية فقط، وإنما سوف تشمل أيضاً قطاعاً واسعاً من المثقفين لا ينسبون عادة إلى القوى المحافظة أو التقليدية، ولكنهم يتحركون مدفوعين بالإحساس بأن ظاهرة العولمة إنما تحسن

مركـز إسرائـيل أكثـر مما تخدم القـضيـة الوطنية ، والقـوميـة ، وأن هذا يتطلب الصمود للظاهرة والتصدى لها دفاعاً عن الهوية وعن الكرامة ، فليس من شك فى أن العولمة تهدر سـيادة الدولة ، وتترك المواطنين غير محـصنين ضد تدخلات من الخارج شأنها زعزعـة الاستقرار الاجتماعى والمساس بالوحـدة القومية .. ثم إنها تعمق الفـجوة بين أنصار إخضاع العـولمة لمتطلبات مواجهـة الصراع العربى الإسرائيلى، وأنصـار إخضاع متطلبات الـصراع لمقتضيـات العولمة .. إن المنادين بإعطاء الأولوية لـلصـراع هم الذين يؤمنون بضـرورة إذكـاء المشـاعـر الوطنيـة والقومية بصفة مستمرة ودون كلل ، بينما لفلسفة العولمة أثر كبير فى التهوين من شان الشـعور بالانتـماء ، وفى تبـرير الهجـرة إلى الخارج ، ولو بحـثاً عن لقـمة العيش ، وتحـاشى بطالة متـفاقمـة أصبحت تطحن الكثـيرين، حـتى أصبح هناك شعور متنام بأن مرجعية العولمة بسبيلها أن تحل محل مرجعية القومية .

إن العـولمة فى صورها الراهـنة غيـر مقـبولـة، وهى مازالت تعـرض شعـوب الجنوب لويلات ومآس .. والحقـيقة أن الثنائية شمـال / جنوب ، التى أصبحت بعد زوال الثـنائية شرق / غـرب صورة الثنائيـة الأكثـر بروزاً قد أصـبحت الآن تتميز فى نظر شعوب الجنوب بخاصية لم تكن موجودة من قبل . كانت شعوب الجنوب تؤمن من قـبل بأنهـا تقف هى « فى اتجـاه التاريخ » .. وأنـها تتـسم هى بصفة « التقدمية »، فإنها تركز للتـحرر .. وكان الشمال (أو ما أصبحنا نصفه بـ « الشمال » وكـان موصوفا وقـتذاك بـ « الغرب ») متهـماً بأنه عدو «التقـدمية» وبأنه مـوطن الاستـعمار والكولونيـاليـة .. وكان ذلك مـن آثار الانتصـار على

الفاشية فى الحرب العـالمية الثانية .. كان الانتصار على الفاشـية مصدراً لقوة دفع هائلة للقوى التى وصـفت نفسهـا بأنها تمثل « حركـة التاريخ ». وعقب سـقوط الاتحاد السوفيتى و"المعسكر

الاشتـراكى » انعكست الآية وأصـبح الشمـال هو الذى يرمز لقـيم العـصر : الديمقـراطية ، وحقوق لإنسـان ، والأسواق الحرة .. ولم تعد تجـرؤ أية قوة فوق سطح الأرض أن تجاهر بعدائها علناً للديمقراطية وحقوق الإنسان ، حتى القوى الفـاشيـة الجديدة فى أوروبا لا تجـرؤ .. ومع ذلك ، فإن الديمـقراطيـة وحقـوق الإنسان همـا قيم كثيـراً ما تنتهك فى بلـدان الجنوب ، وأصبح الجنوب هو الذى ينظر إليه على أنه يخالف قيم العصـر. وإذا ما ثار ، فتوصف ثورته ، واتجاهه إلى العنف، بأنه إرهاب، مما يجرده مـن الادعاء أنه يمثل «التقـدمية » واتجاه « حـركة التاريخ» . لقد أصبح الشمال هو المرجعـية وليس الجنوب ! ثمة عقبة حرجة إذن ، قد يخـترقها البـعض فتكتسب قـدرتهم على مواصلة التقـدم صفة تراكمـية .. وكلما تقدمت مـجتمعـاتهم ، توافرت لها ظروف أفضل لمزيد من التـقدم، بينما هناك مجتمعات أخرى يتعذر عليها تجـاوز العقبة الحرجة، فتظل دونها باستمرار .. ومع اتساع الفجوة ، تـزداد إحباطا واقتناعا باستحـالة اللحاق .. فكيف الجمع بين العولمة وعـالم تمزقة ثنائية من نوع خـاص تتخذ شكل الاستـقطاب الحاد بين الذين تجاوزوا الـعقبـة الحرجـة ، والذين فقدوا الأمل فى أن تجـاوزها ممكن ؟ .. ومن تأثيرات وتداخلات العولمة الخاصة بالعـالم العربى أنها سوف تسهم بشكل أو بآخر عبر ظروف ومعطيات دولية وإقليمية وأخـرى عربية فى صياغة مستقبل

إنهاء الصراع العربى الاسرائيلى وهى الصياغة التى كانت وراء أكثر الصراعات ضراوة .

وفى رأى محمد سيد أحمد أن العولمة إنما تحمل فى طياتها جانباً شأنه إذابة الفوارق والتمايزات ، عن طريق فرض ضوابط ومعايير وقيم عالمية المراد لها أن تكون متجانسة .. ولكن هناك أيضا وفى الوقت ذاته أسباباً تبرر تكثيف التزاحمات والتصارعات بين الحضارات والثقافات ، سوف تبرزها على الدوام عملية لن تعود بالنفع على نحو واحد لمختلف قطاعات المجتمع العالمى .. ولنأت الآن لعالمنا العربى، فلا مجال لإنكار أن للصراع العربى الإسرائيلى دوراً كبيراً فى تقرير تأثير العولمة عليه .. إسرائيل ينظر لها على أنها

طرف مهم فى هذه الظاهرة ، ذلك أنها من جانب دولة تنتمى عبر شبكات متعددة ، إلى النظام الاقتصادى العالمى ، بما تملكه من علاقات وطيدة مع الولايات المتحدة على وجه الخصوص .. ثم أن إسرائيل كيان بارز فى الثورة الإعلامية المعاصرة ، وأصبحت على حد تأكيد مجلة « نيوزويك » الموقع العالمى الثانى بعد « سليكون فالى » بكاليفورنيا فى صنع وتطوير الكومبيوتر .. والجدير بالملاحظة فى هذا الصدد أن الآلية التى نجمت عن مؤتمر مدريد للتغلب على الصراع العربى / الإسرائيلى، وإقامة السلام فى الشرق الأوسط إنما استندت إلى آليتين : آلية المفاوضات الثنائية من أجل مبادلة الأرض بالسلام ، وآلية المفاوضات المتعددة الأطراف بهدف ترسيخ عملية السلام من خلال معالجة مجموعة من القضايا ذات أبعاد تمتد للاقليم كله : نزع السلاح واللاجئين ، والمياه ، والبيئة ، إلخ .. فى مقدمتها القضايا متعددة الأطراف، حركة الاقتصاد

والأسـواق بالمنطقـة، التى تـشكل جـزءاً لا يتـجـزأ من ظاهرة العـولمة .. وكـان الإفتـراض - إبتداءً - أن تكون الأولوية للمفـاوضات الثنائية اسـتردادا للأرض نظير السلام، ولكن مـا يجرى الآن يدحض هذا الافتراض ، ذلك أن التـعاملات الاقتـصادية - بمقتضى آليـات العولمة - قد اكـتسبت الأسـبقية على المفـاوضات الثنائية صاحبة الاختصاص فى قضية استرداد الأرض .

لقد قصد رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق بشـعاره « مبادلة السلام بالسلام » بديلا عن شعـار « مبادلة الأرض بالسـلام » إعمال قواعـد الأمن ، وربما أيضا قواعد الاقـتصاد كأساس للسلام ، بدلا مـن تعليق السلام على إعادة الأرض .. وقد رأينا فى المؤتمرات السياسية والاقتصادية التى تحضرها إسرائيل ، أن الأولوية قد أصبـحت للعملية الاقتـصادية بصرف النظر عن رفض نيتـانياهو أو باراك أو ألمرت تطبيق مـبدأ مبادلة الأرض بالسـلام .. معنى ذلك أن إسرائيل هى المنتـفعة أساسا بعملية العولمة ، وأن العالم العربى ، فى مواجهة سياسات إسرائيل فى هذا الصدد إنما يلبى شروطهـا ، ويتعرض لمزيد من التفتت .. إن اسـرائيل هى الأكثر قدرة على مـواكبة العـولمة ، والاستفـادة من الظاهرة قبل غـيرها .. بل إن الدول العربية

قد أصبح عليها أن تجد لنفسـها هى الأخرى موقعاً لها فى الظاهرة ، ومن هنا توجهها إلى الخصخصة ومحـاولاتها إثبات أهليتها بأن تكون هى أيضا جزءاً من هذا العالم الجديد .

وجدير بالملاحظة أن طوفان العولمة يرشح إسرائيل ،كى تبرز أمام دوائر أعمال عربـية معـينة بوصفـها أكـثر قـدرة على فتح الأبواب لشـبكات المال والأعـمال

والإعلام العالمية من أية جهة أخرى بالمنطقة! .. وهكذا نرى أن هذه العملية ظاهرة قد تحل الصراع العربى الإسرائيلى ، وقد تعوق معالجته بالطرق التقليدية .. فمن شأنها إحداث انعطافة فى الجهود المبذولة لإيجاد حل للصراع نحو حلول تجرى فى إطارطوفانها وهيمنتها، بديلاً عما ميز هذه الجهود إلى الآن ، وأعنى بذلك الحرص دائماً على إبراز خصوصية هذا الصراع لا طمسه .. وعلى معالجته بمقتضى ثوابته بمنأى عن المستجدات العالمية .. وهكذا نرى أن هناك ظروفاً دولية وأيضا إقليمية ذات تأثير مباشر فى طبع العالم العربى بطابع العولمة ، وهذا بدوره لابد من أن يزيد من أوجه التوتر الاجتماعى، فيؤدى إلى مواجهة بين أنصار العولمة وخصومها فى مختلف أرجاء العالم العربى، لا فى مشرقه فحسب ، وإنما فى مغربه كذلك.. غير أن الطرف الذى يجسد الإتجاه العولمى فى المغرب ليس هو فى المقام الأول إسرائيل (وخلفها الولايات المتحدة) وإنما هو القطب الأوروبى ، المتمثل أساسا فى الاتحاد الأوروبى وبالذات فى ظرف ينجز فيه هذا الإتحاد خطوات متتابعة إلى الأمام نحو مزيد من الاندماج (قضية توحيد العملة رمز ناطق فى هذا الصدد)، بينما يتعرض العالم العربى لصور من التفكك تزداد تفاقما .. ولا شك أن الاتحاد الأوروبى قطب عولمى متميز عن القطب الأمريكى، وهو أيضاً منافس له ، فإن العولمة بحكم آلياتها ، لا تقف عقبة فى وجه احتدام التنافس بين أقطابها، بل ربما كان التنافس الحاد من صميم نسيجها .. إن العولمة ليست عقبة فى وجه قضية حرية المناورة ، ولكنها تتيح للأقوى فرص مناورة أفضل من تلك التى تتوافر لمن لا يملك مصادر قوة .

الفصل العاشر:

خيالات وأوهام

عندما تصبح الصورة أصلاً.. والوهم حقيقة..والزيف واقعاً

هناك كثير من الخرافات والأوهام وأيضا الأساطير التى ترتبط وتنشأ مع الثورات سواء كانت فى العلم أو فى المجتمع أو فى السياسة .. وقد نحتاج لوقت لدراسة هذه الخرافات واكتشاف هذه الأساطير وتبديد الأوهام .. بعد أن يهدأ أنبياء ومبشرو هذه الثورة وتزول حدة حماستهم واندفاعاتهم التى لا تخفى الحقائق عنهم وحدهم بل عن أتباعهم والمروجين لهم وأيضا أولئك الصامتين الذين لا يجدون سؤالاً ولا يعرفون جواباً .

يقول د. حسن حنفى: ثورة المعلومات لها آثارها السلبية على العقل وقدرته على التفكير وخلطها بين المعلومات والعلم وبين الكم والكيف وبين النقل والإبداع وبين العلم الداخلى والعلم الخارجى. إنها ترتبط بالفاعلية والأثر وترتيب المعلومات ، وليس بتصور للعالم أو بأنساق القيم ومعايير السلوك ، كما ترتبط ثورة المعلومات بقوة المركز وسيطرته على الاقتصاد والسياسة والعلم، وايهامها بالتخلف والتقليدية والسلفية مما يشق ثقافاتها الوطنية الى شقين : جديد وقديم ، وافد وموروث ، مستقبل وحاضر فنستبدل سحراً بسحر وخرافة بخرافة، كما أنها تؤدى إلى الانعزالية والفردية والقضاء على العلاقات الاجتماعية المباشرة لصالح جهاز المعلومات فى مواجهة الذات بديلا عن الآخر ، وتظل ثورة المعلومات مشروطة

بالمرسل والمرسل إليهم ، والرسـالة وليست فقط بأدوات الاتصـال ، من الصعب السباحة ضد التيار والتوقف أمام الأفكار الشائعة والتشكك فى المسلمات الاجتماعية والثقافية التى كادت أن تصـبح علمية فى مجتمعات يغلب عليها التسليم ويغيب عنها النقـد ،وتشعر بالتقاعس أمام الآخر المتفـوق علميا والغزير مـعلوماتيـاً. ومع ذلك وبقـدر من التـأمل والشـجاعـة الأدبيـة يمكن تحليل ثورة المعلومات تحليلاً نقـدياً بناءً على التجارب المعيـشية وبعض الاحصائيـات لمعرفة الوجه الآخر للحقيقة بين الواقع والأسطورة .

المعلومات غير العلم

والجـانب الثورى لما يـسمى بثـورة المعلومـات .. يتـمثل فى أنهـا اكـتشـفت الأدوات والأجهزة والوسائل التى يمكن بها معالجة المعلومات التى أصبحت من الكثرة والتنوع على قدرة الأفراد والجـماعات على استيعابها وهضـمها وتحويلها إلى طاقة منتـجة ، ومن خـلال الأدوات الحاسوبيـة والمعلوماتية التـى تستطيع أن تخزن وتبـوب وتضيف وتسـترجع المعلومات والبـيانات فى زمن قـياسى بدأت آثارها تنعكس على مـجـمل الحيـاة الانسانيـة .. إلا أننا يجب أن نحـذر هنا من الخلط بينها وبين العلم .

ويشيـر د. حسن حنفى إلى هذه الثـورة المعلوماتية بالخلط بـين المعلومات و " العلم" فالمـعلومات معـروفة سلفاً أمـا العلم فهـو الجديد فى المعلومـات. كانت المعلومـات علمـاً أولاً عند مكتـشفـهـا ، ثم عرفت وذاعـت ودونت وأصبـحت مـعلومات تضـاف إلى رصيـد البشـرية. أمـا العلم فهـو المجهـول الذى لم يكن

معـروفاً من قـبل ثم تم اكتشـافه فأصـبح علماً ، يتـحول بدوره بعـد ذيوعه إلى رصيـد المعلومات السـابق. وقد تكون المعلومـات هى المنطق ، ويكون العلم هو المسكوت عنه ، المعلومـات سطور والعلم قراءة ما بين السـطور ، المعلومات كم والعلم كـيف ، المعلومـات فى الخارج ، والـعلم فى الداخل ،المعلومـات عامـة ، والعلم خاص. لذلك ارتبطت المعلومات فى أجهزتها بمقدار ما يوضع فيها أو ما يخـرج منها ، بل توجـد مطابقة كـاملة بين الاثنين ، مـا يدخل وما يخـرج ، إنما الفرق فى المقدار فمـا يخرج هو تكبير قد يصل إلى ما لا نهـاية لما يدخل . وكما هو الحال فى المنظار المكبر ، لا يضيف جهاز

المعلومات شيئاً جديداً بل ينظم وينسق ويكبـر ويصغر ، يرتب ويعيد الترتيب لما هو معـروف سلفاً ، يتعـامل مع الشكل دون المضمـون ، ويتناول الألفاظ دون المعانى ، ولا يتجـاوز هندسة الكلام .. وهذه الصورة – التى يوضحـها د. حسن حنفى – هى صورة مـجردة ، إذ أنها تقـوم على تحليل صامت لما هو عليه جـهاز المعلومات لحـدوده وامكاناته ، إلا أن ذلك يكون شيـئاً آخر من خـلال تعامله مع الإنسان، فتوليد المعلومات أو خلقـها أو إدارتها يختلف من إنسان إلى آخر وهو الذى يضفى على هذا الشكـل مضموناً مـختلفاً وأيضـاً نتاجاً مخـتلفاً ، وأن كل أصحاب دعاية نشر المعلوماتية يتغافلون عن هذا الدور حيث إن الثورة قائمة فى حد ذاتها فى الآلات وقدرتها وإمكاناتها وما توفره للإنتاج والتجارة والعلم لا ما يمكن أن يتـحقق منهـا فى مـجال الإنتـاج العملى بـفضل البـشر ومـا يمكن أن يستوردوه أو يضيفوه إليها فى أى صـورة من الصور.. وكما أن المعلومات تتخذ

مضمـونها وتشكيلها الحى غـير المجرد من خلال الكائن البـشرى فكذلك الكائن البـشرى يعـاد تشكيله وبناؤه وهندسـتـه وفقـا للجديـد فى هذا الشكل، ووفقـا لخضوعه له وعدم قدرته على بسط لجـامه عليه، ومن خلال شبكة الإنترنت وهى الطريق السريع للمعلومات .

وفى الواقع فإن خـارج هذه الشبكة، وخـارج القرية يصبح العـالم شيئـاً آخر وحشـياً وغير مـألوف ومفتقـداً لأواصر التلاقى أو أسس التعـارف .. بل يصبح التـواصل معـجزة فى حـد ذاته فلا توجـد قـدرة للأفراد للتـفاعل أو التـلاقى أو التعارف إلا عبـر الشبكات ومن خلال الصور التى تبثها الأقـمار، ولا يبدو الجار إنساناً حقيقياً لأن صورة الإنسـان الحقيقى هى تلك الصورة التى تبثها الـ CNN أو غيرها. والواقع الحـقيقى هو الموجود هناك، أمـا فى خارجه فإنه يصـبح غريباً ولا يختلف عما يكون عليه الوضع فى حديقة الحيوان أو غيرها من الأماكن التى يجب زيارتها فى أوقات الترويح والفرجة .

ويقول د. حـسن حنفى: تتحـول المعلومات فى " ثورة المعلومـات " إلى عالم من الرموز ولا تحيل إلى عالم خارجى كمـا هو الحال فى المنطق الرمزى ، فتضيع الصلة المباشرة بين

العـالم والعـالم ، بين الفكر والـواقع ، بين الذهن والأشـيـاء، ويغـيب الفكر الطبيعى ويحضـر عالم الرموز وتغيب البساطة لصـالح التركيب ، وتزاح البداهة ويحـضر الـتعـقـيد ويتـوقف الحـدس عن العـمل لصـالح العقل. كـمـا يصف "برجسون" طبـيعة المعرفة العلميـة التى تقوم على تصور مادى للحيـاة بعيداً عن

المعرفة الأخلاقية والروحية ، ويفقد الوعى المعلوماتى الوعى بالعالم شيئا فشيئاً، كما يفقـد الوعى بالوعى ذاته وبإمكانياته الإبداعية وبآفاقه المتعـددة ويصبح وعياً بالآلة وبالأرقـام .. ولأن ثورة المعلومـات هى ثورة فى الأشـيـاء ، فى المادة دون الفكر ، فى الاتصـال دون الروح فـى الأدوات والملمس دون الجـوهر والأسس، فإنها تظل محفوفة بالمخاطر وخاصة للإنسان الذى أصبح مجرد أداة عاجزة تابعة للآلة التى تقوم بتعطيل حـواسه واحساسه وفكره وبصيرته كـلية، ويصبح ما هو غير مـعطل قاصراً ومحدوداً ومـرتبكا وغريباً عن ذاته وكيانه، بل قـد يتصور أنه ليس إلا مـجـرد ملحق من ملاحـق هذه الآلة ورقم من أرقامـهـا أو مـفتـاح من مفاتيحها فى أفضل الحالات .

ولا تستطيع " ثورة المعلومات " أن تعطى تصوراً عاماً للكون فالجزء لا يكون الكل ، والأجزاء المتناثرة لا تعطى رؤية للعالـم ، بل أن المعلومات ذاتها تفتقد إلى كل ينتظمها ، وإلى رؤية تحـدد مسارها واتجاهها، ومن الطبـيعى أن يكون البديل هو أهواء البـشـر وقوى الشـر وقـانون الغـاب، فتـقع الحـروب والكوارث نظراً لغياب منظومة من القيم تضع مبادئ عامـة لتوجيه المعلومات ، ليست المعلومات قيمة فى حد ذاتها بل هى امكانيـات فعل وقدرة على السلوك ، ولكن قيم الفعل ومعـايير السلوك تأتى من منظومة القـيم ورؤية العالم التى لا تعطيهـا المعلومات فبالرغم من إمكانيات ثورة المعلومات فى التسهيل والفاعلية فإنها كالقوة العمياء التى تحتاج الى رؤية وبصيرة .

وفى المعلومات تغيب البواعث والمقاصد والأهداف ، وتغيب الارادة الانسانية

التى تستخدمها وتنظمها ، المعلومات كم مصمت لا ينطق ، إنما الانسان هو الذى يحولها الى دلالة طبقا لغاياته ومقاصده ، فالطائرة بدون طيار ، طيارها على الأرض وليس فى السماء،

والصواريخ التى تنطلق آليا إلى أهدافها يحدد الإنسان برامجها ومسارتها وأوقات انطلاقها، ويظل للعامل الإنسانى الفاعلية الاولى فى المعلومات ، فى البداية عن طريق تغذية جهاز المعلومات وفى الوسط عن طريق صياغة البرامج المتعددة ، وفى النهاية عن طريق تحديد المقاصد والغايات. صحيح أن الإنسان يتحول إلى إنسان قادر على اتخاذ القرار بعد برمجته ،ولكنه لا يغنى عن الإنسان الحى فى مقابل جهاز المعلومات الذى يؤمر فيطيع. وبعد مدة بفعل التكرار يتحول الإنسان الحى إلى انسان آلى أيضا ، بعد ذلك يمكن الاستغناء عنه وتحويله إلى إنسان آلى بالفعل ويتحول العالم كله إلى انسان آلى (روبوت) بعد الحركة الذاتية، وتظل الحاجة إلى انسان أول غير آلى يقوم بفعل أول، كى تنطلق الحركة الذاتية حتى يتم الاستغناء عنه بالاستجابة الذاتية مثل إنذار الحريق، ويصبح فعل الخلق والعناية داخل العالم وليس خارجه ، ومن ثم لا تحتاج الساعة إلى صانع للساعات ولا يحتاج النظام إلى منظم كما هو الحال فى مذهب التألية الطبيعى فى القرن الثامن عشر فى الفكر الغربى ، يصبح المعلول علة ، والعلة معلولاً فى تصور دائرة للعلة والمعلول دونما حاجة إلى علة أولى ليست معلولا لعلة أخرى كما حاجج القدماء أنصار النزعة المادية الآلية للكون .

ونظراً للاعتماد الكامل على نظم المعلومات والبرامج والتخزين ورقائق

التسجيل تزداد درجة البيروقراطية وانتظار توفر المعلومات ، ونقلها من مركز إلى مركـز وربطها من شـبكة إلى شبكة، فالبـيروقـراطية الإنسانيـة التى تعتـمد على الأرشـيف والملفات والنظم واللوائح والـقوانين وانتظار الأوامـر من الأعلى إلى الأدنى وعدم قـدرة الأدنى على اتخاذ القـرار، تتحول إلى بيـروقراطية آليـة تقوم على نفس النمط مـع تحول الأشـخـاص الى رقائق أسـطوانية وبرامج مـتـداخلة وشبكات المعـلومات التى يبحث فـيها " الـفأر " عن البداية فـيضيع بـين البرامج ويتـوه بين الأنظمـة ، والقرار لا ينتظر والحـيـاة تسيـر. وقد يـضيع البـاحث عن المعلومات وسط إمـبراطوريات المعلومـات ، ويتمنى لو عاد الـى الحياة البـسيطة والمعرفة المباشرة والثقة بالمحسوسات وإعمال العقل البديهى إنقاذاً له من جداول البـورصة ، ونظـراًلطول المواجهـة مع جـهاز المعـلومات ، الوجـه أمـام الشاشـة الضوئية والتـعامل معها والتراسـل بين الوعى والآلة ، وأحكام السؤال والجواب كمـا يقول الأصوليـون القدماء ، غـاب الآخر الإنسانى ، والتـراسل الوجدانى ، وتقطعت العلاقات الإنسانية ، إذ لا ينظر وجـه فى وجه ، ولا يسأل أحد وإنسان آخر يجـيب ، فازداد الفـرد عزلة على عزلة ، وتحـول المجتمع إلـى مجمـوعة من الأفراد لا يعرف بعـضهم بعضاً ، وبقـدر ما تتصل شبكات المعلومـات فى شبكة واحدة بقدر ما تنقطع العلاقات الاجتمـاعية بين الأفراد ، ففى محيط المعلومات يتحول الأفراد الى جزر منعزلة لا رابط بينها إلا الأمواج .

وانتشـرت الرسائل الإليكـترونية بلا خط شـخصى ، وبلا سـاعى بريد ، وبلا انتظار ، فانمحت العواطف وتبخـرت الانفعالات ، ومات الوجدان. بذلك يزداد

تفكك المجتمع خاصة لو كان مفككاً من قبل كما هو الحال فى المجتمعات الأوروبية ، ويتحول الواقع الى واقع متخيل فيحضر إلى الجهاز ويختار البشر من خلال الجهاز. ينقل الجهاز العالم الخارجى إلى الإنسان ، وينقل الإنسان إلى العالم الخارجى المتخيل ، وشيئاً فشيئاً يتحول العالم إلى وهم ويصبح الوهم حقيقة بديلة ، وبدلاً من أن يتعامل الإنسان مع الأشياء يتعامل مع ظلالها وخيالاتها، كما لاحظ برجسون فى نقده للتصورات والنزعات المثالية التجريدية التى تبعد الإنسان عن عالم الإدراك المباشر والالتحام بالأشياء وجدانياً لإدراك ماهياتها والتفاعل معها.

وشيئا فشيئا يصبح ما هو غريب مألوفاً ، كما يصبح المعتاد غريباً وغير مقبول. أصحاب العواطف والمبادئ الراسخة والمثل الأخلاقية العليا التى تستند إلى قيم أصيله أو تراث حضارى سوف ينظر إليهم كغرباء من عالم آخر ، أما أصحاب الحس البليد والنظرة السطحية وعدم القدرة على النفاذ لجوهر وتحليل العلاقات والأشياء وإن كانوا يتميزون بقدرتهم على التحول من الشئ للآخر ومن النقيض للنقيض ، طبقاً للمواقف والاحتياجات السريعة والعاجلة ، فهم يصبحون السادة العاديين المقبولين لكى يتبعوا قمة المجتمع ويمسكوا

برايته التى توجهه ، وفقا لما يتم صنعه فى مراكز صنع الثراء والتوجيه . . إن كثافة المعلومات لا تتناسب مع قلة الطلب ، وبالرغم من تطور الشبكات فإن هناك إمكانية لخلق عالم وهمى دون التعرف على هوية الأشخاص المتعاملين مع هذا العالم . إن أجهزة الكمبيوتر بقدراتها على اجتذاب الشباب وجعلهم

يغرقون فى عالم الألعاب الإلكترونية قد تأخذهم بعيدا تماماً عن العالم الواقعى. هناك تضارب بين آراء علماء النفس عن مدى تأثير الأنشطة الالكترونية على عقلية الأطفال، إلا أنه على المدى البعيد يمكن أن تؤثر على الفرد بحيث يعيش فى عالم من وهم وخيال ومن صنع يديه بعيداً عن أرض الواقع.

وفى الواقع لا يسعنا إلا أن نقر مع الكاتب السياسى " ألكس توكفيل "، أن الرأى العام عشيق المجتمع الدولى، فقد ضغط الرأى العام الأمريكى على الإدارة الأمريكية ،كى تتخذ قرارات بناء على رغبات الشعب الأمريكى، كما حدث فى لبنان والصومال (كنموذج)، والسؤال الأخير الذى يطرح للتأمل والدراسة : أيهما أصوب ..القرار الجماعى أم قرار الصفوة ؟

ازدواجية المعايير:

لقد شغل الرأى العام العربى فى فترة بقضية المعايير المزدوجة ،وخاصة للسياسة الأمريكية ، دون أن يفطن لحقيقة أن هذه المعايير متسقة بالنسبة لصانع القرار الأمريكى أو الرأى العام هناك. ذلك لأن القرار الذى يتم صنعه ، وفقا لما تبثه الآله الإعلامية الضخمة التى توجه السياسة لا يعتمد على مبادئ الأخلاق والسياسة الدولية والقانون الدولى وغيره من معايير النظام الدولى ، وإنما فى عصر العولمة تتفق القرارات مع ما تذيعه وتنشره هذه الآلة من معلومات ولا يهم أن تكون هذه متفقة مع الحقائق ومع الواقع ولكن بمقدورها من خلال وسائل التقنية أن تخلق حقيقتها الخاصة المتخيلة ، وتجعلها حقيقة للرأى العام الدولى والأمريكى. وتقوم السياسة الأمريكية بتنفيذ هذه القرارات التى تم صنعها مسبقاً

وفرضها على الرأى العام بلا اكتراث، وهكذا فـإن ما يبدو مزدوجاً ومتناقضاً من منظور سـابق هو مـتـسق ومتـآلف ومـتـحد. من الـغريب أن تنصـاع القـرارات الأمريكية ضد إسرائيل، حيث

يسـيطر اليـهــود فى أمـريكا على قنوات توجـيـه الـرأى العـام الأمـريكى ، ويتحكمون فى إدارتها. والحقيقة أن " ثورة المعلومات " إنما نشأت فى المجتمعات الغـربية الحـديثة التى كـانت نشأتهـا منذ بداية النهـضة الأوروبيـة بناء على دافع السيطرة والغـزو بعد اكتشاف " العـالم الجديد " فى نهاية القرن الخـامس عشر ، والسيطرة علـى البحار ثم الرغـبة فى الاستـيلاء على العالـم القديم فى إفريقـيا وآسيا. ولما احـتاج الغزو إلى أكبر قدر ممكن من المعلومـات عن المغزو وتراكمت المعلومـات عبـر الاستشـراق والتبـشيـر وقواد الجـيش بدأت الحاجـة الى تنظيم المعلومـات وتراكمـهـا وترتيبـهـا فى دوائر المعارف الـكبرى أولاً. ثم بعـد ثورة المعلومات ثانياً فـى النظم الحديثة والاجيال المتـعاقبة لأجهـزة المعلومات ، أصبح الشـعور بأن المعلومـة قـوة ، ومن يحصل على المعلـومات فـانه قد حـصل على العالم. وتكاثرت مـراكز تجميع المعلومـات ، وتحولت إلى معامل لمراكـز البحث العلمى ، وازدادت قوة فى المراكز الاقتصادية والسـياسية الكبرى فى العالـم ، فى أمريـكا واليابان وأوروبا الغـربية، إزداد التـقابل بين المراكـز والأطراف ، بين من يسيطر على المعـلومات فى المركز من ناحـية وموضـوع المعلومات فى الأطراف من ناحية ثانية، وأصـبحت الأطراف تأخذ معلوماتها عن انفسهـا من المركز كما هو الحال فى الطيران من إفريـقيا إلى إفريقيا عبـر أوروبا. وازدادت حدة التقابل

بين الشمـال والجنوب ، بين الغرب والشرق ، بين من يعلم أكـثر ومن يعلم أقل أو بلغة الفلاسفة ، بيـن الذات والموضوع ، بين العقل والمادة ، بين النفس والبدن ، وبلغة المتدينين بين الله والعالم .

وتحـولت المعلومات إلى تجـارة ، والعلم إلى صناعـة ، والمعـرفة إلى اقـتصـاد والتعليم الى ربح ، ونشر المعـرفة إلى احتكار لها من الشركات الـكبرى لأجهزة المعلومـات. لم يعد الـعلم متـاحاً للـجمـيع بل فقط لمـن لديه القدرة على شـراء المعلومات والاشـتراك فى شبكاتهـا. وتتحول السـيطرة المعملية والمعلومـاتية إلى سيطرة اقتصـادية وتتنافس الشركات العملاقة فيمـا بينها على تصنيع المعلومات، وتصبح أسـماء آى . بى . أم . ومـاكنتوش لا تقل أهميـة عن الشركـات العابرة للقارات المتعددة الجنسيات فى الانتاج الصناعى ميتسوبيشى ، وسانيو ،

وسونى و باناسونيك ، نيسان ، هوندا ، تـويوتا. وتختلط اسماء العربات مع اسماء شركـات أجهزة المعلومات ،كلاهما إنتـاج وتصنيع ، ولا فرق بين صناعة الذهن وصناعة السيارة ، بين صناعة العلم والصناعات الاستهلاكية ، الكل يبغى الربح والسـيطرة على الأسـواق لا فـرق بين الأذهان والأبدان ، بيـن استـهـلاك المعرفة واستهلاك السلع .

وتم الاتجـار بكل شئ بما فى ذلك الحـياة الخـاصـة ، بالدخول فـيـها بوسـائل التنصت والتـصوير الحـديث وإذاعة أسـرار الناس على الملأ، سيـاسيـين وفنانين ورجال أعمال وقادة. فلم تبق هناك حرمـة أمام أجهزة الإعلام ووسائل الاتصال الحديثـة ، كل شئ عرضـة للإعلام. بل لـم تعد هناك حـقيقـة ، إنما هناك الخـبر،

واستخدمت ثورة المعلومات فى إذاعة الأخبار وتلوينها والإيحاء بما يريده الإعلامى. وقد تجلى ذلك فى تبرير الزيف وتجميل الفساد باسم المنافسة الحرة والصراع المتكافئ والاختيار الحر بين البدائل فى الظاهر، كما لاحظ ذلك هربرت ماركوز فى كتابه "الانسان ذى البعد الواحد" ، واصفاً دور الاعلام فى المجتمع الصناعى المتقدم ، فالإعلان هو الرواج والصمت هو الكساد، وأنفقت الملايين للترويج ايهاماً للناس وتوجيهاً للرأى العام، واعتماداً على قدرة وسائل الاتصال على الإقناع أكثر من الاعتماد على القيمة الموضوعية للأشياء. فالرأسمالية حرية ، والاستغلال منافسة ، والاحتكار تجارة ، والربح عرض وطلب ، ورأس المال الأجنبى عمالة ، والاستهلاك تسويق .. إلخ ، والإنتاج وفرة ، وحماية الصناعات الوطنية انغلاق ، والخصخصة انفتاح ، والدولة تطغى على المجتمع المدنى ، والمجتمع المدنى بديل عن الدولة. وكما تركز رأس المال فى الشركات العابرة للقارات ، كذلك تركز الإعلام فى نفس المراكز الاقتصادية والقوى السياسية لا فرق بين رأس المال والقوة الكبرى والقمر الصناعى .

وفى رأى د. حسن حنفى أن ثقة المراكز بالنفس ازدادت اعتماداً على تركيز القوى الاقتصادية والسياسية والمعلوماتية فيها ، وظنت أنها قادرة على السيطرة على العالم

وتحريكه طبقا لرغباتها ومصالحها وأنكرت الإرادات المستقلة للشعوب وحقها فى الحرية والاستقلال ،فاندلعت حرب اكتوبر ١٩٧٣ بالرغم من توافر المعلومات حول قلة قدرات الجيش المصرى الذى أصبح جثة هامدة ، ووجود

قرائن على وجود شئ ما يتحرك لا يتجاوز التمرينات الروتينية المألوفة.. واندلعت الثورة الإسلامية فى إيران بالرغم من توافر المعلومات عن استقرار نظام الشاه ، وأن إيران واحة أمان فى المنطقة التى يتربع عليها عرش الطاووس. فالواقع الاجتماعى والمسار التاريخى ليس بهذه الحتمية والضرورة إذ أنه من خلال المعطيات المعلوماتية يمكن التنبؤ بحركة الواقع ومسار التاريخ ، هناك الإرادات الإنسانية الحرة التى لا تخضع للتنبؤ ولا حتى عند صاحبها ، إراده الأفراد والشعوب ، إرادة الزعماء والجماهير. فالتغيير الكيفى الإنسانى لا يمكن رصده بالتراكم الكمى ، والقفزة النوعية لا يمكن معرفتها مسبقاً من خلال التطور الآلى.

وكلما ذاعت قيم المركز فى الأطراف من خلال وسائل الاتصال الحديثة وثورة المعلومات فى قنوات الفضاء والأقمار الصناعية والأطباق الهوائية انتشر التغريب ، وتحيزت الثقافات والمجتمعات فى الأطراف إلى الغرب والميل نحوه والإعجاب به ، وتقليده ، واعتباره نموذجاً للثقافة العالمية ، ونمطاً للحداثة وما سواه المحلية والفولكلور والأساطير الشعبية ، وانتشرت أمراض الغرب من العنف والجريمة والشهرة والثروة والقوة . وانتشرت قيم الاستهلاك والفردية والأنانية وغزت قيم الإنتاج والتقشف وروح الجماعة والتضحية فولد ذلك كله رد فعل على الغرب وحداثته. والنزعة السلفية ترفض الغرب ، وتحتقر الحداثة ، وتنفر من المعلومات وتفضل تراث الأنا على علم الآخر وتقليدية الأنا على حداثة الآخر ، وساوت بين الحداثة والانحلال .

وقد ساعدت ثورة المعلومات فى المركز على تقوية النزعة السلفية فى مجتمعات الأطراف، الأطراف، ليس فقط عن طريق رد الفعل بل عن طريق الفعل المباشر، فأوهم المركزالأطراف أن طرقها فى المعرفة ووسائلها فى العلم مساوية للتخلف ، فلا أحد يكتب الآن بيده أو يقتفى الأثر أو ينقل العلم شفاها عن طريق الرواية أو الكتاب ، ولا أحد يستعمل حواسه المباشرة فى العلم والمعرفة سواء فى نظم المكتبات التقليدية أو فى وسائل التعليم الموروثة أو فى نقل التراث الشفاهى. والهدف من ذلك هو نزع مجتمعات الأطراف عن ثقافاتها الوطنية من أجل ادخالها فى ثقافة المركز باسم التثاقف أو المثاقفة مع التركيز على ما يظن أنه الإيجاب فى التحديث والمعاصرة دون السلب ، وهو نزع المجتمعات عن ثقافاتها المحلية واغترابها فى الآخر ، الكفر بالنفس والإيمان بالآخر. وقد تم بناء الحضارات القديمة بوسائل المعرفة فى عصر ما قبل ثورة المعلومات، وما زالت محط الأنظار وإعجاب أنصار الحداثة والمعلوماتية الحديثة نفسها. لم تبن حضارة مثل القدماء، فصناعة وبناء الأهرامات وتشييد سور الصين العظيم لا يقل علماً واتقاناً عن دراسة الأفلاك والهبوط على سطح القمر ، ونحت الحجارة لا يقل علماً عن الموجات الإليكترونية على الشاشة الضوئية، إنما الاختلاف فقط فى ادوات الاتصال. ونتيجة لذلك تم شق الثقافة الوطنية إلى نزعتين متعارضتين : العلمانية والسلفية ، الحداثة والقدامة بتعبير أدونيس ، والجديد والقديم ، المعاصرة والأصالة ، المستقبل والماضى .. تحولت النزعتان الى حزبين سياسيين وقوتين اجتماعيتين تتصارعان من أجل الوصول إلى السلطة

لدرجة الاقتتال بين الأخوة . فأنصار الجديد ضد أنصار القديم ودعاة المعاصرة على النقيض من دعاة الأصالة ، المستقبل ضد الحاضر والمستقبل ضد أنصار القديم. والحقيقة أن كلتا النزعتين ، ثقافة الصور ، وثقافة الكتاب ، تبعية وتقليد للسلف ، الأولى تبعية وتقليد للغرب والثانية تراجع عن الحاضر نحو وهم الماضى. والحاضر وحده هو الواقع المعاش ، وهو الحقيقة التى تند عن الوهمين. غاب الحاضر الذى يتم فيه جدل القديم والجديد ، وتتفاعل فيه الأصالة والمعاصرة ، ويتدخل فيه الماضى والمستقبل ، فالماضى تراكم فى الحاضر، واستشراف للمستقبل.

ووقع عديد من المجتمعات التقليدية فى وهم الحداثة وهى لم تطور بعد تراثها القديم، فاستبدلت وهما بوهم وأسطورة بأسطورة لا يستطيع الطالب التعامل مع المكتبات التقليدية، والكتب على الرفوف للاطلاع بالقراءة المباشرة وتستبدل به الفهارس الاليكترونية المربوطة بفهارس عواصم العالم وأعرق الجامعات وأقدم مراكز الأبحاث، وهو لا يعرف اللغات الأجنبية ، بل ولا يدرك قيمة العلم كما يدرك قيمة التجارة ، وتصور هذه المجتمعات أن ثورة المعلومات عصا سحرية .

وأحيانا تقوم المجتمعات التقليدية باستثمار ثورة المعلومات إلى أقصى حد ،لتدعيم نظمها التقليدية فتجمع بين الحسنيين بطريقتها، فيوضع القرآن فى الفهارس الضوئية فى أجهزة المعلومات الحديثة ، وتصنف آياته وموضوعاته ، ألفاظه ومعانيه ، مكية ومدنية ، ناسخة ومنسوخة ، محكمة ومتشابهة ، ظاهرة

ومؤولة ، حقيقته ومجازه ، ومطلقه ومقيده ، مجمله ومبينه ، أمره ونهيه ، خاصه وعـامه بحـيث تسهل مـعرفـتهـا بمجـرد الضغط على الأزرار ومـعرفـة المداخل والمخـارج ، فيـتحـول القرآن إلـى فهـارس حديثـة مثل بـاقى النصوص الدينيـة والأدبية. وتوضع الدوائر التليفزيونية المغلقـة فى أروقة المساجد الغاصة بالمصلين حتـى لا يفوتن احـدا منهم رؤية الإمام الخطيب . وتسـتعـمل شركـات توظيف الأموال ثورة المعلومـات ونظمها الحديثـة فى الاستثمار والمضـاربات فى أسواق الأموال وفى المعـاملات البنكية ، ولغـة المكسب والخسارة تنطبـق فى الدنيا لنيل الثروة والمال ، وفى الآخرة لنيل النعيم والجـزاء . ويضع البدوى سماعة بلوتوث الموبايل" تحت عـباءتـه فتـجعله قـادرا على الاتصـال بالعـالم كله وهو فى قلب الصحـراء . ويتحـول الأمر من الاقـتصاد إلـى السياسـة إذ تستـعمل الحـركات الإرهابية وسائل الاتصال الحديثة بما فى ذلك الـبريد الاليكترونى لتبادل الرسائل وإعطاء الأوامـر لتدبـير الانقـلابات فى الداخل والاغـتيـالات فى الخـارج وهنا تتحول ثورة المعلومات إلى ستار يخفى أبشع أنواع الحسية والمادية ، وتبريرها.

سيولة وشك :

الفرق بين النصف الثانى من القرن العشـرين فترة الحرب الباردة)، والسنوات الأخيرة من ذاك القرن، هو أن الفترة الأولى كانـت فترة الصراع والثبات النسبى. إنه الصراع بين القوتين الرأسمالية وحلف الأطلنطى من جهة، والاشتراكية ممثلة فى حلف وارسو من جـهة ثانيـة. توازن الرعب النووى خلق حالة من الثـبات ، برزت فيها الدراسات المستقبلية التى تنبأت من طرف بانتصار الرأسمالية وهزيمة

الاشتراكية، ومن طرف آخر بانتصار الاشتراكية وانحدار الرأسمالية .. وفى هذا يرى السيد ياسين أن الوضع العالمى الجديد يتسم بالسيولة الشديدة ، وهذا المناخ الفكرى الذى يميزه عدم اليقين ، هو العقبة الحقيقية فى الوقت الراهن أمام الدراسات المستقبلية .. لقد رأى فوكوياما ، أن العولمة هى تدشين لعصر من الانتصار النهائى للنمط الرأسمالى والليبرالى فى السياسة والفكر والاقتصاد. وكما كان ماركس يعتقد أن الاشتراكية الدولية هى آخر شكل اجتماعى ، اعتقد الكاتب اليابانى الأصل الأمريكى الجنسية (فوكوياما) أن الرأسمالية الليبرالية هى آخر ما وصلت إليه البشرية وهى حلم البشرية الذى انتظرته ، وجاء لهاعلى غير موعد عندما انهار وتفكك الاتحاد السوفيتى فى بداية عام ١٩٨٩ ، السيد ياسين يعتبر أن عام ١٩٨٩ هو عام نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد العشرين – الرأى للدكتور السيد ياسين – وأن العلم الاجتماعى المعاصر يشهد تحولات عميقة فى بنيته المعرفية التى تتجلى فى الصراع الدائر بين أنصار الحداثة وأنصار ما بعد الحداثة . فبينما كانت تقوم الحداثة الغربية على أسس الفرد والعقلانية والاهتمام بالعلم والتكنولوجيا والوصفية فى ممارسة البحث العلمى ، وتبنى نظرة خطية عن التقدم فى التاريخ الإنسانى ، فإن أنصار ما بعد الحداثة يؤكدون تساقط هذه القيم ويقولون بسقوط الأنساق الفكرية المغلقة التى تقوم على مجموعة من المسلمات التى تنتهى بمجموعة

من التنبؤات وأننا فى عصر جديد لن يتاح لأحد فيه إقامة نسق مغلق، لأن اللحظة التاريخية التى نعيشها تتسم باختلاف العالم بشكل كبير .

هناك مـفاهيم ثلاثة تحكم منهـجيـة فهم العلـم الاجتـماعى .. أولهـا مفـهوم الكوكبية، وأبرز تجليـاته فى المجال الاقتصادى اتفاقية « الجـات »، والثانى يتمثل فى صعود القوميات ،أما الثالث والأخير فيتضح فى العلاقات متعددة الأطراف ، مشيراً إلى أن هذه المفاهيم قد صاحبتها مجموعة من المشكلات من أبرزها حق التدخل فى شئون الدول ، سواءلأسباب إنسانية أو أسباب سياسية، والازدواجية فى تطبيق المعايير الدولية ، فضلا عن الثورة القيمية التى تشمل العالم بما فى ذلك مجتمعـاته الغنية والفقيرة على حد سواء، والتى تتمـثل فى العودة لما هو مقدس، والانتقال من المادية إلى مـا بعد المادية ، والثورة المعرفية المتمـثلة فى الانتقال من الحـداثة الى ما بعـد الحـداثة ، والثورة الاتصـاليـة التى يمثلهـا الانتـرنت كرمـز للاتصال المبـاشر بين أفراد المجـتمعـات المختلفة دون أن تكون هناك حـواجز أو قيـود أو رقابة ، وإتاحـة الحوار بين الحـضارات على مسـتوى الأفـراد من خلال الإنتـرنت بجـانب أزمـة دولة الرفـاهيـة التـى تنسـحب فـيـهـا الدولة من الدعم والتأمينات للأفراد وتتجه نحو الخصخصة .

الفصل الحادى عشر:

حدود العولمة

لا أخلاقية العولمة وازدواجية معاييرها

إن سقـوط الدولة القومية وخـضوعها لمتطلبـات ومقتضـيات طوفان العولمة أوهام صنعـها أصحاب هذا التيار ، مـتصورين أن الدولة القومية مثل عرائس المولد التى يمكن أن تتداعى من مجرد التهويش أو التهـديد برعبها، وهو مالم يحدث ، لافى تاريخ العولمة ولا فى أى تاريخ لحضارات سـابقة ، حيث كان الصراع والتشبث بالبقاء هو سـمة من سمات التاريخ ، وأحد مكونات بناء حـوادث مساراته .. وفى رأى لأحـد أنصارهذا الاتجاه فى العالم العربى – عبد الجبار الغانمى الاستاذ بالجامعة الهاشـمية بالأردن – أن العـولمة الاقتصـاية هى بالتأكـيد أبرز ظاهرة اقتصادية فى أواخر القـرن العشرين وعلى تخوم القرن الواحـد والعشـرين ، وهى تيار لا يقـاوم أخذ يجـرف بشكل كاسح كل بقايا المقاومة والرفض. العولمة قادمة وسوف يندفع مع تيارها الجميع، أعـداؤها قبل أصـدقائهـا والرافـضون لهـا قبل أنـصارها، وسـوف يتم اختـراق الاقتصادات القومية طولاً وعرضاً ولن يستطع أى اقتصاد حديث أن يكون بمنأى عن العواصف الاقـتصاديـة القادمة ، وسـوف ينهار الشكل التـقليدى للاقتـصاد القومى الذى نعرفـه الآن، بل لن يكون هناك اقتصاد قومى حـسب الاشتراطات المعروفـة ، وبذلك سوف تسـقط الكثيـر من النظريات الاقتـصادية التى ندرسـها

والتى ظهرت فى القرون السابقة وفى هذا القرن . فالاقتصاد الجديد سوف تكون له نظرياته التى تتفق مع الأوضاع الجديدة .. إنها بالنسبة للدول النامية دواء مر، ولكنها دواء العصر الذى لا بديل عنه ، ولن يستطع أحد التكهن بماهية النتائج التى سوف تترتب على تطبيق هذه النظريات، فذلك يستغرق وقتاً

طويلاً قبل أن يمكن الحكم عليها .. وربما يستطيع ذلك أحفادنا من أبناء نهاية القرن الحادى والعشرين.

ان هذا الرأى يعبر عن هذه النزعة الخيالية الحالمة لهذا التيار والمروجين له، حيث ينفى المقاومة المفترضه ، بسبب عوامل من التاريخ والثقافة والجغرافيا ، وهو رأى " لايضع فى الاعتبار أن الاقتصاديات غير المندمجة بقدر ما هى ضعيفة أمام اقتصاديات العولمة و قوانينها إلا أنها أيضا لا جدوى من اختراقها أو مجرد الاقتراب منها، وذلك لهشاشتها ، وأنها سوف تبقى لهذا بعيداً عن تأثيرات العولمة ، وستجد لنفسها فى النهاية مواقع للحياة ، وإن كانت بعيدا عن التأثير فى مجريات العالم بسبب عزلتها .

حقيقة الصراع

وهناك كثير من الآراء التى خضعت فى حكمها على هذا الطوفان، لتأثير آلة الاعلام الجبارة ، فكانت أسيرة للغة تلك الآلة ومفرداتها، ورددت هذه المفردات كحقائق لا تقبل الجدل ، ولذلك تبدو لمن يناقشها مدى ضخامتها وهشاشة دعائمها ، ولم تحاول تجاوز تلك اللغة وانما أعادت ترديد هذه الآراء فى بيئاتها مادامت صادرة عن أصحاب وصانعى العولمة فلا مجال لمناقشتها .. وآراء أخرى

استندت فـى تحليلاتها واسـتنتاجـاتها فى المسـتقبـل على مقدمـات وافتـراضات صحيحة تجاوزت فيهـا حالة الصراع بين القديم والجديد وبين الأصيل والوافد ، ثم عادت تشكل مجموعة من المشكلات المتخيلة والأنماط المتصورة بناء على هذه الاستنتاجات ، والتى هى مـجرد تخمينات قد يكون بعضها صـحيحاً وقد يكون أغلبها مـجرد خيالات. يقول البـاحث العربى دارم البصام كمـثال لذلك (مجلة "حقائق" التونسية أكتـوبر ١٩٩٧) :ولا يخفى على أى متتبع للكتابات والأفكار حول موضوع العولمة والمستقبلات البديلة ، أن هنالك نوعاً من التسليم بالظاهرة كقدر ، وذلك فى نظرى نوع من التسليم الفكرى بالأطروحات التى تتحدث عن نهـاية التاريخ ومـوت الاستـشراف المغـاير ، وبأن السـوق هو الحل ، وبمعنى ان النموذج المجتمعى لهذا الطوفان ، ونموذج التحول الاجتماعى هو حزمة ليبرالية.. بطبيعة الحال لا يجرؤ أحدنا من الاقتصاديين أو علماء الاجتماع أن

يقف ضد أهمية السوق ، وأن اعـادة الهيكلة الاقتصادية وبرامج التكيف هى أمور ضرورية ومفروضة فى ظل التغيـرات الكوكبية الحالية ، ولكن ، وهذا مهم ، يجب أن نوضح أن التكـيف المطلوب والملائم ليس هو كـمـا يتصـور البـعض بالطريق الـسـالك ، والواضح لمواقع الـقـدم ، ولا يمكن التـسليم بالمسـتـقـبل الاجتمـاعى بنوعية من الدوجـما الحتميـة، بل أن الأمر يحتاج منـا ، أكثر من أى وقت مـضى ، إلى عـمليـة مضـنية من الـفكر والاستـشـراف ، وليس للتـفكيـر بالمستقـبل التقنى ، ولكن كما ذكرت بالمسـتقبل الاجتماعى كـذلك .. ان التشوه الحـاصل فى تجارب التـحول الاجـتـماعى لبلدان المعـسكر الاشـتراكى الـسـابق

وغموض الصورة تؤكد على ما أقوله .

وبالإمكان أن نتوقع تعـرض جيل الشبـاب العربى إلى تأثيرات وضـغوطات حادة خلال الفـترة المقبلة ، أكثـرمما تعرض له فى أية حقـبة زمنية ماضيـة ، فهناك أزمة اجـتمـاعية لظـاهرة العولمة ،وهى بيننا الآن وسـتتفـاقم، وعلينا توفـير رؤية لأبعادها فى أى عـملية استـشراف للعولمة .. وفى الواقع ، ومن خـلال تحليلاتى الأولية لمثل هذا الموضوع الشائك والصـعب ، أقول إن هنالك أربعة أبعاد يمكن مناقشتها فى تحليل الأزمة المقبلة من منظور سوسيولوجى:

أولا : مسألة انتشار المعلومات - ثانيا : قضـية إنتاج المعرفة - ثالثا : ما يتعلق بحسن الهوية ، وأخيرا طبيعة ما سـيطرأ من تغيير على معنى السياسة أو المشروع السياسى.

إن ثورة المعلومات هى من أكثر أشكال الـتعبير الاجتماعى الواسـعة الانتشار التى سيخـتبرها الشباب العربـى بوجه الخصوص، والانسان العربى عـامة خلال العـقدين القـادمين. إننا من ناحـية ، نتـوقع زيادة سـريعة فى نسـبة العـاملين أو المحتكين بهـذا الحقل من مجـموع قوة العمل. . مـاذا يعنى هذا سوسولوجـيا ؟ يعنى أن التطور الحاد الذى سـتأتى به البرمجـيات واستخدامـات الحاسب الآلى والتـواصل المعـرفى الذى يتـيحـه سيـؤدى إلى جـعل العـديد من الفـعـاليـات والنشاطات التى تبدوحاليا متغايرة ومتنافرة ، تخضع جميعها ، بالرغم من

تغـايرها، إلى منطق واحد وإلى عـمليـات وأشكال متـجانسـة. فالعـمل فى المصنع مثلا . أواللعب مـع الأطفال فى المنزل، أو متابعة تطورات الاقـتصاد ، أو

تخطيط مـيزانيـة الأسرة والمصـروفات، أو حـتى الموسيـقى والرسم ، بالرغم من كونها نشـاطات متباعدة ولمستـويات مختلفة ، سيصـبح بالإمكان تنفيذها بنفس مناهج وطرق الـعـمليـات ، وذلك عن طريـق اتبـاع نفس الأسـاليب المنـطقـيـة المعلوماتية ، ومن خلال استخدام نفس الترميز المجرد .

ما أود التنبـيه له هنا ، هو أن تبـعات ذلك مـجتمـعياً هى أن الشكـل والهيكل الخصـائصى للتنظيم المؤسسى، سيـصبح أقل هرمية وأقل تراتبـية ، كما سـيؤدى حتماً إلى التخفيف من حـدة الأنساق الشكلية للضبط والتحكم ، ومن ثم ، إلى أنماط لامركزية وقـائمة أساساً على انتشار الشـبكات .. من جانب آخر ، نود أن نشير إلـى أن التغير لن يقـتصر على وسائط فى إنتـاج وانتشار المعرفـة فحسب ، ولكنه سيمتد إلى أشكال ومـعايير المعرفة ذاتها ، حول كيفيـة تضمين المعرفة فى المجتمـع ذاته ، واستجلاء المسكوت عنه فى الممـارسات السياسـية والثقافـية ، مما سيؤثر حـتماً على مراجعة مـعنى المواطنة ، ومراجعة قوانين اللعـبة ، التى كانت تؤسس المعرفة على تنميطات ومسلمات تكرس مواقع التلسط .

بإمكاننا القول إن دينامية الهـوية ،سوف تصبح مختلفة فى مجتـمع يحتل فيه الرمز والاتصال مساحةكبيرة ، كما نتوقع أن يحدث مستقبلاً. واذا كان للمواطنة أن تبقى كمصطلح أو مفهوم ذى معنى فيـتوجب إعادة إنشائها فى داخل الحقيقة الاجتمـاعية والطبـقية والنفسـية الجديدة ، اذ أن السلسلة والتمـثيل غير المتـمايز للأحداث عبر فضاءات المحلى والقومى والكوكبى سيغير لدى الجيل الناشئ من أوزان مـعادلات الـولاء لكل منهـا ، ذلك عكس ما تـربينا عليـه كجـيل عـايش

الاستقلالات الوطنية وكان ولاؤنا المحلى فوق كل اعتبار.. ولايمكن لأى واحد منا فى الوقت الحاضر أن يتنبأ بتوليفة الهوية لدى الشباب العربى بين هذه الفضاءات ، فهنالك عمل ضخم ينتظر علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعى العرب لتحليل الخرائط الإدراكية للشباب والتحقق من أبعاد الهوية لديهم فيمجتمع العولمة والمعلومات .

وتؤكد الأطروحات الجديدة فى أدبيات علم الاجتماع ، وخاصة المناظرات فى المجلات العلمية ، أن مجتمع الغد ، نتيجة للتفتت وعدم استقرار الخطاب ، سينعكس بصورة واضحة على الهوية الشخصية. ويضيف الباحث العربى : مع تطور الاستهلاك العام ومع الضخ الإعلامى الذى أفرزته العولمة أصبحت الأساليب والأنماط والممارسات الثقافية للشباب ممزوجة ومزدوجة، من خلال خليط لا حدود له من الأذواق والرؤى والصور المتخيلة. ومع تفتت الثقافة، فان التحسس هو الآخر قد تعرض إلى عملية التفتت مصحوبا بمزيج من نماذج أو أنماط العيش .. وهذا ما سيؤدى مستقبلا إلى تآكل أى معنى للمشروع السياسى ، لأن حياة الأفراد تصبح بصورة متزايدة عبارة عن مجموعة من الأحداث المتقطعة والسريعة والقابلة للاستبدال بسرعة ،مع فقدان الحس المتوارث بدائرية الزمن والذى ينزع عادة إلى ضغط الماضى والحاضر والمستقبل فى جسد لا يمكن تجزئته، وكما اعتدنا على ذلك فى ثقافتنا العربية – الإسلامية .. إن سلسة الأحداث فى مجتمع الغد ، ستكون شعورية بحتة فى غالبها ، ولا تنبع من أو تستقر فى اللاشعور ، ذلك الخزان الذى يوفر مقومات المشروع المجتمعى .. إن

الجيل الحاضر يفتقر إلى ذلك، ولذلك نتوقع استجابات أخلاقية مختلفة للعولمة ، ومن الإغراق فى «النرجسية » بين الشباب ،لأن اتساق الصور المتخلية ومدونات القيم وقواعد المعرفة وشبكات المعلومات تعمل بأجمعها على إنشاء نمط استهلاكى متوجه نحو الداخل (داخل الفرد) ويبرز من خلال زيادة التركيز والاهتمام باللياقة الجسدية وتحقيق الذات، مع تصاعد الجوانب الروحية نتيجة لأزمة الانتماء إلى مشروع سياسى أو مجتمعى واضح .

ومع أن التحليل السابق يستند الى أسس منهجية صارمة ، إلا أن مقدماته وافتراضاته الأولية يشوبها التعميم الخاطئ أحيانا أو المبالغ فيه على أقل تقدير، التى تناقش الشباب ككتلة واحدة مصمتة خالية من التباينات بين أصول ثقافية أو مهنية أو اجتماعية وغيرها بلإنها تجعل من هذه المكونات مجرد عامل سلبى لا تأثير له فى معطيات جديدة تضفى عليها كل قوى التأثير. وبوضع هذه المعايير فى مناقشاتنا للعولمة نؤكد أن هناك حدوداً لمجريات التأثير والتفاعل سوف تحد من العولمة على أقل تقدير وإن لم تكن تصطدم بها، وسوف تنتج عن ذلك أشكال جديدة من الصراع وأيضا أشكال جديدة من التفاعل الخلاق الذى قد يدفع الآخر فى مواجهة الهيمنة إلى محاولة إيجاد خطوط دفاعية تحد من تأثيراتها.

حرب المعلومات

وقد يقود هذا الصراع إلى تصور الصيغة القادمة للحرب بين أنصار وقوى العولمة أو إدارة الصراع الذى ينتشر بين قوى العولمة ، والتى عبرعنها أحد قادة

حـرب الخليج الأمريكان الذى حـدد هدف حـرب المعلومات كـإحدى تقنيـات الهيمنة الأساسـية بأنها " إعادة تشكيل إرادة شعب آخر عن طريق تغـيير تصوره للواقع ، وأن الانتصار فى حرب المعلومات هو أن تجبر العدو أن يفكر كما تريد، (المعلومات فى هذا التصور هى أداة أو تقنية يتم استخدامها على عدة مستويات بدءاً من تحديد التصورات عن كيف يفكر الآخر، إلى العوامل المؤثرة فى قراراته، إلى التدخل بشكل أو بآخـر لتوجيه قرارات وأفكار القـادة إلى الاتجاه المراد له بما يخـدم المصلحة النـهائيـة). ومن هنا فـإن التسليم بمعـطيات وأطروحـات أفكار العولمة والانسـياق فى تيارها بلا صراع أو تـفكير هو نوع من الاستسـلام قبل أن تبدأ المعارك .

ويشيرقـول المسؤول الأمريكى " جون وارن " الذى كان مـسئولاً عن تخطيط العمـليات الجوية فى حـرب الخليج إلى قـضية التـشابه بين الدور الأمـريكى فى فرض الهيمنة بإسـتخدام تقنيات العولمة التكنولوجية والاقـتصادية وبين الطريقة التى نشـأت بهـا الأمة الأمـريكيـة. فـمنذ أربعـة قرون بدأت عنـاصر من الأمـة البـريطانية (الإمـبراطورية التى كـانت لا تغـيب عنها الشـمس) فى استـعمـار واستيطان القارة الأمريكية، واتبعت جـميع أساليب الإباده والتدمير ضد السكان الأصليين فى القارة الأمـريكية، وفرضت الأساليب الأنجلوساكسـونية فى الحياة والتفكيـر .. ولذلك تحولت المجمـوعات المهاجرة إلى قـوة أساسيـة فى القارة ثم قوة عظـمىبـعد ذلك .. والجـديد أن المحاولة الأمـريكية الجـديدة لا تعتمـد على القتال المباشر وتدمير الآخرين وإنما على اسـتخدام التقنيات الجديدة للمعلومات

والإقتصاد وعلوم الإتصال والإعلام، كمادة جديدة لزعزعة الآخرين وتخويفهم وأيضا للـتأثير فى أفكـارهم، بحيث يقـومون من خلال هذه المؤثـرات سواء فى حالة الـسلم أو الحرب بإتخـاذ قرارات لصالح الأهداف الأمـريكية فى النـهاية ، وان كانت فى بدايتـها تعبر عن إستـقلال القرار ، حيث إن المسـافة بين المؤثرات التى أسهـمت فى صنع القرار ـ من ناحـية أخـرى ـ وهى مؤثرات أجنبـية وبين صاحب القرار وهو وطنى ـ من ناحية أخرى ـ غير واضحة أو معلومة .

السيادة والتبعية

ويرى الباحث الاجتماعى عبدالفتاح عمر أن السيادة اليوم فقدت كل أبعادها ، كما أنه ليس صحيحاً فى المقـابل القول إن الدول حافظت على سيادتها بالمعنى المعهود. فـفى الصراع القائم اليوم لـيس هناك طرف فاعل دوما وآخر مـفعول به دوماً . فأى طرف يمكن أن يكون فاعلا ومفـعولاً به فى الوقت نفسه. وعليه فإنه يمكن القول إنه إذا كانت هناك سيادة مهددة ، فـهى سيادة الجميع وليست سيادة دول أخـرى ، وهى مـهـددة من قـوى غـيـر دوليـة كـالشـركـات ، والمنظمـات والأشخاص الفـاعلين الذين بإمكانهم تغيير العـملة فى أى لحظة ، وهم يمثلون سلطة تحـد لا تهدد دولة فـقط بل تهدد المنظومـة الدولية .. فى الـتصور السـابق للسـيادة كان هناك فـضاء لكل دولة ، وكل دولـة تمارس سلطتهـا على فضـائها الخاص ، أما الآن ومن جراء عولمة الاقتصاد والاتصال ، فالفضاء أصبح مشتركاً للبشـرية جمعاء، ونتـيجة للفضـاء المشترك أصـبح هناك تعليم مشترك ومـبادئ مشتركـة ، وثوابت مشتركة ورأى عام مـشترك يمتد من الصحـافة إلى المنظمات

غير الحكومية .

تلك المتغيرات جعلتنا نطرح منطق الكوكبية والخصوصية الذى يقود إلى عدة تساؤلات

محورية ، هل الكوكبية جمع للخصوصيات أم هى فى قطيعة معها ، أو هى طريقه لتغليب خصوصية على خصوصيات أخرى ؟ ومن هنا تأتى الجدلية وتأتى فكرة الصراع ، هل بالإمكان أن تكون الغلبة للكونية فى قطيعة مع الخصوصية فتكون بمثابة الهروب إلى الأمام ، أم تكون الغلبة للخصوصيات فتكون الخصوصية هى سبب للتهرب من بعض القيم المتصلة بذات الإنسان مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان ؟

نلاحظ أنه فى العلاقات الدولية وداخل الدول أيضا ، كلما كان الحل متجاوزاً للحدود فحتماً سيؤدى إلى رد فعل متجاوز ، وأن طبيعة الأمور تكمن فى الصراع بين الآراء المختلفة، وحق المناقضة لايجاد توازن فيما بينها ، علماً بأن كل توازن هو توازن وقتى يكون بدوره منطلقاً لتناقضات أخرى ولصراعات أخرى بحثاً عن توازنات أخرى . وما تتعرض له السيادة اليوم إنما يندرج فى الحفاظ على حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها مع التفاعل بين الشعوب بخصوص ما هو مشترك فيما بينها من مصالح وقيم وربما تطلعات.. كما أن التحولات التاريخية ليست سهلة الفهم أو ذات اتجاه وحيد .

وفى عالمنا العربى فرضت لا أخلاقية العولمة (النظام العالمى الجديد) معاييرها المزدوجة ففرضت العقوبات على السودان وسوريا ومن قبلها العراق

وليبيا، ورفضت معاقبة إسرائيل على خـرقها للقرارات والقوانين وإنتهاكها حتى للإتفـاقات الدوليـة بينمـا كانت الـدول الكبرى على رأسـهـا الولايات المتحـدة ترفض مجرد إدانه إسـرائيل. وفى مجال الرقابة على الأسلحـة النووية تم تجاهل رفض إسـرائيل التوقـيع على معـاهدة حظر الإنتـشار النووى وتعـرضت مصـر لضـغوط تحـت دعاوى زائفـة بإضطهـاد الأقـباط ، بيـنما لـم يسـأل الكونجـرس الأمريكى عن إضطهـاد الفلسطينيين ، لأن هذا ليس إضـطهاداً أو ظلماً تسـتحق بموجبه إسرائيل العقوبات والتحذيرات. لقـد كانت السياسة الأمريكية فى عصر العولمة سافرة فى لا أخلاقية معاييـرها وإهدارها للقيم السياسية وتجاهلها لأبسط حقوق الشعوب .

لكن المؤكد أن بشائر العولمة لا تعنى نهاية التفاوتات الاجـتماعية والاقتصادية وبداية عصـر رخاء وتقـدم وإنما هى تزيد من هذه الفجوة عـلى عدة مسـتويات، فبالنسبة للدول المتقدمة هناك صـورة أخرى تتعلق بأزمة الدولة القومية فى البلاد الرأسمالية المتـقدمة مثل فرنسا وألمانيا والولايات المتحـدة الأمريكية. وتتعلق هذه الأزمة بنهاية عصر ما أطلق عليه من قبل " دولة الرفاهية "، ويعنى بها الدولة التى إستطاعت بحكم الارتفاع المتزايد فى معدلات الدخل القومى ، أن تصوغ شبكة متكاملة من التـأمينات الاجتمـاعية فى مـجال الصحة والبطالة والعـلاج ، كانت هى بذاتها العاصم من حـدة الصراعات الطبقيـة ، التى كان يمكن أن تسود هذه المجتمعات نتيجة ظروف إقتصادية واجتماعية شتى ..وهى الآن أصبحت عاجزة عن تمويل " دولة الرفـاهيـة " وأصـبـحت مـخـيـرة بين إلغـاء بعض التـأمـينات

الاجتماعية أو الإنقاص الواضح فى معـدلاتها أو إلغائها نهائياً كما تنادى بعض الأصوات المتطرفة ، مما قد يهدد السلام الاجتماعى بين الطبقات .

وتكشف الأوضاع السائدة فى دول الجنوب ، حيث الفقر والتخلف أن العولمة تدور فى حلقة ضـيقة نسـبياً من الأمم والشعـوب وإن كانت تستـأثر بالثروات. ففى نظرتنا لأهم مـشروعات العـولمة مشروع (السـوبر هاى واى) الذى يهدف إلى تأمين انتقال المعلومـات الفائقة السرعة بدون عوائق أو قيود، يعـتمد مشروع الطريق السـريع للمعلومـات على التطور الكبيـر فى صناعة واستـخدام أجـهزة الكمبيوتر والإمكانات غير المحدودة فى ربط أجهزة الكمبيوتر وانتقال المعلومات باسـتـخـدام الخطوط السلكيـة واللاسلـكيـة والتليـفـزيون بما يتـيح للشـركـات والأشخاص تبادل الرسائل والمعلومات والصور المتحركة حول العالم .

والولايات المتحدة الأمريكية هى صاحبة الفكرة والمسئولة عن تسمية المشروع " بالسـوبر هاى واى "، وقـد جـاءت هذه التسـمـيـة من الخـبرة الأمـريكيـة فى المواصلات والطرق البرية، حـيث أقامت الحكومة الأمريكية بعد الحـرب العالمية الثـانيـة شبكة عـمـلاقـة من الطرق السـريعة، ربـطت أجزاء الولايات المـتحـدة وساعدت على إنجاز قفزة إقتصـادية وتجارية كبيرة .. وقد تبنت الولايات المتحدة فكرة إنشاء " السـوبر هاى واى " فى مجال نظـم المعلومات، تأكيـداً لريادتها فى مجال المعلومات وحتـى تضمن كما يقول الفرنسيون إسـتـمرار سيطرتها فى هذا المجال ، وتوسـيع الأسواق أمـام الشركات الأمـريكية العـملاقة المتـخصـصة فى تكنولوجيا الاتصالات ونظم المعلومات .

ويمكن القول إن " السوبر هاى واى " هو صورة أكبر وأكثر تطوراً وإتساعا من الإنترنت ، فإذا كان من المتوقع أن يزيد عدد مستخدمى الإنترنت إلى أكثر ١٠٠ مليون شخص قريباً فان السوبر هاى واى سيضم أعداداً أكبر وسيعتمد على إزالة الحواجز والقيود الإدارية والقانونية التى تضعها بعض الدول على تبادل المعلومات وعلى الاستثمارات الأجنبية فى مجال الإتصالات. ويذكر أن جور نائب الرئيس الأمريكى السابق قد أعلن فى بروكسل فى إجتماع الدول الصناعية والشركات الكبرى لإنشاء السوبر هاى واى أن الولايات المتحدة تتعهد بتغيير قوانينها للاتصالات، التى وضعت قبل ٦٠ عاما ، وإسقاط الحواجز أمام الاستثمارات الأجنبية فى هذا المجال بدءاً من عام ١٩٩٦ . وتعهد آل جور لا يفيد سوى الشركات الأمريكية العملاقة التى تسيطر على الأسواق العالمية فى مجال الاتصالات ونظم المعلومات ، وبالتالى فإن هذه الشركات لا تخشى .من منافسة الشركات الأجنبية بل ستستفيد من إسقاط الدول الصناعية للقيود المفروضة على الاستثمارات الأجنبية فى مجال الاتصالات ونظم المعلومات .. ومن هنا رفضت اليابان المشروع خوفاً من منافسة الشركات الأمريكية لها فى مجال البث المرئى ، وتحفظت كل من فرنسا وإيطاليا على المشروع لأنه سيدعم بصورة أكثر تطوراً الغزو الثقافى الأمريكى للثقافة الأوروبية ، فالطريق السريعللمعلومات سيدخل كل بيت ويقدم معلومات وأنواعاً من التسلية لكل مشترك بدون أى رقابة بالإضافة الى الآثار السلبية المتوقعة على الشركات الأوروبية العاملة فى مجال الاتصالات ونظم المعلومات .. فماذا عن دول

الجنوب التى تعانى من التزايد المستمر للفجوة الاقتصادية والتكنولوجية والمعلوماتية مع دول الشمال؟ وماذا يحدث لثلثى البشر فى عصر أصبحت تكنولوجيا المعلومات ذات أهمية كبيرة فى كسب الأسواق، بل وفى تحقيق أهداف الحرب والسياسة التقليدية بأساليب جديدة ؟

لقد أعلن خبراء أمريكيون أن الطريق السريع للمعلومات سيشمل كل دول العالم ، ولن يقتصر على الدول الصناعية المتقدمة، لكن من أين لدول الجنوب الموارد الكافية للاشتراك فى المشروع والاستفادة من حسناته ؟ .. هكذا تظهر حقيقة المشروع الأمريكى أو السوبر هاى واى الدولى ، فهو فى الأصل مشروع خاص بالدول الصناعية المتقدمة ولا يهتم بدول الجنوب أو يضعها فى الاعتبار ، الأمر الذى يكرس ، ويعمق الفجوة بين الشمال والجنوب ويؤكد رغبة دول الشمال فى استمرار احتكار التكنولوجيا ونظم المعلومات بإعتبارها أهم عناصر القوة فى العصر الحالى .

إن طوفان العولمة كان اتجاهاً ظهر بعد إنهيار الإتحاد السوفيتى ، ليبشر بالقوة العالمية الجديدة التى تسعى للسيطرة عبر تقنيات تكنولوجية جديدة ، هى السوبر هاى واى وشبكة الإنترنت ، وأجهزة التلستار والشركات الاقتصادية العملاقة العابرة للقوميات والمنظمات الاقتصادية الدولية .. وتتخفى العولمة حول شعارات تتراوح ما بين الترغيب بالرخاء والنعيم من ناحية والتهديد بالتهميش والتخلف من ناحية أخرى. ولكنها فى طيات ذلك تخفى انتقادات ظهرت مع تقنيات عصر الصناعة فى التدمير الذى ألحقته الثورات الصناعية بالبيئة والذى

يهدد كـوكب الأرض ، وفى التدمير الذى لحق بـالغابات وعدم التوازن البـيئى ، وفيـمحدودية العلم فى مواجـهة مشـاكل صحية واجـتماعيـة واقتصادية جـمة. جاءت العولمة تبـشر بأشياء وردية جمـيلة بعد أن كانت الحضـارة المادية والتقدم الصناعى الـغـربى قـد وصـلا إلى درجـــة من درجـات الانتـقـــاد الذى كـشف محدوديتـهما وعيوبهـما.. وكان كل منها يحتـاج شيئاً جديداً فى مـجال هندسة الاتصالات، والهندسـة الوراثية وثورة المعلومـات والاتصالات. لذلك فالفـئات التى سوف تستفيد من ظاهرة العولمة محدودة، وإن كان مركز ثقلها الأساسى فى الولايات المتحدة الأمريكيـة. وهناك بعض المراكز فى أوروبا واليابان، وعدا ذلك مجرد مجتمعـات تدور فى الفلك وتعيش على الفتات أو الهامش .. هذه العولمة سوف تصطدم بثقافات وتقـاليد أصيلة ومجتمعات عـريقه وقيم وأفكار راسخة تتعارض مع القيم الفردية والاستهلاكية كحضارة العولمة وأهدافها .. إن الصراع هو الحكم القادم وإن العولمة سـوف تتضح معالمها وكيانهـا وآثارها وقدراتها من خلال نتائج هذه الصراعات فى السنوات القادمة.

المراجـــــع

– أسامة مـحمود: المكتبـات والمعلومات فى الدولة المتقدمـة والنامية، العربى للنشر، القاهرة، ١٩٩٨.

ـ أسس الجغرافـيا السياسـية والأوضاع العالميـة الجديدة، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٩٤، د.ن.

– السيد يسن: الشخصية العـربية.. بين مفهوم الذات وصورة الآخر، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٨.

– بيل جيـتس: المعلوماتيـة بعد الإنترنت «طريق المسـتقبل»، ترجـمة: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨.

– توماس كون: بنية الثورات العلمـية، ترجمة: جلال شوقى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢.

– د. جلال أمين: العولمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨.

– جون كلوفر مونسما: الله يتجلى فى عـصر العلم، الجمعية المصرية للنشر، القاهرة، د. ت.

- جـون كـولد: الفـكر الشـرقى القـديم، ترجـمــة: كـامل يوسف، مراجعة: د.إمام عبد الفتاح، الكويت، ١٩٩٥.

- جيران فى عالم واحـد، ترجمة: مجموعة من المترجـمين، مراجعة: عبد السلام رضوان، الكويت، ١٩٩٥، د.ن.

- حقوق الإنسان والسـياسة الدولية، «طـ. الأولى»، الجمعـية المصرية للنشر، ١٩٩٣، د.ن.

- د. حسـين مؤنس: تاريخ مـوجز للفكر العـربى، «ط.الأولى»، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٦.

- دانييل يانكلوفيتش: الديمقـراطية.. وقرار الجماهير، «ط. الأولى»، الجمعية المصرية، القاهرة، ١٩٩٣.

- رونالد ماكينون: النهج الأمـثل لتحرير الاقتصاد، الجمـعية المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٩٦.

- سيمـون سرفانى: وسائل الإعـلام، «ط. الأولى»، الجمعيـة المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٩٥.

- د. عبـد الحليم منتـصر: تاريخ العلم ودوره فى تقـدم البشـرية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦.

- د عبد الغفار مكاوى: جذور الاستبداد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤.

- عبد المنعم إبراهيم : العالم الأوروبى «ط. الأولى»، مطبعة الجبلاوى، القاهرة، ١٩٩١.

- د. عواطف عبد الرحمن: قضايا إعلامية معاصرة فى الوطن العربى، «ط. الأولى»، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٧.

- فالينتينا إيفاشيفا: على مشارف القرن الواحد والعشرين، ترجمة: فخرى لبيب، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٨.

- كارل ساغان: الكون، ترجمة: نافع أيول لبيب ساحق، كامل عارف، سلسلة عالم المعارف، الكويت، ١٩٩٣.

- كريستوفر بارتلت سومنترا: الإدارة عبر الحدود.. الحلول بين القطرية، «ط. الأولى»، الجمعية المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٩٤.

- لارى إلويتز: نظام الحكم فى الولايات المتحدة، «ط. الأولى»، الجمعية المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٩٦.

- ليستر براون وهال كين: السكان وكوكب الأرض، ترجمة: ليلى زيدان، الجمعية المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٩٤.

- العلامات الحيوية، الجمعية المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٩٦.

-مارتن بزنال: أثينا السوداء.. الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ترجمة: لطفى عبد الوهاب، وفاروق القاضى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧.

- مجموعة من الكتاب: نظرية الثقافة، ترجمة: د. على سيد الصاوى، مراجعة: د. الفاروق زكى بولاس، الكويت، ١٩٩٧.

- محمد عابد الجابرى: نقد العقل العربى.. بنية العقل العربى «٢»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧.

- د. محمد عبد المجيد عامر: دراسات فى أسس الجغرافيا السياسية والأوضاع العالمية الجديدة، دار الدعوة، القاهرة، ١٩٩٣.

- د. محمد عمارة: التراث والمستقبل، «ط. الأولى»، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٧.

- محمد قطب: التفسير الإسلامى للتاريخ، «المجموعة الثانية»، السعودية، ١٩٨٩.

- مصطفى إبراهيم طه: نهاية الكوارث الكونية.. وأثرها فى مسار الكون، مراجعة: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعارف، الكويت،

.١٩٩٤

- د. مصطفى النشار: نحو رؤية جديدة للتاريخ الفلسفى باللغة العربية، «ط. الأولى»، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٣.

- مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٥.

- د. نبيل على: العرب وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤.

- يمنى طريف الخولى: مشكلة العلوم الإنسانية، «ط. الثانية»، دار الثقافة والنشر، ١٩٩٦.

الدوريات والصحف :

- الأخبار القاهرية، عام ١٩٩٧.

- الأهرام القاهرية، أعوام ١٩٩٦، ١٩٩٧، ١٩٩٨.

- السفير البيروتية، أعوام ١٩٩٦، ١٩٩٧، ١٩٩٨.

- السياسة الدولية، القاهرة، عاما ١٩٩٦، ١٩٩٨.

- النهار البيروتية، أعوام ١٩٩٦، ١٩٩٧، ١٩٩٨.

- الهلال القاهرية، عام ١٩٩٧.

- B.Balassa The Theory Of Economic Integration (1960)
- B.Balassa The Theory Of Economic Integration London 1961
- B.Balassa The Theory Of Economic Integration 1961
- Brnda at Political and Economic Factors In Regional Integration
-Dennis Swann The Economics Of The Common Markrt 1992
- Peter Robson Economic Integration In Africa 1968
-Un Unctad Trade Expansion And Economic Integration Among Developing Countries1967
-Un Unctad Current Problems Of Economic Integration 1971

محتويات الكتاب